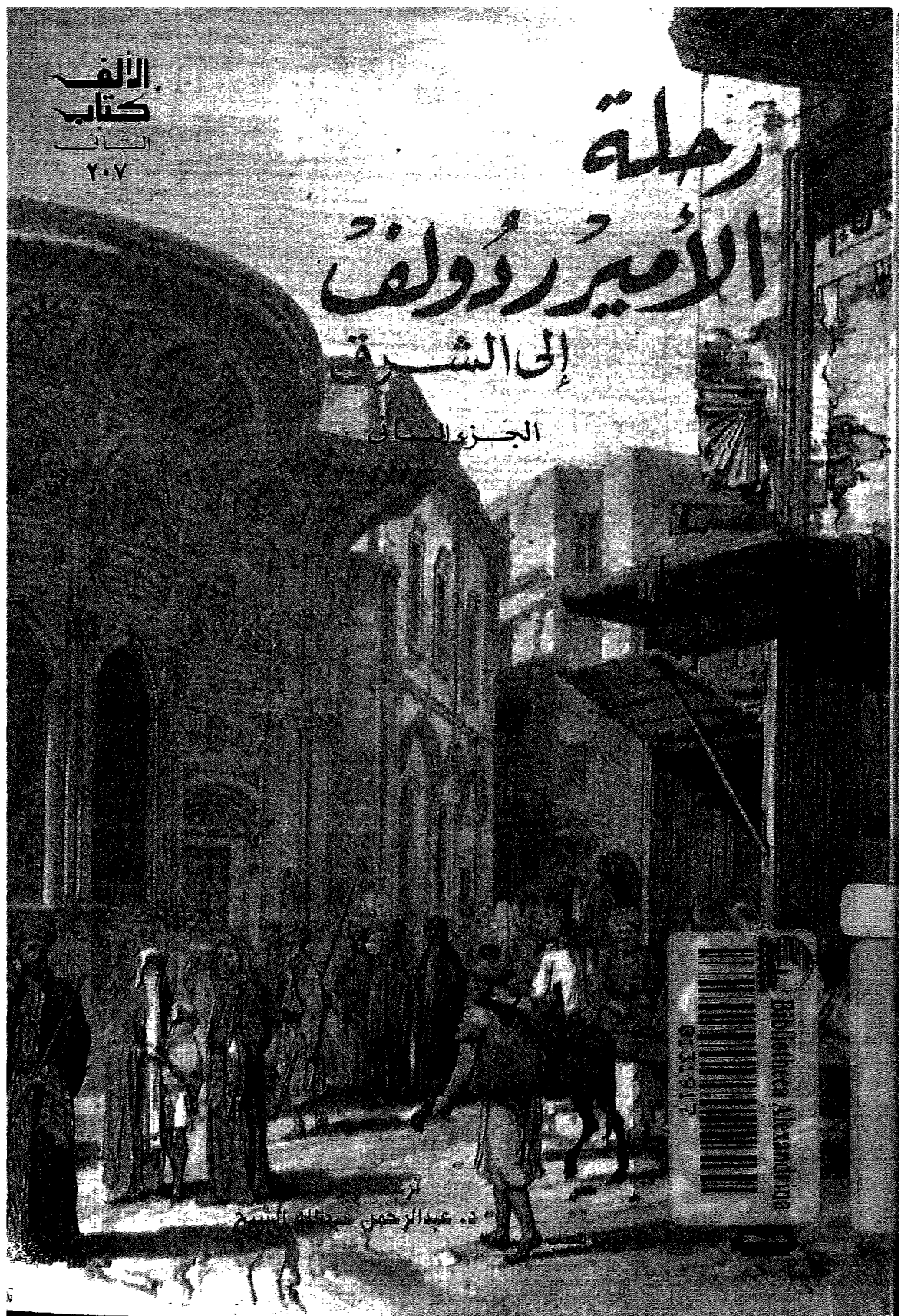


كتاب
الكتاب
٢٠٧

رحلة الأمير رولف إلى الشرق الجزء الثاني



ترجمه
د. عبد الرحمن محمد الله الشيخ

رحلة
الأمير رودولف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

د. سمير سرحان
رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفني

علياء أبو شادي

رحلة
الأمير ردولف
إلى الشرق
(مصر والقدس)

الجزء الثاني

صاحب السمو الأمير الطوري والملك
الأمير ردولف

ترجمة ودراسة
د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

الفهرس

الصفحة .	الموضوع
٧	مقدمة المترجم
٧	الفصل الرابع
٤٩	تعليقات المترجم على الفصل الرابع
٥٤	الفصل الخامس
٨٨	تعليقات المترجم على الفصل الخامس
٨٩	الفصل السادس
١٣٤	تعليقات المترجم على الفصل السادس

مقدمة المترجم

يتابع الأمير ردولف - وصحبه - رحلته في هذا الجزء فيصل إلى أسيوط ومنها يتابع رحلته النيلية إلى أسوان وجزيرة فياه ، وفي رحلة العودة يزور ما لم يكن قد زاره في رحلة الذهاب بمعنى أن عودته ليست عودة تقليدية لشخص أدى مهمته وانتهى ، وإنما نجده يزور مناطق لم يزورها من قبل مثل كوم الأمير وأرمنت ، ويتابع زيارته للأقصر وقنا وسوهاج ، وحتى عندما يعود للقاهرة يحدثنا من جديد عن مشاهداته فيها : حديقة الأزبكية ، مولد الحسين ، ويقوم برحلة صيد للهرم .

ويتابع رحلته لشرق الدلتا فيزور بحيرة المنزلة ودمياط والاسماعيلية وبور سعيد ويلتقي بفردناند دي ليسبس المشهور وكان وقتها رجلا عجوزا على حد وصف الأمير ردولف ويعبر قناة السويس فيزور عيون موسى ، ويعود مرة أخرى للقاهرة فيحدثنا عن شجرة مريم ومزرعة النعام والحمام التركي والقلعة والكتبخانة ويتجه بباخرة نيلية للقناطر الخيرية . ثم يعود لمنطقة السويس ، ويزور بور سعيد ، ثم يغادر مصر إلى يافا .

وقد خصصنا مقدمة الجزء الأول لتكون دراسة مفصلة نسبيا عن الرحلة كلها ، أما في الجزء فنكتفي بإيراد بعض النقاط .

تعقيب الأمور في الشرق :

لاحظ ردولف - كما لاحظ رحالة آخرون سبقوه أو أتوا بعده - أن الأمور أو الأعمال لا تجرى في الشرق (ومصر شرق) بسهولة « . . فليس في الشرق عمل سهل فكل شخص يضطر طلبا للخدمات ، وكل شخص يحث حصانه أو حماره بكل ما يمتلكه من عنف ، وكل شخص يدفع الآخر لينجيه جانبا . . والكل يصرخ . . والكل يوميء . . ويضطر الغريب البائس في خاتمة المطاف للاقاء نفسه بين ذراعي أول قادم » .

الرقص الشرقى :

يصف الرقص الشرقى فى سعيد مصر بأنه عريضة تعود لخيال مريض .

البرود الانجلىزى :

أشار ردولف الى أنه أثناء ابحاره فى قناة السويس اصطدمت سفينته اصطداما خفيفا بسفينة انجلىزية والتصقت السفينتان ، ولكن القبطان الانجلىزى ظل ينظر من فوق سطح سفينته متابعا لتتابع الموج ، وكأن الأمر لا يعنيه بينما راح الرجال الراكبون مع ردولف يوسعون ما بين السفينتين .

القناطر الخيرية :

وقد شاهد الأمير ردولف القناطر الخيرية ونقل ما كان يتردد عن هذا المشروع العظيم فى ذلك الوقت من أنه أعاق الملاحة فى النيل ، وأن مردوده الاقتصادى لا يتناسب مع المبالغ التى تم انفاقها عليه . وغنى عن البيان أن هذه الآراء كان يرددها أعداء مصر وأعداء محمد على ، خاصة وأن الذى كان يتولى أمر مصر - زمن الرحلة - هو الخديو اسماعيل ، الذى كان يترسم بوضوح خطى جده العظيم .

الطرق الصوفية :

الطرق الصوفية لم يعرفها الاسلام فى عصوره النقية الزاهرة الأولى ، وكان معظم الدراويش الذين رأهم الأمير من أهل شرق أوروبا وآسيا الصغرى ، ورأى فى بعض عمائمهم وطقوسهم تأثيرات فارسية .

ولا نجد أى اعتراض على قوله ان الاسلام فى عصوره الزاهرة الأولى لم يعرف الطرق الصوفية .

د • عيد الرحمن عيد الله الشيخ

الفصل الرابع

أسيوط - أبو تيج - بركات الشيخ - تخميم - جرجا -
الوكيل القنصلى القبطى - موسيقا ورقص - البلينة -
العرابة المدفونة - بقايا جثث الجيش الرومانى - تاجر آثار
أعمى - قنا - معبد دندرة - طيبة - آثار الكرنك العظيمة -
العبادة - أرمنت - ترجمة برجس لبعض النصوص الأثرية -
اسنا - الكاب - معبد كوم امبو - جزيرة فيلة - أسوان -
العبادة فى أسوان - الذهب الميت يتحرك من جديد - رسوم
بوسنجر - تعليقات المترجم *

وصلنا أسيوط فى الصباح الباكر والظلمة لازالت حالكة ، ولم تكن
سعداء لانهم أيقظونا من نوم مريح ، وغادرونا الحافلات وسرنا على الأقدام
- يسبقنا حملة المشاعل - هابطين فى طريق جيدة اضاءته ، حسنة زينته ،
حتى وصلنا لمرسى البواخر النيلية * وقفه قابلنا وكيلنا القنصلى بود
وحرارة ، وهو تاجر قبطى ثرى ، وكان هو الذى أعد كل هذه الترتيبات *

لقد تفضل الخديو فأعارنا الباخرة فيروز Feriz التى رست على
الشاطئ وانتظرنا قبطانها المصرى العجوز على الجسر الموصل لها *

لقد نما فى نفوسنا حب هذا القبطان المصرى النشيط والمقتدر *
لقد كان أفريقيا داكن البشرة ، ولسوء حظنا فانه كان لا يعرف الا كلمات
انجليزية قليلة بالاضافة للغات الشرقية ، لذا فقه كان نقاشنا معه مضحكا
ذا طابع فكاهى فقد كنا نستعين بالمترجمين أحيانا وبالاشارات - التى
ابتكرناها للتعبير عن مرادنا - أحيانا أخرى *

وقد صحبنا برجس باشا Brugsch Pasha (١) عالم المصريات
الشهير فى رحلتنا صاعدين فى النيل ، وقد جلس مع الهر راث
Herr Rath (المساعد القنصلى ودارس الشرقيات الذى كنا مدينين

له كثيرا بكل جولتنا فى بلاد الشرق) على سطح يخت نائب السلطان viceroys (الخديو) وهو يخت ضخم فخم مؤثث بكل ما هو مريح .

لقد كانت الكيائن كلها فى الغاية من الأناقة ، وقد تم تخصيص الغرفة الأخيرة الواسعة لى ، والى الأعلى - على سطح اليخت - توجد غرفة طعام رحبة كنا نقضى فيها أيضا فترة ما قبل الظهر كما كنا نقضى فيها ساعات للدراسة .

وعلى سطح اليخت أيضا منصة (منبسط مدرج) مغطاة بالكنافاه Canvas تمكن المرء أن يلقي نظرة أكثر شمولاً ، وقد وضعنا جلود الحيوانات التى صدهاها وكذلك الطيور فوق سطح اليخت وقد أعدنا ورشة مزودة بكل ما يتعلق بأعداد الجلود .

فى هذا اليخت الرائع كان علينا أن نقضى أياما لا يمكن أن تنسى ، فقد رأينا على ضفتى هذا النهر التاريخى العريق ذى المياه الصفراء أراضى لازالت عليها بقايا الجاذبية الساحرة لآلاف السنين من الحضارة القديمة ، بين مناظر فى الغاية من الروعة والجمال ، جبال شامخة وصحار مهيبه وبساتين عامرة ، وأقدم الآثار فى تاريخ العالم لازالت باقية لتعطى ذروة معانى البقاء والخلود .

ان الرحلة فى النيل - بلا شك - هى من أفضل وأجمل الرحلات التى يمكن أن يقوم بها المرء ، فهى الأثرى من حيث تنوع المناظر وهى الأكثر اثارا للقضايا التاريخية والاثنوجرافيا (المتعلقة بالانثروبولوجيا الوصفية) . واذا كانت أهرامات الجيزة والآثار المحيطة بها فى القاهرة تشد اهتمام الرحالة وتثير فى ذهنه كثيرا من القضايا ، فانها - أى الأهرامات - مجرد بوابة للكنوز الأثرية التى يقدمها صعيده مصر .

لقد نظرنا الى السجلات الباقية للحياة الاجتماعية والسياسية لشعب انعشت حضارته منذ آلاف السنين ، فحقق لنفسه القوة ، وأفرز ثقافة حقيقية . وقد تمثلت لنا هذه السجلات الباقية فى صالات المعابد الواسعة وفى السرايب الغامضة والقبور الممتدة فى الصخور . تعال معى لتنظر الى الجدران التى تزينها الكتابات الهيروغليفية التى تكشف لنا حكاية العصور الفرعونية .

وعند شروق الشمس ، بدأنا الرحلة عندما حضر المرافقون وتم تحميل أمتعتنا . لقد استمر النيل جميلا هادئا - كما كان قبل ذلك خلال الرحلة ، فقد كانت مياهه الصفراء تنهدى فى مجراه الواسع ببطء ، وكانت الأرض

على ضفتيه مستوية وتمتد الرمال بعيدا ، أما شاطئاه المرتفعان فمن تربة سوداء ثرية تكثر فيها المضخات والسواقي متعاقبة يتلو بعضها بعضا على نحو منتظم جميل .

وتشكل جبال شبه الجزيرة العربية الداكنة ، وجبال ليبيا البرتقالية بشموخها وجمالها شخصية الصحراء القاحلة تماما . انهما - جبال شبه الجزيرة العربية وجبال ليبيا (*) - تقتربان اقترابا شديدا - فى كثير من المواضع - من مجرى النهر .

ثم تتراجع هذه الجبال مرة أخرى عن المجرى تاركة أحواضا واسعة جافة . ويرى المرء خلال صعود مصر كله تنابعا منتظما للممرات الضيقة من ناحية والسهول الواسعة من ناحية أخرى .

وعرض الأرض المنزرعة حول النيل - والتي تبدو كشريط أخضر - تختلف باختلاف ابتعاد الجبال والصحارى عن النهر . وتختلط غابات النخيل ذوات الثراء الاستوائى بحقول قصب السكر الصفراء وحقول القول الخضراء وحقول القمح التي تبدو متموجة .

وفى كل مكان تتقاطع القنوات التي يرقعون الماء اليها - عندما يكون الماء منخفضا فى مجرى النيل - بالعديد من الآلات البدائية للغاية .

ومما يعطى الحياة على ضفتى النيل مناقها أنين السواقي التي تديرها الجواميس والتي لا تكف عن الدوران ليلا أو نهارا ، والفلاحون السمر العراة الذين يجلسون على طول الشاطئ أمام الماء - واهب الحياة - الذى يسحبونه لقنواتهم وترعهم .

لقد مررنا على طول مجرى النيل بمدن وقرى . وكانت المزارع الخضراء والمآذن السامقة وأبراج الحمام هى أهم سمات هذه القرى المشيدة بالطين فغلا لونها كلون الأرض ، وكانت الفوضى الواضحة من سماتها التي لا تخطئها العين ، وتحلق حدهات كثيرة فوق مساكن الفلاحين ، كما أن نباح الكلاب وخوار الجاموس ونهيق الحمير ورغاء الجمال وأنين السواقي وصياح العرب ، والأتربة والقدارة ، والفوضى هى من الأمور المعتادة .

(*) المقصود بجبال شبه الجزيرة العربية ، كما هو واضح ، جبال صحراء مصر الشرقية ، والمقصود بجبال ليبيا جبال صحراء مصر الغربية - كما هو واضح أيضا ، والاشارة كما - لا يخفى - اجبال المقطم التي تقترب كثيرا من النهر فى بعض المواضع .
(المترجم)

وتقف النسور الضخام على طول الشاطئ الرملى ، والطيور آكلة الجيف بجانب الجيف التى سحبتها من فوق سطح الماء . وقد أعطى المنظر حيوية وحركة ، تلك الأسراب من الكراكي (جمع كركي) واللقاق (جمع لقلق بفتح اللامين وتسكين القاف) وطيور (أبو ملقعة) والبجع وأوز النيل والعديد من البط وكلاب النهر وطيور الخطاب (السنونو) وجيوش من طيور الرمال الصغيرة (العصافير غالبا) تلهو وتمرح . ويطلق الأوروبيون النار من كل ذهبية على طيور الماء التى تلجأ الى هذه البلاد فى الشتاء . وإطلاق النار على الطيور من فوق السفينة ، أمر غير مجد .

بركات الشيخ :

لقد مررنا بمدينة (أبو تيج) وعندها تتراجع الجبال لتخلى المكان ليصبح مساحة مزروعة زراعة كثيفة .

وتوقفت الباخرة ، واقترب قارب ، فسألت عن سبب توقف الباخرة واقترب القارب ، فعرفت - ويا للدهشة - أن بين الجبال الصحراوية القاحلة ، قبر أحد الأولياء الصالحين ، ويسمونه شيخا Moslem Saint, a So Called Sheikh وهو يطالب بالضريبة Claims a toll (*) ، والسفينة التى تمر دون أن تدفع هذه الضريبة تتعرض وفقا للمعتقدات الشعبية للاضطدام أثناء سيرها فى النهر . ويتلقى ربان السفينة الأمين الذى يدفع (هذه الضريبة) دعوات وتبريكات من المتسولين التابعين لمقام (قبر) هذا الشيخ .

لقد مررنا الآن بسرعة أمام مدن طهطا Tachta وفوباس Faubas (؟) وشيداون Shidawin (؟) ، ومدينة سوهاج ذات الموقع الجميل بمنازلها ومآذنها الجميلة .

(*) المقصود كما هو واضح ، دفع مبلغ من المال نقدا أو عينا لضريح الشيخ ، أو أن شتتا الدقة لخدام ضريح الشيخ ، مقابل أن يقوم الشيخ المتوفى بحماية السفينة من الارتطام أو التعرض لأحداث مؤسفة ، وليقوم خدام الضريح بالدعاء باسم الشيخ (الولي) المتوفى . الخ . وغنى عن القول أن المسلمين المثقفين لا يندرون إلا لله سبحانه وتعالى . كما بات معروفا أن « البقشيش » ، « الحلوان أو الحلوان » و « النذر للشيخ والأولياء » ما هي إلا أساليب تفتق عنها العقل الشرقى للحصول على « أموال » بدون عمل أو نتيجة عمل الآخرين ، وهو الأمر الذى يفسر أيضا ازدهار مهنة « السمسرة » غير المقتنة لمجرد التدخل غير الإيجابى فى أية عملية بيع أو شراء أو تداول للأموال والأعمال . . . كما يرى القارئ فإن هذه الأمور لم تلق الدراسة الكافية بإبعادها الحقيقية - (المترجم) .

وتتابعتم المشاهد الجميلة : جبال رائعة ومنحدرات تخلى المكان لتحل محلها غايات النخيل والمدن . لقد رحنا ندخن بارتياح ونتجاذب أطراف الحديث أو نقرأ ونحن جلوس فوق ظهر السفينة ننعم بالهواء النقي الذي يردده النهر ، ويرائح النباتات الأفريقية العطرة وبأشعة الشمس الرائعة . وبين الحين والحين كنا نطلق النار على بعض طيور الماء من مسافات بعيدة ، وغالبا ما كانت طلقاتنا تذهب سدى . انها حياة كسول ، لكنها مسلية وتضيف لمعارفنا ما يزيدنا ثقافة .

أخميم وجرجا :

وبعد الظهر مررنا بالمدينة الهامة أخميم Al-Achmim التي تقع بين النخيل ، وفي المساء ظهرت لنا مدينة جرجا Girgeh الجميلة والثرية ، عند منحنى حاد للنهر .

لقد لونت أشعة الشمس الغاربة المنظر كله بلون ذهبي . فأصبح كل شيء - بما في ذلك الجبال والنهر والأشجار والمدينة والحقول - يسبح في فيض من الألوان لا يمكن للغة أن تصف مدى تأثيرها في النفس روعة وبهاء .

فأصواء أمسيات القاهرة الشهيرة تعد مظلمة اذا قورنت بأصواء الصعيد التي تزفها الشمس اليه . لقد اقتربنا من مطار السرطان وهو حده المنطقة المدارية (الشمالى) واتجهت باخرتنا نحو مرسى جرجا وقضينا الليل عند الشاطئ المترب المرتفع .

الوكيل القنصلى القبطى :

وبعد تناول العشاء صعدنا للشاطئ - مستخدمين سلما - استجابة لدعوة وكيلنا القنصلى . هذا القبطى الثرى ، وأحاط بنا جمع غفير متنافر من الشرقيين المحبين للاستطلاع .

ووصلنا لقر الوكيل القنصلى بعد أن مررنا بشارع ضيق على جانبيه تقع المساكن الطينية المعتادة المزينة ببعض الزخارف والكتابات العربية .

ووجدنا فى الطابق الثانى - بعد أن صعدنا سلما ضيقا منحدرًا - ترفا عوانا بين حضارتين ، فنصفها شرقى ونصفها أوربى .

: فرائحة عطر الورد والأرائك التركية - فلا وجود للكراسى - والقهوة والسجائر العطرة والجدران العارية ، والأقمشة والستائر المتنوعة من

الخامات الشرقية الثرية - كلها عناصر حضارية شرقية ومع هذا فقد بذلت جهود سقيمة لتبدو أوروبية - تلك سمات مساكن الأثرياء الشرقيين .

موسيقا ورقص :

وما كدنا نجلس وندخن حتى ظهر فريق موسيقى مكون من أربعة عازفين ذوى منظر زرى ويبلون عربا بعمائمهم الكبيرة وأثوابهم الزرق المتواضعة ، وكانت آلاتهم الموسيقية بدائية : ناي خشبي ، وجرس من صفيح (يقصد غالبا التار أو الطار -tam-tam) وما يشبه الطبل ، وكمان يشبه آلة الجوزلا Gusla فى جنوب سلافونيا الجنوبية Our south-Sclavonic (٢) .

وفى كل مكان يسود فيه الاسلام تجده هذه الآلات الموسيقية السخيفة ذوات الأنغام الرتيبة المملة الخنفاء بشكل عام ، والتي تصدر ضجيجا وحشيا فى أحيان أخرى ، ثم يعود عازفوها ليعزفوا عليها ألحانا عابسة كثيبة بعد أن عزفوا قليلا من الألحان المرحة .

وفى جنوب أسبانيا حيث يكثر المسلمون Moors سمعت الأنغام الموسيقية نفسها بين الفجر ، انها - أيضا الموسيقا التي يجعلها السلاف الجنوبيون Southern Slaves تصاحب أغانيهم الكثيبة عن البطولة بينما هم يجلسون القرقصاء فى ليالى الشتاء حول نار التدفئة يحلمون بأيام كراجوز ماركو Kraljewic Marko المعنة فى القدم . . انها نفس خصائص الأنغام العنيفة - التي تنعو للرقص المرح - التي سمعتها فى جرجا

لقد تم عزف المقطوعة التمهيدية ثم ظهرت الراقصات فى ملابسهن الطويلة الضيقة البهيجة بقوامهن النحيل وجليهن المتدلية حول أعناقهن ، وكانت وجوههن - بحكم طبيعة عملهن كراقصات - غير محجبة ، لقد كن مسلمات (مغربيات) Moors جبيلات ، وقوقازيات بيضاوات يتناقضن فى ملامحهن مع الفلاحين الخالص الذين يشبهون المصريين القداماء : منخاران واسعان ، جبهة منخفضة ، أنف محدد واضح ، وقم صغير .

وهؤلاء الراقصات يشكلن طبقة متخلقة يزدريها المسلمون الأتقياء . وقد طردن من شمال مصر لما يثرنه من فتنة وغواية بتصرفاتهن غير المنضبطة لذلك فهن منتشرات الآن فى كل مدن صعيد مصر ، وتعود بعضهن فى أصولهن لبعض مدن الصعيد .

وتعشن - بشكل عام - معا فى أحياء نائية عن المدن ويعرضن خدماتهن على أفقر الطبقات وعلى الغرباء الفضوليين ، ويعملن فى بيوت الأثرياء حيث يرقصن بعد المآدب فيشاهد الحاضرون الذين يدخنون الشيبوك والنجيلة - رقصهن باستمتاع كبير .

ويبدأ الرقص بأن تتحلق الراقصات فى دائرة ويتثنين ، ويقمن بحركات كثيرة غير محتشمة يمنعنى الخجل من الاستطراد فى وصفها ، انها عربية ترجع - وفقا لانطباعى - لأزمة شاع فيها الانحلال والخيال المريض (٣) .

وبعد أن مكثنا قليلا عدنا الى باخرتنا - مخترقين المدينة - لننال راحة كنا فى حاجة ماسة اليها .

البيلىنة :

وفى الفجر واصلت الباخرة رحلتها وقبل الظهر بوقت غير قليل كنا عند البلينة Belianeh وهى قرية طينية غير مهمة تحيط بها غابة نخيل جميلة .

ونزلنا للشاطيء دون توان والعيون المتفرسة تكاد تخرق جلودنا ، وركبنا حميرنا ضئيلة الحجم التى لم تعد اعدادا جيدا وانطلقنا خلال بساتين النخيل والحدائق خارج القرية .

لقد امتد شريط عريض بششكل مقبول من الاراضى الزراعية على شاطيء النيل ويحيط بالشريط سلسلة جبال شامخة من الجانين ، وراينا حقول قصب السكر والفول والقمح وحقول أشجار نخيل قصيرة وأشجار جميز ، كل ذلك على ضفة النيل الغربية (صوب الصحراء الليبية) .

لقد كانت هناك حركة دهوبة على المروج الخضر ، فقد كان السكان مشغولين بالعمل والحرث أو رعى القطعان الكبيرة . وأثناء رحلتنا لاحظنا أنه كلما أوغلنا فى الجنبوب ، زادت دكانة بشرة السكان وأصبحت ملابسهم أكثر بساطة .

العرابة المدفونة :

لقد رأينا لأول مرة نخيل جوز الهند الجميل bushy palm وهو شجر متوطن فى مناطق أفريقيا الداخلية .

وعند الطرف الحاد للأراضي المزروعة وبداية الصحراء القاحلة المهجورة تقع القرية القذرة الحقيرة المعروفة باسم العرابة المدفونة Arabât-el-Madffûne بين بستان نخيل صغير . ولا يملك السكان الفقراء هنا سوى أبراج حمام ضخام ويرى المرء آلاف الحمام ترقرف بالقرب من أبراجها . انها حمامات كبيرة تكاد تكون برية .

وتبدأ الصحراء المحيطة بوادى النيل واضحة وحادة حيث ترتفع الأرض ولا يصلها ماء النيل ، ويمكن تأكيد هذه الملاحظة هنا عند آخر منزل من منازل العرابة المدفونة . انك تنتقل فجأة من أترى الحياة النباتية الخضراء الى صحراء بيضاء تبهر النظر بضيائها - بدون المرور بأية منطقة انتقالية .

وتقع بقايا أبيدوس Abydos ذات الجدران الخالدة الزاخرة بالرسوم التى تذهل الرحالة وتبهجه - بين أحجار وقمامة على بعد مئات قليلة من الiardات من القرية (قرية العرابة المدفونة) .

انك تجد نفسك بين بقايا عصور سحيقة بقيت محفوظة لم يعثرها الخراب ، بسبب مناخ صحيد مصر الجميل المشمس الجاف .

ومنذ زمن الأسرة الفرعونية السادسة (حوالى ٣٣٠٠ ق م) وهذه البقعة قريبة من حافة الصحراء ، وكان اسمها القديم أبيدو Abidu ، وكان ينظر اليها كمقبرة مخصصة لأوزوريس Osiris مصر العليا . ومن هنا كانت أمنية المصريين القدماء الطبيعية هى أن يجدوا فى هذه البقعة مقبرة (مئوى أخيرا) فى رمال الصحراء . فثمة معابد عديدة لأفراد ، ومقابر فخمة لبعض ملوك مصر ترتفع فوق الرمال ، تغرى الزوار بالوقوف اجلالا لملك الموتى أوزوريس الطيب ، احباء لذكراه . ومعابد الملك سيتى الاول Seti I (١٣٦٠ ق م) وابنه ووريثه رمسيس الثانى (١٣٠٠ ق م) هى أوضح المباني الأثرية التى تعرضت للنهب . ومعبد الملك سيتى - خاصة - يمتاز بالرسوم والكتابات الهيروغليفية التى تغطى جدرانه وأعمدته وهى تمثل أزهى فترات الفن المصرى القديم . وحقق هذا المعبد أيضا شهرة بسبب القائمة التى تضم أسماء الملوك (السبعة والسبعون فرعوناً) منذ أيام مينا (يسميه الاغريق مينز Menes حتى أيام رمسيس الثانى ، وتعد هذه القائمة الأساس الذى لا يقدر بثمن لكل البحوث فى مجال التاريخ المصرى القديم .

والمعبد الجنائزى الثانى بناه رمسيس الثانى ويقع الى الشمال من المعبد الأول ، ولم يحتفظ بروقه بنفس درجة احتفاظ معبد سيتى بها ،

لكن بقاياها تتكون من أحجار محببة وكتل من الالاباستر والجرانيت تحمل على سطوحها الناعمة الملساء عديدا من الرسوم والكتابات ذات قيمة فائقة للدراسات التاريخية والجغرافية والميثولوجية (أساطير الآلهة خاصة) المتحلقة بمصر القديمة . وقد اتخذ العديد من شواهد القبور من نكروبولس Necropolis في أبيدوس Abydos طريقه الى فينا .

وبينما كنا نتفحص جدران المعابد وحالاتها شاهدت بعض النسور من الجبال الصحراوية المجاورة يحلق فوق رؤوسنا ثم حلقت دائرة بعيدا في الفضاء ، وقررنا باصرار أن نغرى هذه الطيور الضخمة لنقتنصها لكن المسألة الآن كانت هي أين نجهه المكان لنطرح فيه جيفة .

لقد كان خلف المعابد بعض أكوام عالية من القمامة والأحجار يمكن للمرء ان اعتلاها أن يلقي نظرة على السهل الصحراوي الواسع الذي يمتد من حافة الأرض الزراعية حتى سطوح الجبال بتكويناتها الجميلة وقممها الشامخة ، واتخذت قرارا بأن أتجول في هذا السهل بحثا عن بقعة مناسبة (لاغراء النسور) ، وبينما كنت أجول شاهدت (حقا) من المقابر على بعد مئات قليلة من الأمتار من المعبد .

بقايا جثث الجيش الروماني :

وفي أيام الأباطرة الرومان دمرت الأمراض والمجاعة جيشا رومانيا في هذا المكان ، وظلت جثث المقاتلين الرومان ملقاة دون دفن في فوضى هائلة ، وحتى هذه اللحظة يمكن للمرء أن يتخيلت - حرقيا - عن جثثهم (أجسادهم bodies) ، فالشمس الأفريقية والرمال الحارقة والهواء الخالي من التلوث عملت جميعا على حفظ الجثث فجعلتها كأنها محتضات طبيعية . لقد وقفت أمام أجساد وأذرع وسيقان وأيد لازال اللحم الذي سقطته الشمس عالقا بها . والجماجم المكشرة لازالت تتغلف بفروة الرأس ، وطيات اللحم الداكنة على الوجنات لفتت نظري على نحو خاص ، وأخذت معي - كتذكار - واحدة كان منظرها لا يبعث على الرعب كمنظر الجماجم الأخرى ، ان المرء يخوض بالفعل في بحر من الهياكل العظمية والأتربة . لقد كانت صورة الصحراء كالتالي : سهل أبيض متألق ، رمال تحرق الاقدام ، عظام مبيضة متناثرة ، مسرح للثعالب وحيوانات ابن آوى ، والنسور الصلحاء تحلق عاليا ، وفي خلفية الصورة الحيوود الجرداء العارية لجبال الصحراء . ليس من ورقة نبات خضراء تسعد العين وليس من شيء يخفف من وطأة انعكاسات الشمس الحارقة على كتل الصخر الأبيض والبصقراء وأكوام الرمال التي اتخذت أشكالا واضحة تحت السماء

الصيقة زرققتها • ليس من شك في أن روح الشعر تغمر الصحراء ، فهي رغم رتابتها تقدم لنا مناظر فخمة مهيبية • وأخيرا وجدت تلا منخفضة بدا يمكن استخدامه لنحجب به تقدمنا ، لذا فقد أسرع أقود الخروف الى الموضع وطمنتته ونزعت أحشائه ، وهيأت القطعة الأولى لاغواء النسور ، وأسرعت عائدا لرفاقي في المصيد •

وبعد أن تفقدنا بدقة كل الآثار تناولنا افطارنا الذي كنا قد أحضرناه معنا في إحدى القاعات القديمة • وماكدنا ننهي طعامنا حتى قمت ومعى هويوز Hoyos بزيارة موضع الخروف ، وماكدنا نصل الى مسافة يمكن منها أن نطلق النار حتى اكتشف نسر حذر ، اقتربنا فضرب بجناحيه وارتفع عن الأرض ، وتبعه مالا يقل عن عشرين من رفاقه شديدي اليأس • وكان هويوز Hoyos حسنا حظه حتى انه أسقط نسرا أبيض كبيرا أصلح الرأس من بين هذه المجموعة • أما أنا فكنت أقل مهارة فأصبحت نسرا كبيرا جدا بجرح غائر فطار على ارتفاع منخفض عبر السهل • لقد مزقت هذه الطيور الجارحة جثة الخروف المسكين بشراسة والتهمتها ، فلم يبق منه سوى فروته ، وبيض القطع الممزقة •

فلاح أتمى يتاجر في الآثار :

وبعد انتهائنا من هذه الجولة من جولات الصيد ، عدنا لرفاقتنا الآخرين وذهبنا معهم نحو القرية حيث زرنا فلاحا أعمى ، وكان هذا الرجل المحترم واحدا من أغنى ملاك العقارات في القرية ، ويمارس بالاضافة لذلك الاتجار في الآثار المصرية ، فهو يحفر المعابد وحولها ، رغم مخالفة عمله هذا للقانون • وقد حصلنا - بتوجيه من برجس باشا - على بعض العاديات الصغيرة ، وأتيح لنا - في الوقت نفسه - أن نتفقد المنزل البدائي - ولا أقول القدر - لسكان وادي النيل •

ومن العراة المدفونة ركبنا عائدين عبر الريف الى البلينة Belianeh وكنا نمارس الصيد أثناء الطريق ، فقد أطلقنا بنادقتنا على طرائد صغيرة ، وكنا مشوقين على نحو خاص لاصطياد النسر المنقض (؟) Glide-eagle وهو طائر أفريقي جارح له ريش أزرق وأبيض ، ويرتاد بأعداد كبيرة بساكني النخيل وآبار السحب •

وبعد الظهر عدنا للباخرة ، وتابعنا ابجارنا في النهر جنوبا لمعدة ساعتين قبل أن يحل الظلام ، لم تتغير المناظر الا قليلا ، لكن المساء الجميل زعنظر الشمس القاتن عند الغروب أمتعانا ، لا بسبب جمال الألوان

وتدرجها فحسب ، وانما لأن ذلك أتاح لنا الخروج ببعض الملاحظات الاثنوجرافية البشائية . فعند الغروب يقود الفلاحون جمالهم وجواميسهم وحميرهم وماعزهم وأغنامهم لتشرب آخر شربة لها فى النهار ، فيزدحم الناس على شاطئ النهر لهذا الغرض : انهم رجال ونساء كأنهم أتوا من عصور سحيقة ، يتوضأون وفقا لتعاليم القرآن (الكريم) ، وتحمل النسوة جرار الماء (الزلع أو البلايص) ، انها الجرار نفسها التى استخدمها الفراعنة ، لم تتغير أشكالها أو مادتها ، انهن يملأنها من ماء النيل الجارى لاستخدام المساء ، وتمتل ثيابهن الزرق الرقيقة بالماء فتلتصق بأجسادهن الرشيقة ، وعيونهن السوداء الواسعة تتلألأ حزنا على صفحات مياه النيل ، وأفواههن المفتوحة شيئا ما تنطق بالأغاني الحزينة . انهم البشر نفسه الذين رأيناهم مصورين على جدران المعابد ، وبدا لنا وكأن القبور فتحت للسماح لرعايا الفراعنة بالعودة على ضفاف النهر المقدس .

وأوقفنا باخرتنا عند قرية صغيرة ، وبعد أن قضينا أمسية بهيجة خلدنا للنوم ، وعند شروق شمس الثانى من مارس واصلنا رحلتنا ، وقضيت فترة الضحى على ظهر السفينة لاحظ المناظر الجميلة على الشاطئ ، مع أنها المناظر نفسها التى مرت بى فى الأيام الماضية : حقول خضراء وبساتين نخيل ومدن صغيرة وجبال تنحدر فى الوادى . وعلى طول الشاطئ الرملى الطويل كان يوجد - على أية حال - ثراء فى الحياة الحيوانية لم نعتده من قبل . أسراب هائلة من البجع ، وطيور البلشون ، والأوز . وأكد مساعد الصيد التابع لى أنه رأى تمساحا :

قنا :

وعند الظهر وصلنا قنا ، وهى مدينة ذات مساحة معقولة ومشيدة بيوتها من الطين وتزدان بمثناة سامقة ، وقد رست بنا السفينة ، فركبنا حميرا ومررنا ببساتين نخيل جذابة ، الى جانب قرية بائسة كانت لسور الجيف تقف على أكوام السماد (السباح) فى حداثتها ، رغم وجود اللجاج غير بعيد عنها ، وسرعان ما وصلنا للسبل المزروع زراعة جيدة .

وينشئ النيل عند قنا ويقترب كثيرا من جبال الصحراء الغربية (الجبال الليبية) ، لذا فالشريط الزراعى ضيق جدا وبعد ركوب دام نصف ساعة وصلنا - لمعبد دندرة Dendera الشهر . انه يقع - مثل بقاها أسدوس - على حافة الأرض الزراعية ، وان كان المعبد نفسه قائما فى رمال الصحراء .

ولا أجد في هذه المناسبة أفضل من ايراد كلمات صديقي برجش Brugsch عن هذا المعبد :

« دندرا اسم حديث لمعبد يتردد الناس عليه كثيرا للزيارة على الضفة الغربية للنيل في مقابل مدينة قنا الواقعة على الضفة الشرقية للنيل ، وكلمة قنا تعريب للكلمة الاغريقية Caenopolis وتعني المدينة الجديدة كما أسماها الجغرافيون اليونان ، والكلمة اليونانية بدورها مساوية (مرادفة) للاسم القديم تنتار Tantare . ومعبد دندرة لا زال يحتفظ برونقه القديم وهو مخصص لعبادة الربة هاتور Hathor ، وهي بمثابة الربة فينوس Venus عند اليونانيين ، ويرجع تاريخ المعبد الى أواخر عهد البطالسة وبداية عهد الرومان في مصر . وترجع أهميته الى المعلومات التي يقدمها عن تصميم المعبد المصرى القديم ، بوحداته المختلفة .

وإذا وضعنا في اعتبارنا معبد ادفو كمعبد مشابه ، بل وأكثر اكتمالا ، اتضح لنا أن وحدات (أجزاء) المعبد المصرى القديم كالتالى :

١ - برجان ، كالجناحين في مقدمة المعبد ، بينهما يقع المدخل الرئيسى .
والى اليمين واليسار من البوابة مسلتان وتمثالان للملك المؤسس تشكل (التمثالان والمسلتان) الواجهة الأمامية للمعبد .

٢ - ساحة مكشوفة ذات أروقة معمدة تسمى البهو المعمد . Peristyle

٣ - مجاز (أو ردهة) ذو واجهة نصف مفتوحة فى المقدمة ، تتجلى واضحة فى معبد دندرة ، وتزين الصور الفلكية ، والكتابات المناسبة هذا المكان .

٤ - صالة الطعام banquet وعن يمينها ويسارها غرف .

٥ - غرفة الأضاحى ومنها غرف جانبية .

٦ - الغرفة الوسطى ، ومنها أيضا غرف صغيرة .

٧ - المقدس أو قدس الأقداس ويقع فى وسط الجزء الأكثر ايعالا للداخل وكأنه معبد داخل معبد . وفى قدس الأقداس مصلى حجرية بها صورة لاله الضريح ، بالإضافة للقوارب المخصصة لأغراض نبيلة خاصة ، وفيها صور الكهنة يحملون صور الآلهة ، ويفصل قدس الأقداس عن الغرف الأصغر مساحة ممر خاص ، والغرف الأخرى الأكثر أهمية تقع مباشرة خلف هذا الممر . ان قدس الأقداس يمثل الجزء الأساسى لآى معبد فرعونى ، فالمحور الأساسى لمبنى المعبد يمر بالضبط من وسطه .

ومن المر يصعد المرء ما يشبه الدرجات الى كل الغرف المتتابعة .
وتصميم معبد سليمان Temple of Soleman بصفوف أعمدته وقاعاته
وممراته وقاعة أضحياته وقدرسه أقدس أقداسه (مكان العهد) يماثل بالضبط
معمار المعبد المصرى القديم .

وقد تفحصنا على ضوء المشاعل كل غرف المبنى الكبير ، والسرايب
الضيقة ، والسلالم ، والممرات . وبقيت مدة طويلة فى الظلام تحت القاعات
المعمدة ، وكانت كتل الأحجار الضخام غير المطلية مزدانة بالنقوش
الهيروغليفية الثرية مستديعية فى أفئدتنا تلك الأيام الخوالى . ان المرء
لا يتصور بقايا من العصور القديمة أكثر حيوية من تلك الموجودة فى معبد
دندرة بجمالها الغامض البديع ، فالمرء يرى بعينى روحه كهنة هذه الديانات
القديمة يتحركون بثيابهم البيض الطويلة ولحاهم السود المجدولة وأغطية
رءوسهم المرتفعة ، حاملين الاضاحى لتقديمها للالهة القوية لمملكة النيل
القديمة .

وفى المر المهجور تعشمش الخفافيش الآن بأعداد كبيرة لا تصدق ،
وفى الصالة الكبيرة تقف بومة ، بينما على الافريز بنى زوج من الغربان
عشيهما . وأطلقت بندقيتى على أنثى الغرب السوداء الكبيرة بينما تطير
محلقة عبر البوابة .

وألقينا نظرة ممتعة - من بعيد - من فوق سطح المعبد ، على النيل
والأرض الخضراء على احدى الضفتين ، وعلى الصحراء الشاسعة والجبال
من خلفها ، على الضفة الأخرى . انها صورة جلييلة : آثار داكنة وصحراء
خالية وجبال متفردة ، لا شىء أخضر ولا حتى شعاع من أشعة الشمس
يسعد العين ، فعظمة الألوان وتألُق السماء قد غابا عنا هذا اليوم بعد
الظهر ، فكل شىء لفته الظلال الداكنة ، وأصبحت السماء قاتمة لا من
سحاب - فهنا غير معروف فى مصر العليا - وإنما بفعل الأتربة والرمال
وركود الهواء ، وكل أولئك مقدمة لهبوب رياح الخماسين Champsin
التي تعد من رياح الصحراء القاسية .

وعدنا مساء لسفينتنا ومارسنا الصيد طوال طريق العودة وقضينا
الليل على سطح السفينة وهى راسية فى الموقع نفسه ، وفى بكر الصبح
واصلت السفينة إبحارها فى النيل . كانت رياح الخماسين الثقيلة تعبت
فى الوادى وغطت سحب الرمال الصحراوية الجبال وكانها ضباب .

وظهرت الشمس كقرص أحمر - لم تستطع أشعتها اختراق جيوش
الأتربة والرمال . كل شىء غطته الرمال التي كانت تتوغل حتى الى كبائن

سفینتنا المغلقة ، وسببت ازعاجا مرعبا ، وساد الهواء الثقيل الباعث على الاحباط ، لكن ذلك أعطى المناطق الأخرى (البعيدة عنا) منظرا جميلا ، وتأملنا مندهشين في هذا الأمر الذي بدأ لنا بعدا غريبا من أبعاد الطبيعة .

وأطلقنا البنادق على البيجع ، ودجاجات النهر وبعض نسور الماء المزعجة ، لكن ذلك كان بلا جدوى ، فقد كانت المسافة بيننا وبينها طويلة . ومررنا ببعض المدن ، كان من بينها قفط Kufu وقوص Kus .

طبيعة المنطقة هي نفسها ، وكل ما حدث من تغير هو تراجع الجبال لتخلي مكانا لطيبة ذات الشهرة في التاريخ القديم بالاضافة لثرائها وجودة زروعها .

طبينة :

وفي الساعة الثانية عشرة وصلنا لمرسى مدينة الأقصر المهمة . وكان في المرسى باخرة بريد وبعض الذهبيات (البواخر) الخاصة بالمسافرين الأوربيين . والأقصر الحديثة ، مدينة عربية أصيلة ، مساكنها مشيدة من الطين ، وتقع في وسط بقايا الآثار المصرية القديمة ، وإن امتدت على نحو ما في مواجهتها . فعلى ضفتي النيل نجد الارض مغطاة لمسافة طويلة ببقايا طيبة ، وتمتد على الضفة الغربية (الشاطيء الليبي) حتى الجبال .

وزست سفینتنا بمجرد وصولنا وصعدنا الى الشاطيء الرملي واستأجرنا بعض الحمير من ميلان بلاني يقع أمام فندق الأقصر ، وهو فندق صغير قدر ، وركبنا الحمير ومررنا بشوارع المدينة الضيقة مارين بسوق غير عامرة بالبضائع ، وإن رأينا فيها خلقا كثيرا ، يترددون جيئة وذهابا على أحد أحياء المدينة لا تسكنه الا الغوازي Ghawazi (الراقصات) ، فالأقصر مشهورة برصيدها الكبير من الراقصات . وبعد آخر المساكن أقيم معسكرنا ذو الطابع الفجري في أرض رملية ، ولم يكن المكان نظيفا .

وسرعان ما وصلنا لمنطقة مكشوفة فسارت حميرنا بسرعة بين أشجار النخيل والحقول المزروعة . وعلى البعد أمكننا رؤية بقايا الكرنك العظيمة : بوابات ضخمة وأعمدة وجدران . فالكرنك يقع في الأرض الزراعية الى جوار بستان نخيل رائع . وتعد النخلة الجنوبية شعارا لأفريقينا فهي تقدم للرائي صورة ذات تأثير ، بالاضافة للآثار المتألقة التي تعيد للأذهان حضارة أعرق شعوب الشرق حضارة

وعند مدخل الكرنك تقع قرية صغيرة ومزرعة لم تنم أشجارها نموا كاملا . وثمة أسراب من طيور آكل النحل برعوسها الزرقاء ، وبحركتها التي تشبه حركة الفراشات كانت لا تكف عن الطنين ، وقد أطلقنا بناقنا على كثير من هذه الطيور الأفريقية الجميلة طمعا في ريشها الجميل .

آثار الكرنك العظيمة :

دعونا الآن نأخذ قبسا من كلمات برجش باشا الذى كان دليلا ومعلما وذوافة طاف بنا خلال آثار الكرنك العظيمة ، تلك الآثار التي تعود لأزمنة موهلة في القدم :

« معبد الكرنك كان فيما مضى يرتبط بالأقصر بطريق طويل بشكل غير عادى (طريق أبى الهول Sphinx avenue) وهو - أى المعبد - عبارة عن مبنى ضخم يتكون من مبان تعود الى حقبة تاريخية مصرية مختلفة . فغالبا ما كان كل ملك - خلال فترة امتدت حوالى ألف وسبعمائة سنة يشعر أنه لزاما عليه أن يخلد ذكره بتشييد مبنى ، ومن هنا فان تازيخ الامبراطورية طوال هذه القرون قد مثل فى هذا المعبد الامبراطورى . ويعتبر الفراعنة الذين سنذكر أسماءهم توا هم أبرز مؤسسى هذا المبنى :

١ - تحتمس الثالث وأخته حتشبسوت Hatchep (حوالى سنة ١٦٠٠ ق٠م) واليهما تعود مسلات الكرنك وقد سجلت انتصارات تحتمس الثالث فى آسيا وأفريقيا من خلال رسوم وكتابات ثرية قدمت معلومات مهمة تاريخية وجغرافية عن هذه الحقبة .

٢ - سيتى الأول (١٣٦٠ ق٠م) وهو مؤسس الصالة الكبيرة فى المعبد ، تلك الصالة المقامة على ١٣٤ عمودا تذكرنا - بتصميمها وزخارفها - بمعبد أبيدوس . وفى الجدار الشمالى الخارجى صور تمثل الحروب بين هذا الملك والقبائل العربية والسوية كما تمثل عودته لمصر . وهى رسوم ذات قيمة تاريخية عالية .

٣ - ومسيس الثانى (سيزوستريس) (٤) وهو الذى أكمل ممر الأعمدة بعد موت والده سيتى الأول ، وسجل الجدار الجنوبى الخارجى حروب هذا الملك مع ملك الحيثيين Heth وحلفائه الآسيويين وثمة اشارة أيضا الى شيشاتق الأول Shashank I (وهو الملك شيشاتق الوارد فى الكتاب المقدس) ليسجل معركته ضد مملكة يهوذا Judah من وجهة نظر مصرية . والى الجنوب من معبد الكرنك - فى اتجاه النهر - يوجد معبد بحالة جيدة هو معبد الاله

القمرى شوزو Chousu وقد أنشأه رمسيس الثالث (١٢٠٠ ق م)
وثمة عمود مربع Pylon مهيب أمامه يعود لأيام البطالمة ، ومعبد الاله
Chousu يشير أيضا لسقوط الفراغنة الرماسية Ramses (انتهاء
دولتهم) « .

وفى الاتجاه الجنوبي من الكرنك ، يوجد حرم مقدس خاص لموت
Mut زوجة آمون الذى يعتبر بمثابة زيوس zeus اليونانى - الى جوار
بحيرة لا تزال موجودة .

وتماثيل آلهة القمر والنور المصرية Egyptian Juno كلها من
جرانيت أسود لها رؤس أسود ، والواحد منها يمثل ربة تقف وقفة
جليلة ، وكلها محيطة بالنافورة المقدسة ، وحتى الآن لا تزال بعض هذه
التمائيل فى مواضعها القديمة . وقد تم نقل بعض أفضل هذه التماثيل
- منذ أعوام عديدة - الى متاحف أوروبا المختلفة ، .

وبعد أن تجولنا بين القاعات الواسعة وبين ما لا حصر له من الأطلال
والأعمدة عدنا من الطريق نفسه الى الأقصر . وفى أوسط المدينة يقع
منزل الوكيل القنصلى لبريطانيا وهو عربى ثرى ، وكان بيته محاطا بغاية
من الآثار القديمة ، وقد استقبلنا هذا الرجل العجوز الماكر بزى نصفه
أوربى ، ورحب بنا بحرارة ، وعرض أن يبيعنا آثارا مصرية بأثمان باهظة .
واشترينا بعض القطع الجميلة وشربنا فناجين القهوة ، وهنا أمر
لا مفر منه ، ثم تابعنا تفقدنا للآثار داخل المدينة . ومرة أخرى أدع برجس
يتحدث بدلا عنى :

« كانت طيبة منذ القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ، وطوال
ألف وسبعمائة سنة العاصمة المتألقة للامبراطورية المصرية ، وحتى أغانى
هومروس Homer أشارت الى شهرتها وعظمتها . ويقسم النيل المدينة
الى قسمين كما ورد فى كتابات كثيرة ، ووفقا لبقايا المباني القديمة التى
مازالت باقية . والشطران معا يمثلان مدينة Uas أو Pi Amon أى مدينة
آمون أو كما سماها الاغريق ديوزبولس Diospolis والجزء الواقع
على الضفة الشرقية للنيل يختص باسم آبى Api أو تابى T-Api ، والى هذا
الاسم الأخير يرجع الاسم اليونانى Thebai أو Thebae .

وقد أطلق المصريون المحدثون على الآثار والخرائب على هذا الجانب
اسم الأقصر El-lugzor (القلاع باللغة العربية عسادة ما تكتب
الأقصر) (*) وهذه الآثار بالإضافة للكرنك لا تزال - حتى الآن - تشير

(*) هذا غير صحيح كما لا يخفى على لطفة القارئ - (المترجم) .

اعجابا شديدا . ففي الأقصر مبانى الملك أمنوفيس الثالث Amenophis III (سنة ١٥٦٦ قبل الميلاد) والى الشمال منها مبانى رمسيس الثانى (سيزوستريس) ، وكلها مبان قوية جليلة ، والجانب الأمامى لجناح بوابة معبد رمسيس مزدان برسوم عن معركة رادوش Radosh فى أورنت Orontes وهى المعركة التى حقق فيها الملك نصرا واضحا على الحيثيين وحلفائهم ، وقد بقيت مسلة واحدة (وهى المسلة الشرقية) من المسلتين فى موضعها القديم . أما عن الأبعاد المتعددة للتماثيل الضخمة لهذا الملك فيمكن جمعها من الرسوم الناتئة من الأرض ، .

وبينما كنا ننظر لمختلف الآثار تحلق العرب الجشعون حولنا حاملين معهم قطعاً أثرية صغيرة (وهى آثار فى غالبها - وفقا لما قاله برجش باشا - مزيفة) وقالوا انهم استخرجوها من الحفائر ، عرضوها علينا بطريقة لحوحة تبعث على الضيق ، وكان لابد أن ندافع عن أنفسنا بطريقة عنيفة ازاء انلفاعهم وزحامهم وكثرة ايمانهم .

العبادة :

وفى شارع جانبى وجدنا جماعة من العبادة Ababdehs وهم جنس غريب ، فهم - على الأقل - ليسوا عربا ، ومظهرهم اجنبى تماما وبعيد عن الجنس السامى ، كما أنه بعيد تماما عن أن يكون جنسا زنجيا .

وهم يدعون أنهم منحدرون من بعض الأجناس الآسيوية النائبة ، وكان هذا الجنس الآسيوى فى حالة هجرة فى أيامه الأولى - انه الجنس الكوشى Kushites - متخذاً الاتجاه الجنوبى ثم مساحلا لسواحل المحيط الهندى فسواحل جنوب شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم دخلوا أفريقيا ، واستقرت هذه العشائر المميزة فى الحبشة وما ورائها وفى مناطق الصومال ومن ثم اتجهوا الى أسوان ومنها الى طيبة .

والعبادة Ababdahs بشكلهم المميز يعدون حتى الآن طبقة منفصلة واضحة تسكن التلال الى الشرق من النيل بين النهر والبحر الأحمر بلدا من طيبة الى جنوب أسوان . انهم جيليون بؤساء يعيشون فى الأودية الصحراوية الجبلية ، واحتفظوا بطابعهم دون تغيير وظلوا دون كبير تطسور .

انهم متوحشون وغير اليقين ، بكل ما فى هذه الكلمات من معان ، وتنهى جلودهم النحاسية وأجسامهم النحيلة وملامحهم الدقيقة عن أصول هندية . وشعورهم سوداء يدهنونها بالشحوم ويجعلون منها قرونا

يشبونونها في هيئتها بقطع من الخشب ، أما ثيابهم فبعض أسمال بسيطة
قدرة يلفونها بشدة حول أجسامهم .

ويضعون جميعاً حلقات في آذانهم وحول أذرعهم فحتى الصبي
الصغير يضع حلقة في أنفه . أما أسلحتهم فسيوف عتيقة - من بينها
سسيوف أوربية تعود لفترة الحروب الصليبية - وعصى خشبية ورماح
بدائية ودروع جلدية وسهام وأقواس وجعبة سهام تلقى منهم عناية
خاصة ، ولكنهم لم يرغبوا في بيع أى من أسلحتهم هذه ، واحتاج الأمر
لتدخل عبد القادر باشا ليندبر لى كثيرا منها .

لقد كانت ضربة حظ أن نلتقى بالعبادة في طيبة فهم نادرا ما يأتون
لأسواق هذه المدينة ، لكننا عندما وصلنا لأسوان ، أتاحت لنا الظروف أن
نعرفهم بشكل أفضل (٥) .

وبعد هذه المقابلة الشائقة مع العبادة انقسمت مجموعتنا :
نسا الدوق الكبير وأنا فقد ركبنا عائدتين للكرنك مرة أخرى لنمارس صيد
الحيوانات البرية مساء ، بينما عاد باقى الرفاق الى الأقصر . وقد أرشدنا
صياد عربى اسمه خليل الى منطقة قريبة من آثار الكرنك ، وكانت هذه
المنطقة التى دلنا إليها خليل بالقرب القريب من منازل قرية صغيرة ،
فبمجرد أن تركنا هذه المنازل استدرنا فى الحقول وسرعان ما وصلنا لتل
رملى يقع فوقه مقام أحد الأولياء المسلمين القدماء .

وأوقفنا الصياد العربى فى مركزين (نقطتين) مختلفين فى ظل
بستان نخيل صغير ، وأصدر الى تعليمات بأن نجعل بنادقنا جاهزة
للاطلاق وأن ننتظر بسكون كامل حتى تجرى الأمور فى مجراها الصحيح .
كانت رياح الخماسين قد بدأت تهب بعد الظهر ، لكن المساء كان جميلا
مقرب نزار سبى ، وغربت الشمس بعظمة غامرة سهل طيبة الواسع وجبال
الصحراء التى تتسم بالشموخ هنا ، وآثار الكرنك الجلييلة بألوان بهية
غاية فى البهاء . وحركت النسائم العليلة جريد النخيل وسعفه ، وهبت
الروائح الشافية من النباتات اليانعة وهدل الحمام فوق الشجيرات هديله
ذا الشجن ، وشمل السكون كل ما حولنا فكان لهذا تأثيره الملطف بالنسبة
لنى ، فكاد النوم يغلبنى ، فهزنى خليل بشدة ، على حين غرة - وكان يكمن
بالقرب منى - وأخبرنى بلهجة حادة أن حيوانا من حيوانات ابن أوى
عرب بالقرب منى وأقلت . كان الليل فى هذه الأثناء قد هبط فاتخذت
مع الدوق الكبير طريقنا عائدين . وأثناء العودة لمحت شبح حيوان يمرق
سريعا ، فأطلقت بندقيتى كيفما اتفق ، وغمرتنى السعادة اذا اكتشفت أنني

قد اصطدت حيوانا من حيوانات ابن آوى . وبعد حصولي على هذه الغنيمة الثمينة ، وصلنا في الحال الى حيث الحمير تنتظرنا ، فركبنا مسرعين الى الباخرة . وقد غمرنا السرور .

وأخذ بعض منا بنصيحة خليل فبدءوا في يكور صباح اليوم التالي قبل بزوغ الشمس بوقت طويل وذهبوا الى بركة بعد أنار الكرنك (٦) ، تنجأ اليها الحيوانات الكبيرة غير المستأنسة لتروى ظمأها ابتداء من فترة ما بعد الغروب . كان الطريق طويلا يخيم عليه سكون الموت فليس من صوت الا عواء حيوانات ابن آوى ونباح الكلاب شبه المتوحشة - تأتينا بين الحين والحين لتقطع سكون الليل . وأخيرا وصلنا للبركة أو ان شئنا الدقة مستنقع الماء المتخلف عن فيضان النيل ، وأعد خليل مواضع البنادق بسرعة بينما رحنا نحن نلاحظ باهتمام شديد حتى أشرقت الشمس ذهبية حمراء على النيل العربي ، ولم نر شيئا سوى واحد من حيوانات ابن آوى تركه الهر راث Herr Rath ينسل هاربا .

ان الفترة القصيرة التي تمثل مرحلة انتقال بين ظهور حمرة الأفق حتى شروق الشمس ، تمثل ثراء في الألوان ، وتباينا ساحرا ، لا مثيل له الا في داخل أفريقيا . ورأينا كثيرا من الطيور من أنواع مختلفة ترد الماء فقررنا أن نقضى فترة ما قبل الظهر في اصطیاد الطيور ، وبالفعل أصبح في حوزتنا عدد كبير من الطيور الصغيرة . كان من بينها عدة أنواع من السماء ، ويوجد هذا الطائر في هذه المنطقة منتجعا شتويا له . ووصلنا لآثار الكرنك بعد جولة في الحقول . وقد عاد عدد من الرفاق الآن الى الأقصر بينما تخلفت أنا وتخبرت لي مكمنا بين الحرائب لأراقب جيفة قريبة في انتظار قدوم النسور الكبار . ولسوء الحظ لم يظهر الا واحد من نسور الجيف وحداة ، ولم أطلق بندقيتي على أى منهما .

ولم يكن هذا النهار ملائما لهذا النوع من الرياضة (صيد الطيور) لأن سحب الرمال كانت تغطي المكان حاجبة عنا حتى رؤية أقرب الجبال ، فقد عادت رياح الخماسين عاصفة هذا الصباح ، لذلك سرعان ما غادرت مكمنى بين أطلال مصر القديمة واتجهت الى بركة مائية صغيرة تحفها ألواح حجرية وهى بركة قديمة تقع بين البقايا الأثرية ، فهنا تلجأ بعض طيور الشنقب (أو الجهلول) وبعض طيور زمار الرمال (أو الطيطوى) لتلتقط أنفاسها بعد رحلة شاقة ، وقد أطلقت بندقيتي مرات عدة فأنهيت حياتها المضطربة .

وركبت شاقا أقصر الطرق الى الأقصر ومن ثم للباخرة . وكنا قد
خططنا لفترة بعد الظهر للقيام بأول زيارة لآثار الضفة الغربية ، لكننا
اضطررنا لتغيير خططنا بسبب العواصف الرملية وقررنا تأجيل زيارتنا
لطيبة الغربية بعد عودتنا من زيارة الشلالات (الجنادل) .

وقضينا جانبا من فترة ما بعد الظهر فوق ظهر السفينة وجانبا
آخر فى الأقصر ، وذهبت مع برجش باشا لزيارة الوكيل القنصلى لألمانيا ،
انه رجل قبطى يعمل بتجارة الآثار ، ووجدنا عنده قطعا أثرية أفضل من
تلك التى كانت عند الوكيل القنصلى لانجلترا الذى زرناه فى الأمس .
وقد اشترينا منه قطعاً مختلفة قيمة وضعناها فوق ظهر الباخرة .
ومما يذكر أن مجموعة المتحف المصرى تنمو بسرعة .

أرمنت :

وواصلنا رحلتنا جنوبا عند شروق شمس اليوم الخامس من الشهر .
وبناء على نصيحة بعض الأوربيين فى الأقصر قررنا التوقف عند قرية
مجاورة هى قرية أرمنت مشهورة بمصنع السكر ، وبكثرة مزارع القصب
بها ، وخصصنا عدة ساعات للصيد هناك . وبعد ساعتين وصلنا الى
أرمنت ، وقد استقبلنا بعض السادة الفرنسيين المسئولين فى المصنع
- المصمم على النسق الأوروبى تماما - بحرارة ووضعوا فى خدمتنا عددا
كثيرا من عمال المصنع كنا نحتاجهم لاثارة الطرائد المختبئة فى مزارع
القصب الكثيفة ، وأعدوا لنا قطارا كان علينا استقلاله للوصول الى المناطق
الملائمة للصيد ، فمررنا فى طريق تحفه أشجار الجميز الجميلة بالقرب
من المصنع ، وفى غضون دقائق وصلنا لمحطة صغيرة لحط سكك حديدية
قصير يربط المصنع بمزارع القصب .

وكان علينا بعد ذلك أن نجتمع العمال الذين سيقومون باثارة
الطرائد ، وأتى حشد من الفلاحين قادمين من المصنع وتجمعوا مباشرة فى
عربات خاصة تستخدم لنقل القصب ، وجعلنا أنفسنا فى آخر عربة من
هذه العربات وبدأنا نشق السهل مخلفين وراءنا البساتين الجميلة للموظفين
الفرنسيين ثم مررنا بقرية ريفية بائسة حولها بستان نخيل صغير .

وبعد رحلة قصيرة توقف القطار . ليس ثمة الا شريط ضيق من
الأرض الزراعية يفصل النيل عن الصحراء التى تقترب كثيرا من النهر
فى هذه المنطقة .

وأثار الفلاحون الطرائد فى أقرب حقول القصب ، ولسوء الحظ أن حقل القصب كان واسعاً وكثيفاً جداً فلم ننظر بما كنا نأمل فيه ، غير أن ذئبا واحداً ظهر واستطاع أن يهرب من مكمته دون أن يمسه سوء . وسرعان ما أدركنا ألا جدوى من محاولتنا فعدنا للقطار ، وفى طريق العودة - من خلال القرية التى ذكرتها للتو آنفاً - أطلقت بندقيتى أثناء ركوبى على نسر من نسور الجيف كان يقف مع نسور أخرى الى جوار منزل طينى . وفى حديقة أحد الموظفين الفرنسيين أرونا حيوانات ابن آوى ، كما أرونا - ما يظنه هؤلاء الناس الطيبون - أوكارا للذئاب . ولم تكن محاولة احضار كلاب الدشهند هنا مجددة ، فعدنا لباخرتنا بعد أن غبنا عنها فترة وجيزة .

وكان لأرمنت دور مهم فى التاريخ القديم ، فاسمها باليونانية هرمونثز Hermonthis وبالمرصرية القديمة اسمها آمونث Anmonth.

ولأن أرمنت تقع على الضفة الغربية للنيل كما تقع الى الجنوب من طيبة ، فانها بمعابدها المكرسة لعبادة الاله مونت Month (وقد نهب اللصوص المصريون آخر هذه المعابد منذ سنوات قليلة) تعد من بين اقدس المواضع .

وبعد التدهور السياسى لمدينة طيبة ، أصبحت أرمنت عاصمة للطيبين ، كما كانت أرمنت المقر الفعلى لحكومة السلطات الاغريقية الرومانية فى جنوب مصر . ويوجد ضمن المجموعة الامبراطورية فى فينا الآن قطع عمود من الجرانيت الأسود كان موجودا على شاطئ أرمنت . وفيما يلى ترجمة برجش باشا للوحة الجرانيتية السوداء الموجودة فى أرمنت والتى تعود الى الملك أمينوفيس الثانى Amenophis II ، حوالى ١٥٦٠ قبل الميلاد وهى مجرد تكرار لما فى معبد Amada فى النوبة :

« فى السنة الثالثة ، فى اليوم الخامس عشر من شهر أبيب
In the year 3, on the 15th day of the month Epiphi,

تحت حكم حورس المهيّب الجليل القوي ،
Under the government of Horus the mighty and powerful bull,

تحت حكم صاحب السلطة الملكية الذى يمتد سلطانه بعيدا ،
Of the possessor of the diadem whose power reaches far,

الذى توج فى طيبة ،
Who Was crowned in Thebes.

تحت حكم حورس المنتصر الذى وحده (مصر) كلها بالقوة ،
Of the victorious Horus who had taken possession by force of all the
Country.

تحت حكم المقدس صاحب الفضل ،
of the divine benefactor,

تحت حكم الاله الذى جعل (مصر) ثرية ،
of the Lord who makes Egypt rich.

تحت حكم ملك مصر العليا ومصر الدنيا ، رع - آ - شبيرو
of the king of upper and lower Egypt, Ra-à-cheperu,

تحت حكم الابن الحبيب لرع - اله الشمس ،
of the very own son of the sun-god Ra

تحت حكم حاكم أرمنت الشبيه بالاله ،
of the God-Like ruler of Hermonthis,

تحت حكم صديق خنوم رب فيلة العظيم ،
of the friend of the great good Chnum of Elephantine.

فصاحب الفضل المقدس الذى خلقه رع (الشمس) ملك عظيم منذ
ولادته .

The divine benefactor created by Ra (the sun) is a great king from
this birth up.

انه قوى كحورس على عرش آباءه ، ليس لقوته كفوا أحد ،
Powerful as Horus on the throne of his fathers, the strong-armed has
none who is his equal.

انه الملك ذو البطش ، (أو ذو اليد القوية)
That is a king of a strong hand

ليس من بشر يقدر على قياس قوسه ،
Whose bow no man Can Span

سواء من بين المقاتلين التابعين له أو من بين أمراء الشعب أو من بين
ملوك آشور .

Neither among his worris, nor among the princess of the people,
nor among the Kings of Assyria,

فقوته أعظم من قوة كل الملوك مجتمعين .
for his strength is greater than that of all the kings.

إن غضب صار نمرا (كالنمر) في غضبته ،
In his wrath he is like the leopard

وفي ساحة الوغى لا يجسر أحد على مواجهته .
If he head the battlefield there is none that will meet him.

منتصر في الحروب فهو درع مصر وحاميها .
Victorious in battle he is a bulwark for Egypt.

تمتزع قوته بالشجاعة ، ويبقى منتظرا في الشعب فهو يعف عند
المغنم .
Strong in Courage. he waits in the defile the hour of plunder.

يولى أعداؤه الأديار أمامه ،
His adversaries flee before him
لأنه قوته تحلق ممتدة فوق كل الناس ، فرجاله جبارون وكذلك
خيوله ،
for his power is out-stretched over all people with their mighty men
and horses,

وإذا أقبل أعداؤه بالملايين لا يساوره خوف ، فالاله آمون هو حارس
دربه .
and if his foes came in millions he need not fear the God of whose
path is Amon.

وإذا خرج في حملة تلبس بدنه في الحال كل قوى البشر ،
if he is on an expedition forthwith man's strength takes possession of
of his body,

وأصبح مثل الاله خم chim (بان Pan) (*) يوم الفزع ،
and he is like to the God Chim (pan) in time of horror.

(*) رب الغابات والمراعى والرعاة عند الاغريق وهم قبيح الخلقه . معجم المصطلحات
الأثرية احمد كمال حسنى - (المترجم)

فلا يستطيع أحد أن يفلت من قبضته •
and no man can save himself from his arm.

وكل الشعوب والبلاد أصبحت خدما له •
all the peoples & countries became his servants.

وكل من يكرهون الملك أصبحوا أسرى لقواه السحرية •
They that hated the king have become subject to his magic powers,

نعم ، فهذا أكيد ، فقواه السحرية تطولهم حتى آخر فرد فيهم •
Yea to the very last of them

الجرح وما جرح ، (لا يستطيع جيش أن يوقف تقدمه) •
His hands give wounds, and no arm can stay him.

ففى ظل أنفاسه - وحدها - تكمن الحياة •
only in his breath is life.

ملك الملوك ، أمير الأمراء أتى الى هنا بكل سكان المعمورة •
The King of Kings, the prince of princes has brought hither the inhabitants of the utmost ends of the earth.

فهو وحده ينصر من ينصره ، ويؤمن به كالشمس فى السماوت
He is the only one, and a champion for those who extol him and acknowledge him as a sun in the heavens.

نظرتة مرعبة فى الحروب
His glance is terrible in the day of battle.

لا حد لسطوته على الناس والشعوب
No bounds are set to him to the number of the people.

اتحد الغرباء ، لكنهم سقطوا على الأرض من شدة الحرارة ، لأن فمه
يزفر نارا محرقة (لأن فمه كالنار المحرقة)
The strangers unite, they fall to the ground at the heat, for his mouth
is like a Consuming fire.

لم يفلت منهم أحد ، والذين خروا لم يقوموا
None of them escape, those who fall do not arise.

انهم كأعداء باست (ديانا) فى طريق ...
They are like the adversaries of Bast (Diana) on the way of ...

لكن آمون أعطاه الصحة وباركه لانه يعرف أنه ابنه وأنه خرج وإياه
من جسده واحد ليحكمها كل ما ألفت عليه الشمس نورها من شعوب الأرض
وبلادها .

But Amon gives health & blessing to him who Confesses that he is
his son, Sprung from one body with him, to rule whatever the sun
encompasses, the people and countries of earth.

فحالما ينظر الى كل هذه الشعوب والبلدان تغدو ملكه بفعل جبروته
وقوته .

As soon as he beholds them, they are his possession through conquest
and mighty strength

انه الملك الذى يجد المسرة فى قلبه بفضل أعمال الأرباب ، وبناء
معابدها وإقامة التماثيل (الصور) لهما ، ويجد المسرة لزيادة الأضحيات
الطازجة والخبز والجمعة بوفرة " والحمام والدجاج اليوم وكل يوم والى
الأبد . و (الأضحيات) من الثيران والماعز فى الأعياد حيث لا مجاعة .

That is the king who finds pleasure in his heart for the works of the
gods, the building of their temples, the setting up of their images, in
the increase of fresh' scarifices, bread and beer in abundance, doves
and winged fowl for to-day and daily for ever. Of oxen and goats in
their seasin (the festivals) there is no lack.

انه يهب المعبد للاله (معبد فيلة للاله خنوم) مزودا بكل شىء :
كثير من الثيران والأبقار والدجاج .

He gives the Temple (i.e. the Temple of Elephantine to the god Chnum),
Provided with all things, oxen, Claves, and fowl in abundance.

وهذا المعبد مزود أيضا - تأكيدا لعظمته - بالقرابين ، وبالخبز
والجمعة والنبيد .

This temple also is provided for in its greatness with offerings, with
bread and beer and wine.

وقد أعاد تجديده ليحظى باعجاب البشر واعتراف كل الشعوب
ويظل للأباء والآلهة فترة طويلة من الزمن بعد ذلك .

That which the fathers and Gods long after, he has instituted a new to
the admiration of men and the acknowledgment of all people.

لقد وجد برجش باشا هذا التسجيل الجميل والشائق بينما كنا نمارس الصيد واتخذنا قرارا بضرورة أخذ هذا الجرانيت الأسود عند عودتنا الى أرمنت قادمين من أسوان .

وواصلنا رحلتنا دون مزيد من التأخير وسرعان ما وصلنا الى نقطة انثنى عندها النيل ثنية حادة ، وتقترب الجبال من المجرى في الضفتين ، وعند منطقة الجبلة Gebeluh تنحدر الجبال بشدة نحو النهر . والمسيلات (الوديان الصغيرة) ، والصخور والمنحدرات الصخرية لجبل نساخ Nissah الشامخ الأجرد شرق النيل – كلها مناظر تتسم بجمال خاص .

وبينما كنا فوق ظهر باخرتنا النيلية سعداء برؤية الأرض الزراعية الجميلة لمحت جاموسة ميتة على الشاطئ الرهلي تحيط بها النسور . واكتشفت – مستعينا – بالتلسكوب نسورا كبيرة زرقاء رؤوسها وهي طيور أفريقية خالصة ، الى جانب النسور ذوات الرؤوس البيضاء .

ومما يؤسف له أن الطيور الجبابة لم تسمح لباخرتنا بالاقتراب لتهيئة المسافة المناسبة لاطلاق بناذقنا ، فتوقفنا وذهبت أنا والدوق الكبير الى الشاطئ . واتخذنا من بعض الشجيرات غطاء كافيا وانتظرنا بهلوس أملين أن تعود النسور ذوات الرؤوس الزرقاء لأكبال وجبتها .

يا خسارة ، لم يأت أى منها وإنما أتى زوج من نسور الجيف النهمه فأطلقت النار من بندقيتي الضخيفة على واحد منهما ، وأقبل رهط من الفلاحين المستطلعين عند سماع صوت البندقية (لقد كانوا داكنين تماما وغالبهم عراه) ، فقدت معهم صفقة مؤداها أن يضعوا بعض الجيف – يرميا – فى هذا الموضع وألا يزعجوا الطيور بأية حال من الأحوال ، على أمل أن أجرب حظى فى اصطيد النسور ذوات الأذان (الزرقاء رؤوسها) عند عودتى . ووعدنى الناس الطيبون – لقاء الحصول على البقشيش – أن ينفذوا – حرفيا – ما طابناهم منهم .

وجدفنا عائدين لباخرتنا وتابعتنا الابحار جنوبا دون مزيد من التأخير ، وبعد أن مررنا الى الأذنى من تل أجرد فى أعلاه ضريح أحد الأولياء (الشيوخ) القدامى ، بدأت الجبال تتراجع عن الوادى فيصبح السهل عريضا شيئا فشيئا ، حتى غدا عند اسنا واسعا حسنة زراعته .

اسنا :

وقبيل الغروب وصلت سفينتنا الى مدينة اسنا الكبيرة التى تحيطها بساتين النخيل والحدائق الخصبة اليبانة . ولما رست الباخرة ألقينا نظرة

من فوقها استمتعنا خلالها بحيوية الحياة الشرقية وصخبها ، تلك الحياة التي تعج أمامنا على ضفاف النيل .

كان المساء باردا منعشاً ، بعد أن عانينا من الحرارة الأفريقية الأصيلة التي أعقبت هبوب رياح الخماسين . وبعد أن تناولنا غداءنا غادرنا السفينة فاستقبلنا المدير بحفاوة ، فركبنا الحمير ودرنا حول المدينة لنصل الى معبد شهير بالقرب منها .

واسمنا هي مدينة سيني Sini المصرية القديمة ، وقد أسماها الاغريق لاتوبولس Latopolis بسبب عبادة سمكة اللاتوس Latus وهي عبادة كانت موجودة في هذه البلدة ، وبها عدد من المعابد والأماكن المقدسة مكرسة لعبادة الاله خنوم Chnum ، وثمة بقايا مجاز (ردهة) لا زالت باقية لواحد من أكبر هذه المعابد ، ويقع غائرا الى منتصفه في تربة المدينة الحديثة .

ومما يعطى هذا الأثر الذي يعود لزمن الامبراطورية الرومانية أهمية خاصة ما يشير اليه من التقويم المصرى القديم القائم على العثم السكندري والصور الفلكية في سقفه . وفي ضوء مشاعل كثيرة رأينا أن صالة (ردهة) هذا المعبد تبدو بحالة جيدة جدا ، وقد بقينا لفترة طويلة في غرفة مظلمة نستمتع بالمناظر (الصور) الشائقة ، ومما يذكر أن هذا المعبد حديث نسبيا اذا قورن بالآثار الأخرى فهو يعود الى زمن الامبراطورية الرومانية . وفي طريق عودتنا قبلنا دعرة المدير الودود وسرعان ما وجدنا أنفسنا جالسين في الطابق الأرضي لمبنى حكومي جميل ، واسترحنا فوق الكنب divans ودخنا بسعادة وشربنا القهوة وما كدنا ننتهي من تناول هذه التحية التي قلما نعفى منها في (الشرق) حتى فتحت الأبواب ودخلت فتيات خفيفات الخطو ليرقصن مصحوبات بهوسيقا مناسبة . لم تكن الفتيات - هنا - جميلات ، خلا واحدة كانت حبشية ذات ملامح محددة جميلة وبشرة باكية داكنة متألقة . وبعد أن مكثنا فترة يسيرة استأذنا المدير وعدنا للباخرة .

الكتاب ثم ادفو :

وتابعنا رحلتنا في بكور السادس من مارس وسرعان ما وصلنا الى ممر الكاب El-Kab حيث تقترب جبال الضفتين من مجرى النهر بوحشية وشاعرية . لقد كانت المنطقة جميلة . وبعد أن اجتزنا هذا الممر تراجمت الصحراء الغربية (الليبية) لتخطي مكانا لسهل ادفو العريض المزروع بشكل جيد ، بينما استمرت جبال الصحراء الشرقية (العربية)

قريبة من النيل • لقد تغيرت - أيضا - طبيعة الجبال : فبدلا عن التلال المحددة أشكالها والشامخة أصبحنا نرى جبالا من حجارة رملية تشكل قممها المنخفضة أشكالا ذوات طبيعة خاصة •

وقبل الظهر وصلت باخرتنا الى ادفو Edfu فركبنا عبر بعض الحقول الى قرية بائسة جدا بالقرب منها ، ووصلنا الى أفضل معابد مصر العليا من حيث بقائه مصنونا ، وواحد من أفضل وأجمل القطع المعمارية في كل العصور ، وذلك بعد أن مررنا بشوارع ضيقة قدرة حتى وصلنا لهذا المعبد الجميل الذى يقع بين أكوام القمامة والخرائب • وبدانا تفقد المعبد يرشدنا برجش باشا • وادفو هي ديبو Debū أو ادبو Edbo المصرية القديمة ، وأسمائها الاغريق أبولونوبولس العظيمة Apollonopolis ، ويعبد معبد ادفو بالفعل أحد أعظم المعابد وأوسعها ، وقد ظل منذ العصور القديمة حتى الآن محتفظا برونقه ومصنونا بشكل يدعو للاعجاب •

والمعبد - بشكل عام - مصمم وفقا للخطة (التصميم) التى ذكرناها آنفا ، ولذا فهو يقدم للمراقب المعاصر أكثر الصور صدقا لبناء المعبد فى مصر القديمة •

وهذا المعبد الواسعة أرجاؤه مخصص لعبادة حورس Horu إله النور وهو بمثابة أبولو اليونانى الذى وصفته النقوش بدقة باعتباره إله الشمس فى مصر العليا ويتمثل فى رأس صقر ويبدو الإله منتصرا على جحافل الظلام ويرمز له بفرس النهار غير المروض • وقد حفرت المناظر فى الجانِب الداخلى للجدار الذى يمثل الحد الغربى حيث تبين - أى المناظر - معركة إله النور ضد الظلام والشر ، بشكل أخلاقى ، وتذكرنا بالأسطورة اليونانية الشهيرة عن عمال هرقل الاثنى عشر Twelve labour of Hercules • ان ثراء الرسوم والنقوش التى تغطى كل سطوح الجدران المساء والأعمدة فى هذا المعبد تتفوق فى محتواها على سائر آثار مصر الأخرى •

فالتفاصيل الدقيقة التى عرضت بها المعلومات تجعلها حقا معينة لا ينضب • انها معلومات تاريخية وجغرافية واثنوجرافية وفلكية ومعلومات متعلقة بنظام الخلعة فى المعبد ••• الخ ، وثمة جزء منفصل تماما عن التراث الميثولوجى (الأسطورى) المتعلق بالآلهة ، انها معلومات ثرة يمكن أن تملأ مجلدا سميكًا ، وطول المعبد - اذا قسمناه من جداره الخارجى الذى يحدد حدوده : ٤٣٣ قدما و ٦ بوصات ، وعرض كل جناح : ١٠٠ قدم و ٦ بوصات أما ارتفاع كل جناح من الأجنحة فيبلغ ١٠٣ أقدام •

وساحة المعبد وبهوه المعمد يقومان على ثلاثة وثلاثين عمودا ، وهما (السناحة والبهو) يتسمان بالجمال والبهاء ، ويتركان فى النفس تأثيرا ، والصلوات التى تحاذى اتجاه المحور من الجنوب الى الشمال ، يتلو بعضها بعضا فى نظام مفروض حتى تصل الى قدس الأقداس حيث توجد حتى الآن مصلى القدااسة الحجرية التى تعود لأيام آخر فرعون وطنى national pharaoh

وأخيرا ، يجب أن نلاحظ أن المبنى كله مشيد على نسق تصاميم قديمة على عهد الملوك البطالمة من سنة ٢٣٧ الى ١٤٢ قبل الميلاد ومن ثم فقد استغرق تشييده خمسة وتسعين عاما ، وذلك وفقا لما تشير اليه النقوش .

وبعد أن تفقدنا كل أرجاء المعبد صعدنا الى سطحه المسطح وألقينا نظرة على النيل والوادي الأخضر وعبر الصحراء التى تبدأ بالقرب من المعبد وعلى ما وراءها من تلال التى تتخذ شكل الأهرامات لقد كان المنظر جميلا .

ولان النسور كانت تحلق فوقنا ، فقد وضعت ذبيحة خلف كومة من الدبش وانتظرت فوق سطح المعبد خلف فتحات فى سورته حتى تأتى الطيور الجارحة الكبيرة ، ومما يؤسف له أنه لم يأت الا نسور الجيف فأقنعت نفسى بهذه الغنيمة المتواضعة ، فقد كنا فى عجلة لمواصلة الرحلة فى موعدها ، فركبنا عائدين الى باخرتنا بعد أن مررنا بقرية بأئسة وسلكتنا الطريق نفسه الذى وصلنا للمعبد منه .

وما هى الا دقائق حتى واصلت الباخرة ابجارها فى مجرى النيل ، وكانت المناظرة مألوفة متشابهة ، وكانت جبال صحراء مصر الشرقية (الجبال الغربية) ذات لون أبيض ضارب للرمادى كما كانت منخفضة غير محددة ، وكانت تقترب من النهر كثيرا كلما تقدمنا (صوب الجنوب) فلم تترك بينها وبين النهر سوى شريط ضيق جدا ، وفى بعض الأحيان كان هذا الشريط يختفى تماما .

وجبال الصحراء الغربية (الليبية) منخفضة أيضا ويميل لونها للصفرة وقد اتخذت أشكالا معقدة غريبة . والى الجنوب من ادفو تقترب كثيرا من مجرى النيل باستمرار .

ان الرقعة الخضراء فى هذا الجانب أصبحت ضيقة جدا حيث التربة ممتازة لكنها - للأسف - مهملة ، وليس ثمة ملين هنا أملا لقرى فنادرة .

ومرت أسراب كبيرة من طيور اللقلق فوق الوادى متجهة شمالا وكانت الطيور الجارحة تحلق عاليا أو تتجمع فوق الصخور ، ودجاجات الماء تملأ الضفتين بين الحين والحين . وبعد الظهر استمتعنا بمنظر جبل السلسلة الجميل Gebel-selseh من فوق ظهر سفينتنا ، وفى المساء - عند غروب الشمس - وصلنا للنقطة الشمالية لجزيرة واسعة كثيفة الزروع ، فأبحرت سفينتنا الى الشرق منها، وسرعان ما رأينا معبد كوم امبو الصغير ، الا أن موقعه ممتاز . وهذا المعبد القديم يقع على شاطئ النيل فى موضع مرتفع وشديد الانحدار مغطى بالخضرة . ويمكن رؤية هذا المعبد من مسافة بعيدة وليس من مدنه قريبة منه ولا حتى أية تجمعات بشرية ، فهو قائم بين النهر والصحراء التى تتقدم هنا على هيئة هضبة مرندعة الى حافة الشجيرات الثابتة على ضفة النهر . وليس ثمة ما يمكن أن يقال له جبل .

معبد كوم امبو :

ولأن الليل كان يزحف ، فقد رسونا الى الأدنى من المعبد : وكان الى جوار سفينتنا ذهبية (سفينة أخرى) يشغلها أوربيون ، وكان مترجمهم من دالماشيا خبيرا نصحننا أن نذهب بعد تناول العشاء الى المعبد ومعنا عنز نحثها على الثغاء ، ثم نكدهن فى انتظار الذئب ، وأشفعنا قوله بالعمل ، وفى الساعة التاسعة تسلقت مع هويوز الشاطىء المنحدر وتلمسنا طريقنا خلال المعبد المنعزل ، فوجدنا فى جانبه الشرقي عمودا اتخذنا منه غطاء نختبه خلفه للمراقبة ، وربطنا الماعز - التى راحت تنغو - على بعد عدة خطوات الى الأمام ، ولربنا منتظرين نراقب بحذر بالغ طوال ساعتين . لا شيء يتحرك ولو تحركا يسيرا ، كان المرء يحس بالرهبة رغم جمال المناظر ، فالمعبد القديم بممراته العابسة والصحراء الممتدة لا يجد من امتدادها واستوائها شيء سوى بعض البقايا والأحجار ، وقد بسط عليها القمر الأفريقي سناه - انه قمر حقا لا كالقمر الأوربي الذى يشبه ضوءه ضوء المصباح الليلي الشاحب (السهارة) ، وفى نور القمر الأفريقي المتألق كنور النهار يمكنك أن ترى أصغر حصاة ، فنور القمر الأفريقي لا يكفى الصياد والرياضى فحسبه ، وإنما يمكن للفنان أن يرسم ويلاحظ ويتأمل فى الليالى القمرية .

ولسوء الحظ فإن الأوربيين القادمين من الذهبية (الباخرة المجاورة لباخرتنا) كانوا يمارسون الصيد بالقرب من مكمننا ورجعوا عائدين متجاوزين المعبد ومعهم دجاجات تصيح كانوا قد أخذوها معهم لجذب الطرائد ، ومن ثم تلاشى أملنا فى صيد ثمين فأسرعنا عائدين لباخرتنا .

ولا يمكن أبدا أن أنسى هذه الليلة القمرية فى كوم أمبو (الاسم يعنى تل أمبو ، واسمها الهيروغليفي نوبى Nubi وتعنى مدينة الذهب ، أما الاغريق فاسموها أمبوس (Ombus) ببقايا معبدها ذى الجمال والجلال ، والطمور الى نصفه فى الرمال ، لا يمكن أن أنسى عاصمة الاقليم الذى حمل فيما بعد اسم أمبيتس Ombites . وهذه المدينة وهذا المعبد كانا مكرهين من سائر المصريين الآخريين ، ففى هذه المدينة كان ست set (يقابل تيفون فى الأساطير الاغريقية) يعبد فى أحد أشكاله (تجسداته) الرئيسية his chief embodiments لذا فان عديدا من تماثيل التمساح ، وهو الحيوان الدال على هذا الاله (ست) - موجودة هنا ، كما أنها مذكورة فى الكتابات المنقوشة .

وعند الشروق غادرت سفينتنا كوم أمبو الجميلة متابعة رحلتها الى أسوان . لقد أبقتنا روعة المشاهد على ظهر السفينة ، فقد كانت التلال المنخفضة ذوات التكوينات الجميلة تقترب اقترابا شديدا من ضفتى النهر فى مواضع كثيرة بحيث لا تترك مجالا للزراعة أو تترك مجالا ضيقا . وهنا وهناك متعنا أعيننا برؤية بساطين النخيل الرائعة والشجيرات الكثيفة وخلفها ترتفع الجبال كتلا صخرية وقطعا حجرية مكونة طبقات ذوات طبيعة خاصة .

وكلما اقتربنا من أسوان تغيرت صورة الأرض عما كانت عليه قبل ذلك حول النيل « وأصبحت المدن أقل ، والقرى أكثر ، ولاحظنا بعض المستوطنات الزنجية Negro لقبيلة أتت من الجنوب ، مندثرة نحو الشمال (المقصود نحو مصر) وثمة أكواخ بائسة من القش على شكل الخيام تحت نخيل البلح ونخيل الدوم date and Dom thepan palms . لقد وطن هؤلاء السود أنفسهم فى مناطق خصبة . لقد كانت صورة للحياة الأفريقية الخالصة قدمت من أعماق القارة ، فقد لاحظنا هؤلاء الناس من خلال التلسكوب : كانوا سودا كالفحم ، وكانوا يجيئون ويروحون بين الأشجار الخضراء وهم عراة تماما .

وبدا منظر الأرض حول ضفاف النيل يتغير كلما اقتربنا من الساعة الحادية عشرة ليصبح أكثر تطرفا وأقل استواء ، فقد بدا النيل أمامنا وكأنما طوقته كتل صخرية جبلية : كتل من الحجارة والبراح من الصخر رديش حف النور - الذى أصبح مجراه يضيق شيئا فشيئا - من الجانبين . والجبال على الضفة اليمنى (الشرقية) أخذت مكانها ليحل محلها سهل متفرد خال ، تتناثر فوقه كتل الصخر ويظهر خلاله بين الحين والحين أشكال مخروطية مثلثة (غير ملساء) ، وعلى الضفة الغربية تل مرتفع

بشكل ملحوظ يتغمس سقفه في مياه النيل ، وفوق قمته مبنى قديم ذو طابع معمارى اسلامى ، وسرعان ما ظهرت النخيل ، ومن ثم الحدائق الخضراء التي ترقد في أحضانها مدينة أسوان الصغيرة المضغوطة بين الصحراء والنيل .

جزيرة فيلة وأسوان :

وهنا يتشعب النيل الى شعبتين ، وحيثما جزيرة فيلة Elephantine - المعروفة بغطائها النباتى المدارى - بابتسامة عند اقترابنا ، كانت تحيط بالجزيرة الجذابة دائرة من الحيوود الجرانيتية السوداء الغادرة ، وكانت النتوءات الصخرية الحادة تبرز من بين أمواج النيل حولها ، وتلك أول اشارة (أو دلالة) للشلالات (الجنادل) القادمة .

صخور ذوات شقوق وصدوع ، وصحراء وعزلة ، جلال فى الملامح . بهاء فى الألوان بين النهر المندفح ، والتكوينات الصخرية الرائعة المهيبه ، ومدنية اسلامية خالصة حيث يختلط الاسلام (*) وأجناس مختلطة من داخل القارة جنبا الى جنب ، وأثار مصرية عريقة وجزيرة جميلة ذات طابع مدارى - كل أولئك أمامنا فى هذه اللحظة . وحملتنا باعجاب فى المنظر الرائع الذى يمثل المرحلة الأخيرة لرحلتنا ، بالقرب من مدار السرطان ، حافة المنطقة المدارية .

واتخذت السفينة طريقها ببطء وسط العواقر التي تعترض القناة - وما هي الا دقائق حتى رست عند شاطئ طينى شديد انحداره . وكان معنا فى المرسى باخرة بريد وعدة ذهبيات (بواخر نزهة) ، وبمجرد وصولنا غادرتنا سفينتنا لنزور المدينة وننقلها تفقدا كاملا . انها - بالتأكيد - من أكثر المواضع تشويقا وجاذبية على مدى رحلتنا النيلية . انها مدينة عربية ذات طابع سامى Semitic غالب حقا فى مبانيها وسكانها ، وواحدة من آخر المراكز التجارية . انها مدينة اسلامية فالاسلام دين الدولة من الناحية الرسمية ، لكن من الناحية الواقعية فاننى أشك فى ذلك بالنسبة لهذه المدينة (*) .

منازلها مشيدة من طين ولها - تماما - طابع مدن مصر القديمة فالشوارع ضيقة وعفنة . الا أن الشوارع الأقرب للنهر تضم بعض المنازل الأعلى ، وبها سوق جديدة بأن يراها المرء . أما الأحياء الأخرى (البعيدة

(*) يستخدم الأرشيدوق كلمة الاسلام فى أكثر من موضع للدلالة على الجنس او العرق وليس مجرد دين : وهذا - كما لا يخفى - غير صحيح - (المترجم) .

نسبياً عن النهر) فتتكون من مساكن طينية بائسة وبها أركان تتخذ كل الأشكال غير المنتظمة . ويحيط بجزئها الشرقى سور تهنم في أكثر من جزء من أجزائه وتلتصق به بقايا مقابر اسلامية تشغل منطقة واسعة .

وكان السوق هو أول مكان نتوجه لزيارته . انه طريق محفوف من الجانبين - تماما - بالزرائب والاصطبلات ، ومسقوف بالألواح الخشبية لحجب الشمس . والتجار في المحلات عرب بأثوابهم الشرقية الطويلة وعمائمهم . والبشر الذين يتحركون جيئة وذهابا ويحضرون بضائعهم للسوق ويتعرضون لغش الساميين الماكين Cuning Semite وخداعهم - ليسوا شرقيين ولا حتى فلاحين . والبدو أيضا لا وجود لهم هنا ، الناس من جنس أفريقي خالص : كثيرون منهم زنوج negroes ونوبيون داكنو البشرة ، وسلالة الاثيوبيين القدماء والعبادة والبشا Beshas ، وكل القبائل الصغيرة ذات الأصول الكوشية Kushite .

لقد وصلنا لطرف الشرق القصي ، فهنا يزدهر المكان كمدينة تجارية لنقل المنتجات الأفريقية شمالا من خلال نهر النيل .

والمنتجات الشرقية الأصيلة كتلك التي رأيناها في الموسكى في القاهرة غير موجودة هنا ، أما المواد الخام المدارية فمطروحة بكثرة في محلات ضيقة .

ريش نعام أبيض ورمادي ، قرون الوعل ، جلود الأبقار الوحشية وجلود الغزلان ، وأغطية من جلود النمر وغيرها من الحيوانات المفترسة ، وبيض ، وفواكه مدارية وصمغ وبهارات وأسلحة أفريقية ، وعصى يستخدمها الجمالون ، وحلى كالتي يلبسها الزنوج وأدوات للاباس النسوة النوبيات - مثل خيوط يصنعون منها حبالا منقوعة في سوائل ذات رائحة بشعة لطرد الذباب ، وقبعات من قش ترتديها القبائل المتبربرة وبعض الأشياء التافهة المختلفة .

ورأيت على أبواب بيوت كثيرة تماسيح صغيرة محنطة (محشوة) ومثبتة بالمسامير ، كما رأيت قرودا مستأنسة تجلس عند مدخل بيوت أخرى . وقد اشتريت بنفسى واحدا منها أمتعنا كثيرا وسلانا ، ومما يؤسف له أنه مات بعد ذلك في القاهرة .

العبادة :

لقد كانت الحياة في السوق شائقة جدا ، وقد لفت نظرى - على نحو خاص - العبادة بمنظرهم المحارب فهو مدججون بالسلاح ملتفون

بأسماهم القليلة ، وقد صفوا شعورهم بطريقتهم الخاصة التي ذكرناها
أنفا .

وراح الجميع ينظرون اليها نظرات وحشية فضولية ، وقد باعنا
العرب الماكرون بلؤمهم البارح بضائع أفريقية بأسعار باهظة . لقد ربحوا
- بدما - من وجودنا بينهم .

وفى ساحة مكشوفة بين المساكن والمرسى رقص العباودة أمامنا
رقصة الحرب . وهذه الرقصة لا تعدوا أن تكون قفزا وحشيا هنا وهناك ،
يمارسها قوم متوحشون فى أدنى درجات التطور ، والموسيقا المصاحبة
لا تزيد عن كونها قرعا مرعبا بنواقيس معدنية ذكرتنى بالصلصلة المصاحبة
لرقصات العبيد الزوج فى مراکش ، لكن الرقص نفسه يشبه الرقص غير
المنضبط الذى يمارسه قراصنة منطقة الريف فى الساحل الشمالى
الغربى لأفريقيا .

لقد كان العباودة المحترمون يقفزون بكل ما أوتوا من قوة ويصلون
بقفزاتهم الى ارتفاعات لاتصدق، وهم - أثناء ذلك - يصيحون ويصرخون .
ويهزون سيوفهم ويدفعون رماحهم بعنف عاليا ، ويضربونها بشدة فى
تروسهم الجلدية ، ويقوم الواحد منهم بهجوم غير حقيقى على رفاقه .

لقد كان هؤلاء البشر (المخلوقات) بمشراهم البنية الداكنة
وملابسهم القليلة حتى انه ليتمكن وصفهم بأنهم أنصاف عراة ، وبشعرهم
الذى تتخلله قطع خشبية ، والمستشزر فى كل اتجاه كأنه أشعة ،
وبالحلقات المعدنية فى أنوفهم وآذانهم وحول أذرعهم - يبدون وكأنهم
صورة خيالية تمثل خليطا وحشيا .

وبعد هذا العرض ركبوا جمالهم بسرعة غير مألوفة ، وقد اشترك
الشباب منهم فقط فى هذا العرض ، أما كبار السن فقد وقفوا وقد ظهرت
أسنانهم البيض المتألقة من بين شفاههم الداكنة وابتسامة الرضا تشع
من وجوههم . وبعد فترة عدنا للباخرة محملين بالبضائع التى اشتريناها
وبفيض من الانطباعات الجديدة .

وأثناء تناولنا الافطار حلقت الحداث بأعداد كبيرة فوق السفينة ،
اذ كانت نهمة تبحث عن قطع الخبز الملقاة فى الماء ، وحتى طلقات البنادق
لم تستطع ابعاد هذه الطيور النهمة . وبعد انتهاء وجبتنا بدأنا فوراً .
- مرة أخرى - نزهة الى المحاجر التى حققت شهرة منذ الأزمنة القديمة .
فركبنا بسرعة ومررنا خلال المدينة ، وعند آخر كوخ بانس بها كانت
الصحراء الخالصة فى انتظارنا برمالها البيضاء وانعكاساتها الحارقة .

الوادي عند أسوان عريض لكنه غير مستو وتحيطه التلال حيث أضرحة الأولياء .

وهنا أيضا مقابر الخلفاء وبعض الطواحين وثمة بعض شواهد القبور لكنها - أى الشواهد - بأئسة لا تدل على الفخامة ، وقبور الأولياء قبابها تشبه قباب المساجد ، لكنها - أى القبور - غير مصونة صيانة جيدة .

لقد ركبنا فى الشمس المحرقة على طول الجانب الشمالى (٩) للوادي العريض خلال المقابر غير المنظمة ، لكنها أكثر جاذبية طبيعية من مقابر القاهرة الواقعة أدنى القلعة . فالتلال الجرداء التى تقترب من الوادي والصحراء ذات الأحجار البيضاء والصخور الصلدة ، والألوان الزاهية التى زاد بهاءها أشعة شمس الظهرية الأفريقية - كل أولئك قد طبع المكان بطابعه .

لقد ركبنا فى الحرارة اللاهبة على طول الجانب الشمالى للوادي العريض خلال مدينة الموتى التى تعج بفوضى هائلة . وبعد برهة أضحت المقابر شيئا فشيئا أكثر تفرقا وتباعدا حتى اختفى كل أثر من عمل الإنسان .

ليس من بادرة عشب هنا تسعد العين ، فلا شيء سوى الأحجار العارية والرمال والغبار ، وفى الوقت نفسه فإن الصحراء ليست مستوية وإنما اتخذت شكل تلال يتلو بعضها بعضا .

وثمة بعض الكتل الجرانيتية ذات الأشكال المتفردة مما يشير تقريبا من الحجر . وسرعان ما وصلنا لمنحدر صخرى شاهق ، أدناه مغطى على نحو ما بالأحجار المكسرة حيث توجد مسلة ، وأترك صديقى برجس يتحدثنا عنها وعن أسوان بشكل عام :

« أسوان (بالمصرية القديمة سوان Suan وباليونانية سين Syene) تمثل آخر مدن مصر صوب الجنوب ، ويسكنها الآن العرب والمصريون . ويزورها لخلق كثير من قبائل الصحراء التى تجول فى صحراء مصر الشرقية حتى سواحل البحر الأحمر . وصخور المنطقة الجرانيتية التى تبدأ من هنا مغطاة بكثير من النقوش التى تعود لمختلف الحقب والتى تؤكد بوضوح مرور المسئولين المصريين عبر هذه المناطق . وبناء على أوامر الملوك الفراعنة فإن المحاجر الثرية الواقعة الى الجنوب الشرقى من أسوان (التى تعرف باسم الجبل الأحمر) قد عمل بها آلاف العمال راحوا يقطعون منها الأحجار لعمل المسلات والتماثيل والمعابد والألواح الحجرية

المختلفة . وثمة مسلة لم تكتمل مطروحة هنا تنتظر - عبثا - تعليمات .
منشئها .

ومنذ أيام الفراعنة تعرضت هذه المحاجر للاهمال ، فالمنحدر
الصخري المهشم وكتل الصخر المنزوعة منه نجمل شواهد على حضارة
انتهت منذ عهود سحيقة كانت موجودة فى هذه المنطقة منذ آلاف السنين .

وعند مدينة الموتى (المقابر) انقسمت مجموعتنا الى قسمين : مجموعة
ركبت عائدة للباخرة ، بينما تسلفت أنا مع هويوز تلا متوسط الارتفاع
صخريا مجرد تماما يحيط بالوادي قرب أسوان .

وعلى قمة التل يقع قبر أحد الأولياء (الشيوخ) على شكل مبنى
له عقود دائرية ، وكنا قد وضعنا فى وقت سابق ذبيحة (طعام) الى
جواره لجلب النسور التى تحلق عاليا .

وكنا فى موقع ممتاز ، وما هى الا دقائق حتى راحت الحدهات ونسور
الجيف تأكل فى الخروف الميت ، ولم تصل الجوارح الكبيرة فاكتفيت
باطلاق بندقتى على واحد من نسور الجيف فلم يكن لدينا الوقت الكافى
لانتظار .

وخرجنا من القبور العابسة فاستمتعت عيوننا بمنظر سنئى تماما ،
فالى الشمال - أدنى منا مباشرة - يقع وادى النيل الضيق تحيطه الجبال ،
فالنهر يشق طريقه خلال شقوق الجنادل (الشلالات) شقا ، وخلفنا
جزيرة فيلة المدارية وأسوان ذات الموقع الجميل ، ومدينة الموتى العابسة ،
وحول كل ذلك - غير بعيد عنه - ما لا حصر له من الجبال والوديان
والسهول والهضاب والتلال المنعزلة الجرداء وصحراء الرمال الحقيقية -
كل أولئك قد لمست أشعة الشمس الحمراء ، فغدا أبيض محمرا ، لا يقطع
هذا اللون ويحول دون استمراره سوى بعض الصخور البرتقالية أو
الجرانيتية السوداء ، هنا وهناك ، ومن فوقنا سماء زرقاء خالصة الزرقة
رائقة كالبلور لا تعكرها سحابة . وعدنا بسرعة الى أسوان .

وسأحسن صنعا فأتارك برجش باشا يحدثنا عن جزيرة فيلة :

« فيلة بمقياسها الذى يعود للعصر الرومانى ، وبآثارها التى تعود
لبواكير التاريخ المصرى - لا يزورها المسافرون الآن الا للاستمتاع لموقعها
الجميل المتميز عند مدخل بوابة الجنادل (الشلالات) ، فقد ولت عظمتها
السابقة منذ انجمت عاصمة منطقة النوبة - التى كانت قائمة فوق
الجزيرة - بما فيها من تماثيل ومعابد :

ففى هذه البقعة كانت توجد حتى العصر الرومانى حامية قوية ، كان منوطا بها حماية المنطقة من الغارات القادمة من الجنوب . والسور القديم فى الطريق من أسوان الى جزيرة فيلة شيد للغرض نفسه ، فهو بمثابة متاريس ضد غارات السلب القادمة من الجنوب ، وبقايا هذا السور - المظمور نصفه فى الرمال - يمكن حتى الآن تتبعها .

وغادرت مع هويوز - مرة أخرى - سفينتنا ، فقد كانت الشمس تغرب وماجت المنطقة فى فيض من الألوان الجميلة .

وقادنا رجل نوبى فى ثوب أبيض ويحمل بندقية طويلة ، ومعروف كصياد فى أسوان - قادنا خلال المدينة حتى وصل بنا الى أبعد منازلها ، وتصحنا أن نكمن هناك لدقائق قليلة لأن الحيوانات المفترسة تنتظر بطرائدها خارج أسوان كل ليلة بعيد الغروب .

الكلاب تنبح ، والأطفال يصرخون ، وجماعة من العبادة يصيحون وهم فى طريقهم لمساكنهم فى الصحراء ، ورغم كل ذلك ظهر واحد من حيوانات ابن أوى على تل صغير واختفى سريعا بين الأحجار . ولأن حمرة الشفق أخذت فى التلاشى فقد أسرعنا داخل مدينة الموتى (المقابر) ، كان ابن أوى يجرى غير بعيد فأطلقت بندقيتى فتمدد . وبالقرب من سفح التل - الذى أطلقت فوق قمته بندقيتى بعد الظهر فأصبت واحدا من نسور الجيف - وغير بعيد عن آخر القبور ، يوجد حوض قديم تحفه التلال الرملية فى واد صغير .

وكنا قد أمرنا بوضع طعام (ذبيحة أو حيوان ميت) فى هذا المكان ، وكنا فى موضع مجوف ، كان القمر مرتفعا يغمر بنوره المنظر الجليل المخيف ، فقله كان البصمت والموت يحكمان المكان ، صحراء ومقابر شيوخ (أولياء) قدماء وقباب وشواهد حزينة . ليس من صوت يقطع حبل الصمت سوى نباح كلاب القرية وعواء حيوانات ابن أوى .

لقد مكثنا - بشق الأنفس - حوالى نصف الساعة فى هذا المكان غير المريح فأحسست بحفيف حيوان يأتى نحوى ، ورايته يتحرك كالظل أكثر من مرة ، فلما اقترب وظهر شكله الخارجى صوبت بالدقة التى أستطيعها وأطلقت لأجرب حظى ، فكان صوت سماء مزير حزين هو اجابة طلقتى ، فلما أسرعت اليه وجدت أننى أصبت ذئبا يبذل قصارى جهده - بالم - ليترخف بعيدا ، فألقت الحيوان المتين العنيد طلقة أخرى فانطرح أرضا .

وجملته فى حقيبتى وسرت نحو ريفقى مائة خطوة فقد كان يمكن فى مكان آخر ، لقد كان الذئب الذى يبدو وكأنه مات - ثقيلًا ، وكانيت حرارة الليل شديدة ، فطرحت حملى وانتظرت حتى يأتينى الصياد النوبى .

وما هي الا ثوان بعد أن طرحت حملي على الأرض حتى تحرك الذئب مرة أخرى وناضل حتى وقف على قدميه لكن طلقة فائقة أخدمته للأبد .

وسرنا الآن بغنيمتنا الكبيرة المكونة من ذئب وواحد من حيوانات ابن آوى ، وعدنا للسفينة حيث تناولنا عشاءنا ، أما بالنسبة للدوق الكبير واشنباخر فقد كمننا في مبنى على شكل قبة في الجانب الآخر من المقابر ، لكنهما لم يحققا - لسوء الحظ - نجاحا .

وفي الثامن من شهر مارس بدأنا في الساعة السابعة صباحا ، فركب معظنا خميرا ، أما أنا وهو يوز ففضلنا أن نجرب ركوب الجمال ، ودرنا حول أسوان ووصلنا سالكين طريقا موجزا - عبر المقابر - الى الصحراء . كانت الوديان والتلال والرمال والصخور والمسيلات تتعاقب تعاقبا بعث فينا البهجة .

وأدى بنا مسيل عميق الى الوادى الضيق للنيل الذى تحفه تلال مختلفة خشنة على جوانبها كتل جرانيتية سوداء ، ومن موقع وقفنا فيه - كيفما اتفق - طالعت عيوننا منظرا رائعا : كتل صخرية داكنة عابسة ، النهر يندفع بسرعة خلال المضائق ، جزيرة فيلة الخضراء ، والبقايا الشامخة لمعابدها ، والى الجنوب يصبح الوادى عريضا وعلى ضفتيه زروع كثيفة . كل هذا تجلى أمامنا في لحظة . اننا فى النوبة ، وبالقرب من الجزيرة تقع قرية نوبية بائسة من أكواخ طينية . انها قرية شلال Sha'lal ، وخرج كل أهل القرية بثيابهم كاملة أو بثيابهم الداخلية - من مساكنهم البائسة .

ومررنا على طول صخور داكنة وأشجار جميز حزينة ونخيل حتى وصلنا لسهل صغير فوجدنا بعض القوارب ، وئمة بعض الجنود النوبيين فى ثيابهم الرسمية يقفون للحراسة ، وكانت ملابسهم بيضاء خالصة ومصممة تصميميا أوربيا . وللوهلة الأولى سعدنا بقربنا من جزيرة فيلة الجميلة التى قدمت لنا نفسها محاطة بكتل صخرية ملونة تنشق من الماء ، وركبنا قاربا كبيرا مرتفعة جوانبه وجدف بنا عدد من النوبيين راحوا يغنون وعبروا بنا للجزيرة .

أما شكل القارب فقديم ربما يعود تصميمه الى أيام كليوباترا - كانت مقصورة القارب بأرائكها الناعمة وستائرهما الحمراء التى تحمى من الشمس قد جعلتنا نضحك من هذا القارب الذى يقوم بدور البارجة النيلية .

وفي غضون دقائق قليلة وصلنا لشاطئ الجزيرة المنحدر وأسرعنا صاعدين المنحدر - بشجيراته الكثيفة - نحو المعبد الجميل .

ومباني المعبد في هذه الجزيرة الجميلة التي كانت معروفة لدى المصريين القدماء باسم بيلاك Pilak - تعد حديثة نسبيًا ، فقد تم تشييدها في ظل البطالة والرومان على نسق التصميمات القديمة ، وقد تم تشييد المراسى الحجرية للسفن في الجزيرة بطريقة تنبئ عن معرفة عملية بطبيعة النهر (عمارة النهر river architecture) - خاصة أن الجزيرة غير بعيدة عن المساقط المائية waterfalls والتيارات المائية العنيفة . ومع أن أبنية المعابد في الجزيرة ذات قيمة غير عالية - على نحو ما ، إلا أن تأثيرها الكلي وصفوف أعمدتها ، ومبانيها ذات الصحن (الباحات المكشوفة) ، وسط بقايا المنازل المتهدمة والنخيل والشجر الأخضر الجميل - كل ذلك حياها جمالا لا يمكن التعبير عنه . فسطوح المعبد ترتفع في تناقض مدهش مع الكتل الصخرية الداكنة التي تحيط في هذا الموضع بالجانب الآخر من مجرى النهر . وفوقنا القبة السماوية الزرقاء في بلاد الجنوب هذه بنورها المتالق الذي يغمر المشهد كله . كل شيء من بقايا العالم القديم لم ينمح تماما - يهوج في النور .

واعية بلاد النوبة - الربة ايزيس Isis - كانت تحظى بقداسة خاصة في هذا المكان . فالمصريون والنوبيون - على سواء - كانوا يضحون على مذبحها ويوقرونها . ويقدم معبدها برسومه المتألقة على الجدران والأعمدة - حتى الآن - فكرة واضحة عن هذه العبادة - بألوان زاهية ! .

وعندما هجرت معابد ايزيس وغمرها النسيان ، شيدت المسيحية الوليدة هنا إحدى أقدم كنائسها وكان البرابرة النوبيون Nubian Ba-abras يزورونها (يحجون لها) بحماسة دينية . أما الآن فإنهم قد هجروا عقدة آبائهم المسيحية وذكرى عقبتهم الأولى التي لم يبق لها أثر إلا في كلمة من كلمات لغتهم وهي كلمة كيراي Kiraye (باليونانية Kyriake) وتعني يوم الأحد .

فالبرابرة (النوبيون) أصبحوا الآن مسلمين بكل ما في الكلمة من معنى ، لكن موطنهم القديم - وجزيرة قبيلة في وسطه - بقي كما هو .

وبعد أن زرنا كل أرجاء المعبد اتجهنا إلى أقصى الطرف الجنوبي للجزيرة عبر بقايا كثير من الجدران والأسوار القديمة .

وفي الطرف الجنوبي للجزيرة ثمة درجات من أحجار داكنة تفضي للنهر ، من بينها منبسطة (حجر منبسطة) يعود للتاريخ المصري القديم ، وثمة حشائش طويلة وشجيرات كثيفة تنمو حول هذا الحجر الداكن .

ويقلب حزين آسف تسلقت - بجهد - آخر حدود المنحدر - وألقيت نظرة على النيل المقدس والوادي العريض وحقول النوبة . لقد وصلنا لآخر نقطة قررناها لرحلتنا في هذه الأنحاء صوب الجنوب .

ميدان السرطان ، حدود النوبة ، والكوكبة الجنوبية Southern Cross ، والقبعة السماوية الزرقاء الصافية - كل أولئك كان يغزينا بالاستمرار جنوبا لكن كان علينا أن نعود متجهين شمالا ، فعدنا واجعت لعبد ايزيس ، وقلوبنا مثقلة حزينة .

تعليقات المترجم على الفصل الرابع

(١) عالم الماني فى الآثار المصرية ، عمل ناظرا لدرسة اللسان المصرى القديم (اللغة الهيروغليفية) التى نشئت سنة ١٨٦٩ والفيت سنة ١٨٧٦ ، وقد تخرج فى هذه المدرسة بعض علماء الآثار منهم أحمد كمال باشا ، وقد أثرى برجش باشا هذه الرحلة بترجمة كثير من النصوص الأثرية المهمة .

عبد الرحمن الراغى : عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(٢) نجد فى كتاب وصف مصر الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية دراسة مفصلة عن الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين ، وفيما يلى موجز لهذه الآلات كما وردت فى الترجمة العربية التى قام عليها الأستاذ زهير الشايب (ج ٩) .

- العود :

قدم بعض علماء الحملة الفرنسية دراسة تفصيلية عنه ذات طابع تاريخى وبقى ، ورغم الاختلاف فى التفاصيل فلا نجدها تختلف عن الآلة المعروفة بيننا الآن بهذا الاسم ذاته راجع التفاصيل فى ترجمة زهير الشايب ج ٩ (صص ١٥ - ٤٠) .

- الطنبور التركى الكبير :

يطلق اسم الطنبور على آلة موسيقية تشبه الماندولين فى أوربا ، وأوتار الطنبور معدنية ولها ملامس ثابتة تتكون من ثقب عدة ويستخدم العازفون عليها ريشة عزف من قطعة خشب ملساء أو ريشة نسر جافة - (ص ٤٢) .

- الطنبور الشرقى :

وصلت هذه الآلة لمصر - غالبا - من آسيا ، وربما من فارس بالتحديد وهو يشبه الكمثرى ويميل الى التسطح بعض الشيء ، وبها ٢١ ملمسا ، وخمسة أوتار ثلاثة منها من النحاس الأصفر واثنان من الصلب (صص ٦٣-٧٢) .

- الطنبور البلغارى وهى بالتمام الماندولين البلغارى ، وهى آلة تغطى بكثير من الزخارف ، وهو أصغر حجما من الطنبور التركى الكبير ، والطنبور الشرقى ، وله ١٢ ملمسا من أوتار معى الحيوان ، ولها ثلاثة أوتار من الصلب ووتر من النحاس - (صص ٧٥ - ٧٧) .

- طنبور البزرك (يفتح الباء والراء) :

وكلمة بزرك تعنى بالفارسية الكبير ، لذا فهذه الآلة بمثابة ماندولين كبير فارسى ، وهى أكثر تعقيدا من الطنبور الشرقى وأكثر بساطة من الطنبور التركى الكبير ، وله ستة أوتار (عصافير) وستة أوتار وسبعة وثلاثون ملمسا وهو يشبه نصف ثمرة الكمثرى (ص ٨١) .

رحلة - ج ٢ - ٤٩

• طنبور البغلمة (بفتح الباء) وهو مصغر الطنبور البرزك (ص ٧٩١) •

• الكمنجة الرومى (اليونانى) ، وهى الكمان المعروفة **Violon** .

• القانون •

• السنطير (وتكتب بالصاد أيضا) ، وهى آلة يشيع استخدامها بين المسيحيين واليهود ، ويتكون من صندوق مسطح مصنوع من الخشب على شكل معين وله جانبان مائلان وله وتران من معدن ينقران بعصاتين صغيرتين من الخشب . (ص ص ١٤٢ - ١٤٣) •

• الكمنجة العجوز ، والكمنجة الفرخ أو الصغيرة - (ص ص ١٥٠ - ١٧٧) •

• ربابة الشاعر (بوتر واحد) وريابة المغنى (بوترين) (ص ١٨٢) •

• الكيمصار (القيثارة الأثيوبية) ، وهى منتشرة بين الأثيوبيين والنوبيين الذين يعملون كيوابين وحراس للمحال • وتسمى وحيانا جيزركة فى النوبة (ص ص ١٩٥ - ٢٢٠) •

• المزمار المصرى (ص ص ٢٢٥ - ٢٤٧) •

• البوق (أو النفير) ص ص (٢٦٢ - ٢٧٥) •

• الناي المصرى ذو المنقار (شبابة) (ص ص ٢٧٥ - ٢٨٠) •

• مزامير القرب - (ص ٢٢٦) •

• آلات الايقاع الصاخبة ، وسنطيل العرض فى هذه الفقرة من الحاشية لأن الآلات

المذكورة هنا هى التى أشار إليها الأمير عند زيارته لفرق الدراويش أو الطرق الصوفية ، الصلاصل أو الجلاجل أو الصنوج والضارب على الصنوج يسمونه (صناج) • وتستخدم الراقصات المصريات الكاسات والمفرد كاس وتسمى أيضا الصلجات ، وهناك الدفوف وهى على أنواع منها الطار والرق ، وثمة سبعة أنواع من الطبول يهمننا منها طبلة المسحر وطبلة المشيخ وتسمى طبلة المسحر باسم الباز ويتم الضرب عليها بعضى صغيرة من الخشب ويسعى كثير من الطرق الصوفية (طوائف الفقرا) الى تنظيم حركاتهم ورقصاتهم أو أتكارهم على صوت هذه الآلة ، وهو ما تفعله على سبيل المثال طرق الملاوية (نسبة الى جلال الدين الملاوى من ملاو بالمغرب) والشبناوية (طريقة أجمد البديوى) والعلاوية (يضرّبون أنفسهم بالسكاكين والأحجار فى مناسبات بعينها) والبرهامية (طريقة ابراهيم الدسوقى) والسعدية (نسبة الى سعد الدين الشيباوى من العراق) والخلوئية (اسمها أبو اليزيد البرهامى) الخ •

(٢) لا يختلف رأى ريدلف فى الراقصات المصريات عن رأى علماء الحملة الفرنسية ، يقول فيوتو أحد علماء الحملة . « انهن يقمن بالغناء بمصاحبة نوع من الدفوف تسمى بالعربية : طار أو دريكة والراقصات العموميات يسمون بالخوازي ، ويظهرن فى الأماكن المطروقة كثيرا ورقصاتهن لا تقدم بهوى، مشاهد مثيرة للغاية ومن العسير أن نصف هذا النوع من الرقص، بلغتنا فى دقة فلا أحد يستطيع أن يتخيل مدى غش حركاته ، ويعبر هذا الرقص الذى لا تكاد تسهم فيه سوى القدمين وأعلى الجسم بكثير التبدلات جسارة - عن الأنفعالات الجامحة التى يمكن أن تحدثها الشهوة فى النفس ، والأفعال التى يمكن أن تؤدى الى تصاعد عاطفة شذقة ودغدغة بالغة القوة لبرغبة حسية ملحة وتكاد تحاكي تشنجات الوصال وتمثل كل ما فى الخلاعة من عهر انه

بمثابة تمثيل صامت خليج ٠٠ ويصاحب الرقص رنات الأجراس النوبية ٠٠ وتمسك
الراقصات بالصنّاج بين أصابعهن ٠٠٠ ،

وصف مصر ج ٨ ص ١٥٥ - ١٥٨ .

(٤) تشير كتب التاريخ القديم المتداولة الى أن سيزوستريس هو سنوسرت الثالث ، من الأسرة ١٢ ، وأنه أمن حدود مصر الجنوبية حتى ما وراء الجندل الناني وأسس لذلك قلعتى سمنا وقمنة ، وأنه طهر مجرى النيل الى منطقة الجندل الأول لئيسر إبحار السفن وأنه وصل النيل بالبحر الأحمر بقناة عرفت باسمه « قناة سنوسرت » وأسماها اليونانيون قناة سيزوستريس وهم أسم سنوسرت باليونانية .

(٥) يقول دى بوا أحد علماء الصملة الفرنسية بصدد حديثه عن القصير وما حولها : « ٠٠٠ ولا يزال يعيش فى هذه المنطقة (الصحراء الشرقية) شعب يستحق - بسبب تشابهه مع سكان الكهوف القدامى - أن ندخل فى بعض التفاصيل عن عاداته وتقاليده ، ونقصد بهذه المجموعة البشرية : العباددة ، وهم أبناء قبيلة جواية تشغل الجبال الواقعة الى الشرق من النيل ، فى جنوب وادى القصير وهى منطقة كانت تعرف فيما مضى باسم « سكان الكهوف » Troglody tique . وتمتلك هذه القبيلة كذلك عدة قرى على الشط الأيمن (الشرقى) للنيل أهمها دراو ، والشيخ عامر ، والرديسية . ويدفع كل التجار الذين يمارسون تجارة القصير الى العباددة مبلغ ٢٢ مدينى عن الجمل المحمل ومكيالا صغيراً (٢٤/١ من الأردب) من القمح أو الفول أو البقيق أو الشعير - حسبما يحمل الجمل - كما يأخذ العباددة عينا ٢٠/١ من الخراف والماعز والدجاج والمواد التمويئية الأخرى من تلك الأنواع التى تصل الى القصير . وقد أقام هؤلاء مخيمهم الذى نصبوه فى ضواحي هذه المدينة (القصير) بقصد منع أى نوع من التهريب من الاتاوة ، وكان العباددة ملزمين فى مقابل هذا بالسهر على تأمين الطريق وحماية القوافل ، ولكنهم لا يتعهدون مطلقاً بالرد على الحوادث وبخاصة تلك التى يمكن أن تاتى من جانب عربان الحويطات الذين ينتشرون فى هذه الصحراوات حتى قلزم السويس ، وتدور بين هاتين القبيلتين (العباددة والحويطات) حرب مستمرة منذ زمان لا تحيه الذاكرة .

وفى وقت معين عندما يشكل القمح والمواد الغذائية الأخرى التى يقدمها التجار أكواما هائلة وسط المخيم ، يكثر عدد العباددة الذين يجتمعون لتقسيمها بينهم ولا يخلو الأمر من مشاحنات .

وعدد الخيول لديهم قليل ، فهم لا يركبون الا الهجين ٠٠٠ ولا تشبه سروجهم السروج المستخدمة فى مصر إذ تتكون من قطع مختلفة من الخشب مربوطة بسبور من جلد ٠٠٠ وفى العادة يبسط فوقه فرور خروف ٠٠ ومن فوق هذه السروج لا تتدلى ساقا الراكب كما يحدث للفارس المتطى حصاناً ، ولكنه يكون جالسا وساقاه ممتدتان للأمام ؛ تستقران أو تتشايكان فوق رقبة الحصان . ويربى العباددة عدداً هائلاً من الجمال ٠٠٠ والعباددة مسلمون ، ولكن البلاد التى يقطنونها والحياة النشطة التى يحيونها على الدوام لا تمكنهم من اتباع كل مبادئ الإسلام بدقة وإخلاص ٠٠٠ ويتباهى العباددة بأنهم شعب محارب ، فإذا سألت أى واحد منهم عن نفسه بأدب قائلاً : أنا جندى ٠٠٠ ويزعمون أنه يمكنهم تجهيز ألفى رجل رجل تحت أسلح وقد يكون فى هذا مبالغة .

٠٠٠ ويختلف العباددة اختلافاً تاماً فى تقاليدهم ولهجتهم وعاداتهم وبنيتهم عن القبائل العربية التى تشغل - مثلهم الصحراوات التى تحيط بمصر ، فالعربان بيض البشرة

يخلقون رؤوسهم ويرتدون العمامة ولديهم أسلحة نارية ورماح يبلغ طول الواحد منها من أربعة الى خمسة امتار وسيوف مقوسة ٠٠٠ أما العبايدة فسود البشرة لكن ملامحهم تتشابه كثيرا مع ملامح الأوربيين وشعرهم جعد بشكل طبيعي لكنه ليس كوبر الصوف وهم يحتفظون به طويلا يتدلى على اكتافهم اذ هم لا يلقون رؤوسهم مطلقا ، (لم يشر الى قسط الختسب فى رؤوسهم كما تصدت ريدولف ، ولعل ريدولف رأى طائفة منهم على هذا النحو) وتنحصر ملابسهم فى قطعة من القماش يعقدونها اعلى الكليتين ولا تتدلى لأبعد من منتصف الفخذين ٠٠٠ ويدهنون أجسامهم بالدهون ويضعون كمية منه فوق رؤوسهم ٠٠ وشيوخهم هم وحدهم الذين يرتدون العمامة فى بعض الأحيان بالاضافة الى قميص يستخدمونه أحيانا بمثابة ثوب ٠ وليست لدى العبايدة أسلحة نارية على الإطلاق ، ويتسلح الرجل منهم برمحين يبلغ طول الواحد منهما ١٦٠ الى ١٨٠ سم وبسيف مستقيم ذى حدين ويسكن مقوسة يطقها الواحد منهم فى ذراعه اليسرى ويحمل ترسا مستديرة من جلد الفيل يبلغ قطرها ما بين ٦٠ و ٧٠ سم - ويعرف العبايدة اللغة العربية بالاضافة الى لغتهم الخاصة ، وربما كان العبايدة منحدرين من أصلاب تلك الشعوب الجواللة التي كانت تمتلك هذه المناطق فى الزمن القديم والتي حيننا عنها المؤلفون القدامى مثل استرابون ودويودور الصقلى (هذا الاستثناء يناقض ما ذكره ريدولف ونكر أنه سمعه منهم رتو انهم كوشيون من أصول آسيوية) فالصفات التي ذكرها المؤلفون القدامى تنطبق عليهم ، فقد وصفهم بانهم سكان الكهوف وانهم كانوا يحملون من السلاح دروعا مستديرة من الجلد ورمحا وكانوا عراة فيما عدا منطقة الفخذين والكليتين ، كما كانوا يمارسون الختان . وأخيرا فقد كانت لهم طريقة لدفن الموتى خاصة بهم ، فقد كانوا يلقون الجارح فرق الجثة حتى تغطيتها بشكل تام ، ولأزال العبايدة حتى اليوم يمارسون الطريقة نفسها فى الدفن ٠٠ وقد لفت البعض نظرى فى وادى القصير الى أكوام عديدة من الحجارة كانت هى مقابر لبعض العبايدة الذين قتلوا فى المعارك ، ورأيت أيضا فى منتصف الطريق - على بعد ثلاثة فراسخ من القصير - تلالا من الحجارة ، وقيل لى انه من المحتمل ان هذه الأحجار تغطى جثة أحد أثرياء التجار قتله العريان ٠٠٠٠ ولم نشاهد أية خيمة فى معسكر العبايدة بالقرب من القصير . ففى أثناء النهار عندما تلتهب حرارة الشمس يضع الرجل منهم مرج جملة ويقوم تجاهه على مسافة معينة حجرا يعاقل السرج - فى الارتفاع ثم يضع على هاتين الدعامتين سيفه ورماحه ثم يبسط فوق ذلك كله جلد خروف ٠ وهكذا ينهض البيت الذى قلما يبلغ ارتفاعه فى الواقع أكثر من أربعة أو خمسة ديسيمترات ، ولا يستطيع الرجل بداخله الا أن يكون راقدا ، ويحتمى آخرون من الشمس فى كهوف صغيرة كانوا قد حفروها على منحدر الجبل ، ولم أشاهد فى هذا المعسكر نساء على الإطلاق ، ومن المحتمل - الى حد كبير - ان تكون الأكواخ والخيام فى المعسكرات التي توجد بها النساء أكثر من تلك اتساعا ٠٠٠٠ وليس للرقص عند العبايدة اية علاقة بذلك الرقص الشهوانى الخليع لدى المصريين ، فهو يتخذ على الدوام صورة المعارك والمبازرات ، فيتسلح الراقصون بالرماح والدروع ويخطون وهم يتبادلون الهجوم خطوات عديدة بخفة وقوة وتتجلى المهارة فى الدفاع عن الدرع وتحل الهزيمة بمن يترك درعه تلمس ٠ وفى كثير من الأحيان يندفع أحد الراقصين نحو واحد من المشاهدين ويضع طرف سيفه على صدره مطلقا صيحة عالية ينبغى أن يجيب عليها بكلمة : عبايدة ! وعندئذ يتعد الراقص عنه ويواصل رقصه ٠٠٠٠ .

(٦) عن البرك التي يتحدث عنها ردولف في هذا الموضوع وفي مواضع أخرى ، يورد علماء الحملة الفرنسية أن نظام الري المصرى القائم على الغمر اثناء الفيضان ، وعلى التحكم فى توزيع مياهه - أى الفيضان - من خلال سلسلة من الجسور الترابية ، يؤدي الى تكريين سلسلة من البرك مع انحدار النهر ، وبعد انحسار مياه الفيضان تظل بعض هذه البرك أو التجمعات المائية فى الأماكن الأكثر انخفاضاً أو فى الأماكن ذات التربة غير المسامية التي لا تسمح بتسرب المياه .

انظر تفصيل ذلك فى دراسة ب.س. جيرار فى كتاب وصف مصر الاتف ذكره .
ترجمة زهير الشايب ج ٤ ص ١٥ .

(٧) الكاب الحالية بالقرب من انقو بمحافظة قنا ، واسمها القديم نخب ، وكانت عاصمة لمملكة الوجه القبلى أو مملكة الجذب قبل أن يوحد مينا (نارمر أو نعرمر) مصر فى مملكة واحدة وكان شعارها زهرة اللوتس ، ولون تاج ملكها أبيض .

الفصل الخامس

من فيله الى أسيوط - نظرة على أسوان - النوبيون -
ارتظام بفاع النيل - كوم الأمير - الكاب - كلاب مصر -
أرمنت - الوصصول للأقصر - مقابر الملوك - نقوش
يقرؤها برجش - قنا - سوهاج - الى أسيوط - ركوب
القطار من أسيوط - الوصول للبدرشين - منف وحديث
أثرى - عن الأهرامات وأبي الهول - خلاف مع أغا
(طواشى) فظ - وعدنا للقاهرة الجميلة - رسوم الفنان
يوسنجر - تعليقات المترجم *

تناولنا افطارنا - الذى جلبناه معنا - فى أحد الأجنحة القديمة
للمعبد الذى كان لا يزال محتفظا برونقه القديم ، ويقع جناح المعبد هذا على
جسر مرتفع ، وثمة شرفة أمامه ترتفع شامخة الى أعلى من مستوى النهر
ذى الأمواج التى تخللها الزبد *

لقد استمتعنا بالقاء نظرة من أعلى على جمال فائق غير مألوف ،
وذلك من خلال بوابة إحدى القاعات ذات الأعمدة * ان الصحراء تنشد
أشعارا رائعة لا يمكن وصف روعتها ، ويشع عقب التاريخ من بقايا مضت
عليها عصور سحيقة من جزيرة ذات خضرة بهية تقبع وسط الجرى
المقدس * ان فيلة صورة لا يمكن أن تنسى وانما تقبع للأبد - كبقعة نور -
فى الذاكرة *

لقد هبطنا من المعبد الى الشاطئ واتخذنا سبيلنا فى النهر تجاه
الجنادل فى قارب قديم طرازه ، وصصفناه لتونا * وظللنا لفترة نتأمل
الجزيرة الصخرية والجرائيت الأسود والنباتات المزهرة ، والمعبد الشامخ ،
وغنى المجدفون ذرو البشرة الداكنة أغاني حزينة تشكل تكاملا هارمونيا
مع عظمة المنظر المثير للعاطفة *

وقبل أن نصل بالفجل للجنادل التى تقسم النهر الى مجار متعددة
رسونا بقاربنا وسرنا على طول الشاطئ الصخرى حتى وصلنا لبقعة
يمكننا منها أن نلقى نظرة على الصخور الشامخة والمياه المتلاطمة أمواجها ،
ولا تسبب هذه الجنادل شلالات وانما منحدرات تتسبب فى تدفق المياه
تدفقا سريعا rapids * ان آلاف الجزر الصخرية الصغيرة والجروف

Cliffs والحيود riffs . تملأ مجرى النهر لأكثر من كيلو متر ، ويبدو النهر - وكل ذلك يعترض طريقه - يرغى ويزبد ويزأر وهو يشق طريقه ، انه بلا شك منظر مهيب يزيد من جماله ذلك اللون الأسود وأشكال الحيود والمخاضات بين الصخور التي ترتفع بين المياه ذات الزبد الأبيض ، انه لأمر شائق أيضا أن ترى النيل الوديع الهادئ قد تحول في هذه المنطقة من المجرى الى نهر جبلي عنيف .

النوبيون :

وفي اللحظة التي وصلنا فيها الى أفضل نقطة تمكننا من رؤية المشهد ، ظهر عدد من النوبيين العراة وقفزوا بين الأمواج متجنبين الصخور والقوا بأنفسهم بين أكثر الأمواج صخبا وأشد التيارات سرعة . وفي ثوان قليلة وصلوا للشاطئ وكانهم سهام انطلقت من أقواسها ، ثم زحفوا خارجين من الماء ليصلوا الينا طالبين البقشيش وهم يقطرون ماء وقد أحدثوا جلبة وصخبا . وعدنا للقارب وجدفنا مسافة قصيرة صاعدين في النهر ثم ركبنا الحدير التي كانت في انتظارنا وعدنا الى أسوان من الطريق نفسه الذي قدمنا منه صباحا .

استغرقت الرحلة طوال النهار ، ولم نصل الى باخرتنا الا قبيل الغروب فتناولنا غداءنا ، وبعد ذلك ذهبنا أنا وهويوز Hoyos - مرة أخرى - عند الشفق عند مواضع القنص التي كنا فيها البارحة . وقد اضطرنا مساعد الصييد التابع لي لذلك لأننا عندما كنا في فيله استنتج وجود ضياع - عند ملاحظته لآثارها حول بقايا بعض الجيف .

كان الليل لطيفا واقترحت الا نطلق النار على أية طريدة اقل من ضياع . فلننتظر اذن حتى تظهر الضياع حتى لو قضينا شطرا طويلا من الليل . وظهرت بعض حيوانات ابن أوى فتركناها تمر بلا ازعاج منا وبينما كان منتصف الليل يزحف مقتربا - وكنت أخوض معركة شرسة مقاوما النوم - رأيت بفضل نور القمر الساطع بعض البشر يزحفون غير بعيد عن مكمنى ، وسرعان ما سمعت بعد ذلك عدة طلقات قوفاة (بفتح القاف وتسكين الواو) النجاج - ذلك الصوت المألوف . لقد وقعت دجاجات في شرك هؤلاء البشر الزاحفين .

والآن لقد أخذت هذه البضجة بما يتطلبه قنص الضياع من هدوء وسكون كاملين . وبدلا من أن أضيع وقتى هباء رجعت الى مقر اقامتى وقابلت المترجم بولووتش Paulowich لقاء عاجزا ، وكان لنبوء الحظ مع البارون سكيندورف Seckendorf . في البقعة نفسنها التي كنت فيها .

وكان هويوز Hoyos قد قتل ابن أوى وجرح آخر فى مكانه القريب من المدينة ، كما أن كلا من اللوق الكبير ، وايشسنباشر Eschenbacher قد أحاطت بهما حيوانات ابن أوى وهى تعوى .
وحدث هذا فى الوقت نفسه ، فاضطر كل واحد منهما للانطراح أرضاً بشكل غير ملائم لاطلاق النار . وبينما كنت عائداً فى منتصف الليل تمكنت من القاء نظرة على مدينة أسوان ، ونهر النيل وجزيرة فيله . انه منظر رائع فى حاجة الى ريشة فنان ، لقله بدا المنظر - فى فيض نور القمر المتألق السحري - لا ينسى .

ارتظام فى قاع النيل :

وفى الساعة الثامنة صباح اليوم التاسع من شهر مارس غادرت السفينة البخارية أسوان . ان هذه المدينة الواقعة وسط أفريقيا ، والمتسمة بالبهجة تستحق اهتماما كاملا من الناحية الانوجرافية ، لقد انطلقت باخرتنا فى النيل بأقصى سرعة ورأينا مناظر أضحت معروفة لنا ، ومر الوقت سريعا وانتهزنا فرصة رحلة العودة هذه لترتيب ما جمعناه من ملاحظات ، وفى الظهر جلسنا فى القمرة (الكابينة) وتوقفت السفينة فجأة وبعثف ، ولم نستوعب كيف أن سفينة بخارية كبيرة يرتطم قاعها فى طمى قاع النهر . لقد ارتطمت سفينتنا بقاع النهر ونحن نبحر فى وسط المجرى صعدا . وكنا قد تحاشينا الإبحار قرب الشاطئ لأن كل البواخر النيلية تجنح عند رمال الشاطئ - وعلى أية حال فان ارتظام سفينتنا فى المرات السابقة لم يكن بالحلة نفسها التى كان عليها الارتظام هذه المرة نظرا لأننا كنا فى طريق العودة حيث ينحدر النهر من الجنوب للشمال .

وأعلن ربان السفينة العجوز أن الأمر يتطلب ساعتين على الأقل لتطفو السفينة من جديد . لذا فقد انتقلنا للشاطئ عند بقعة تسمى كوم الأمير Kom el-Emir حيث تقترب الجبال العالية الصخرية من المجرى وتنحدر عليه انحدارا حادا ، لكن شريطا ضيقا جميلا من الأرض المزروعة جعل للمكان روحا كروح السهول .

وتفرق جمعنا فى مختلف الاتجاهات يتريضون ، وقد حاولت - فى البداية - أن أزحف صاعدا الصخور الجرداء لأصل الى بعض الطيور الجارحة لكننى لم أفلح ، لذا فقد فضلت أن أمارس الصيد بين أشجار السهل وعلى شاطئ النهر . لقد اصطدت خلال هذه الرحلة القصيرة يمامة صغيرة كانت ألوانها مدهشة ، انها حقا من طيور وسط أفريقيا ،

وكانت فى حجم القنبرة ، ولها ذيل طويل • يالها من مخلوق مدارى .
جسناداب ! •

وبينما كنت أبحث على الشاطئ الرملى عن الطيور لاحظت أن سفينتنا البخارية أصبحت جاهزة لمتابعة الرحلة بعد ساعتين من محاولات تعويمها ، فركبنا قواربنا وجدفنا عائدين وتابعنا الرحلة التى قطعناها هذه النزهة الباعثة على السرور •

السكاب :

وفى المساء - بعد غروب الشمس - رست سفينتنا عند الكاب El-Kab (١) على الشاطئ الشرقى • ويفصل - هنا - شريط ضيق من الأرض المزروعة بين النهر من ناحية والصحراء وما يليها من جبال عالية من ناحية أخرى ، وحالما وصلنا قررنا أن ننتهز الليل الذى يغمره ضوء القمر لصيد الحيوانات المفترسة فتفرقنا فى مختلف الاتجاهات لاختيار مراكز اقامتنا •

فسرت ومعنى بوسنجر Pausinger ومعنا الفلاحون عبر الحقول وتجاوزنا قرية بائسة حتى وصلنا للصحراء • وراينا بقايا مدينة نخبت Nechebt المصرية القديمة (يسميها اليونانيون ايليثيا Eilethya) ، وان كان المنظر ضبابيا غير واضح • ويشمخ مبنى متين خارج السور من طوب لبن فوق كل شئ ويشير بوضوح الى أنه بقايا قلعة ذات شأن • ويوجد هنا أيضا على افريز الجبل (الافريز هنا هو ما نتأ من الجبل) بعض القبور الحجرية • وقبر حجرى أسسه بطلميوس يورجيتس Ptolemy Euergets وعلى البعد يوجد حرم (معبد) أمنحتب الثالث وهو مخصص للالهة نخبت Nechebt .

والصحراء فى هذا الجزء مشبعة بكربونات الصوديوم ، وفى كل خطوة يسمع المرء صوت طقطقات القشرة الأرضية • لقد ذهبنا بالقرب من سفح الجبل واختباننا بين صخرتين كبيرتين ، وربطنا عنزا صغيرا راح يشغو أمامنا على عهد خطوات قليلة • وما كادت تنقضى ربع ساعة حتى ظهر بدوى ملتف بعباءة بيضاء راكبا جملا ويغنى أغاني حزينة ، وبدا هذا الراكب الغريب مثيرا للدهشة فى هذه الصحراء الخالية • وظهر أن الماعز الذى يشغو قد لفت نظر البدوى ، فتوقف وتطلع حوله وراح يجرى حوارا مع نفسه بصوت يكاد يكون مسموعا ، ثم استمر فى طريقه دون أن يكتشف مكننا •

ولما عم الهدوء مرة أخرى سمعت حفيف حيوان يزحف ، وأصدر الماعز ما يشبه الأنين وقفز عاليا خوفاً وفزعاً ، وعقب ذلك مباشرة رأيت جسداً أسود أكبر من الكلب يقترب من الشرك (العنز) ، فصوبت بإحكام وأطلقت النار ، وأسرعت إلى حيث الطريدة ولكنني لم أجد شيئاً خلا آثار زحفها إلى الجبل ، فاعترائني غيظ وخيبة أمل من جراء ذلك لكنني حلست أنني أصبت ضبعاً قعدنا إلى سفينتنا البخارية ، وطلبت من مساعد الصيد التابع لي أن يعود فجر اليوم التالي ليتتبع آثار الحيوان الجريح .

ولما عدنا للباخرة كان سائر أفراد المجموعة قد سبقونا بالعودة . وكان المدوق الكبير قد رأى حيوانات ابن آوى لكنه لم يصب - لسوء الحظ - أي منها أما هويوز Hoyos فقد حالفه الحظ فأصاب أحدها .

وفي العاشر من الشهر ارتفعت الشمس في كبد السماء قبل أن أستيقظ وأبحرت بنا السفينة هابطة في النهر لأكثر من ساعة ، وسألت عن مساعد الصيد التابع لي فعلمت أنه وجد الحيوان الجريح على بعد مئات قليلة من الخطوات من موضع إصابته ، لكن - وبالأسف - أنه لم يكن ضبعاً وإنما كان أحد كلاب القرية ، والكلاب في مصر تكاد تكون متوحشة ، فالكلاب في مصر تتجول طوال الليل حول المدن باحثة عن فرائس ، كما رأى مساعد الصيد التابع لي وشقا lynx ضحماً حجمه ، على بعد خطوات قليلة منه سرعان ما اختبأ في ثقب في جدار الكاب El-Kâb العتيق .

كسلا ب مصر :

وليسمح لي القارئ أن أذكر في كلمات قليلة فكرة عن الكلاب في مصر . لقد أجريت ملاحظات استطلاعية خلصت منها إلى أن كلب القرية the village dog والولف الأفريقي African Wolf (Cains lupaster) وأبو الحسين Abu el-Hossein أو (الديب) كما يسميه العرب وابن آوى Canis aureus والثعلب المصري والواوي Wauï السبوري - كلها قد اختلطت معاً فنتجت عنها سلالة مختلطة (*) .

فلم يحدث أن أصيبنا اثنين من حيوانات ابن آوى ولا اثنين من الذئاب (الولف) إلا ووجدنا بينها تشابهاً تاماً ، سواء في الحجم أو اللون .

(*) عن مدى صحة ذلك لا بد من الرجوع لعلماء الحيوان ، فما ينكره - غير صحيح - فيما يبدو - (المترجم) .

وفي فلسطين نجد أن هذا الاختلاف أكثر وضوحاً . وبشكل عام فإن حيوان ابن آوى الآسيوى أضخم من حيوان ابن آوى فى شمال إفريقيا ، إلا أنهما متشابهان ، وقد اقتنصت أحده هذه الحيوانات لا يمكن مقارنته بالنماذج السابقة سواء فى الحجم أو اللون بل ولا يمكن وصف هذا المخلوق غير العادى بأنه ذئب .

وعلى أية حال ، فإن كلاب الشرق تحمل غالباً دلائل تشير لأصلها المتوحش وهذا لا يثير الدهشة عندما يتذكر الانسان أنها حيوانات غير مروضة لا صاحب لها . وتظل تجوس طوال الليل من الغسق الى طلوع الفجر مع الذئاب وحيوانات ابن آوى ، فى المناطق المحيطة بالمدن والقرى .

بل اننى أود أن أذهب لأبعد من هذا وهو أنه فى هذه الأثناء من أفريقيا وآسيا حيث الكلاب والذئاب وحيوانات ابن آوى تقطن منطقة محدودة وان ابن آوى الخالص (غير المخلط) لا وجود له فى الواقع (*) . أما الكلاب والذئاب فأجناس حافظت على نوعها بطريقة أفضل أما ابن آوى *Canis aureus* كما ورد فى الكتب العلمية فقد بحث عنه عبثاً فلم أجده كجنس أو سلالة محددة .

دعنا الآن نعد لمغامرات رحلتنا . لقد تابعت السفينة مسيرها حتى الساعة العاشرة صباحاً حتى توقفت فى الدبابيه *Dabbabieh* عند شاطئ رملى ، ورأيت على مكان مرتفع نسراً ضخماً ، وعندما رسونا وجدنا الفلاحين الذين كانوا ينفذون أوامرنا حرقياً .

وأقاموا كوخاً صغيراً من البوص ، وقد أظهرت عظام الخراف والكلاب أن النسور قد تناولت وجبتها اليومية ، وقد وجدنا صعوبة كبيرة فى إبعاد الفلاحين المحبين للاستطلاع عنا ، فقد كانوا راغبين فى موافقتنا لأنهم كانوا فخورين بما أنجزوه فى سبيل مساعدتنا .

وسرعان ما ظهرت بعض نسور الجيف وتبعتها ثلاثة نسور ، لون رموسها مختلف عن لون سائر أجسامها *hooded vultures* ، وهذا النوع الأفريقى من النسور متوسط الحجم أسود ورأسه صلعاء . لم يحدث أن رأيت أبداً هذا الطائر البشع منظره قبل ذلك ، فأمرت - لذلك - بإطلاق النار ليكون لدى واحد من هذه الطيور . وأسرع الفلاحون قادمين من كل ناحية بمجرد سماع طلقتى وراحوا ينظرون لصيلى باستغراب وراحوا يخيرون جلبه وضخبا بطلب البقشيش

(*) لا ادري مدى صحة ذلك ، والامر متروك للمتخصصين - (المترجم) .

لقد كان النسر الكبير يحوم دائريا فوق وعوسنا ، وكانت اللحظة مناسبة لتابعته وكان يمكننا أن نحقق نجاحا كبيرا ، ومع هذا فقد كنا مضطرين للتراجع بقدر ما نستطيع لنحتمي أنفسنا من الناس فقد وصل عدد آخر من الفلاحين من كل اتجاه ، فاستدعينا سفينتنا البخارية الى الشاطئ وواصلنا رحلتنا .

أرمنت :

وفي أرمنت Erment التي وصلناها بعد الظهر كان علينا أن نبقى لبعض الوقت لنحمل معنا قطعة الجرانيت الشهيرة ، وخلال هذه الفترة اليسيرة نجحت في اصطياد ست وأربعين حمامة من حمامات الحقول كانت تعبر النهر من جانب الى آخر مارة فوق سفينتنا .

وسرعان ما تابعنا رحلتنا فوصلنا الأقصر مرة أخرى عند الغروب ، وبمجرد أن لمست سفينتنا مرساها أسفل الفندق حتى ظهر خليل ومعه بعض الحمير ، فركب بعض أفراد جماعتنا بأقصى سرعة واتخذنا سبيلنا الى طريق الكرنك الشهير لنكمن للضباع في عدة مكامن .

واتخذت لنفسى موقعا بجانب إحدى البرك pond (٢) القديمة أستمتع بجمال الماء ، ورحت أشد ريش البجاجة الحية التي كنت قد أحضرتها معى - بين الحين والآخر - عسى أن يجذب صياحها الحيوانات المتوحشة . ولسوء الحظ ، قبلا من أن تجذب حيوانات ابن آوى ، ظهر بعض الرجال الانجليز فنظروا الى بدهشة ، وسرعان ما واصلوا طريقهم مبتعدين .

ولما عم الظلام ، انقض طائر ضخم على البركة Pond كالشبح ، فأطلقت عليه النار فوجدته طائر مالك الحزين (البلشون) وقد تمدد ميتا على الشاطئ . وبعد ذلك غادرت مكاني وركبت عائدا الى الأقصر فوجدت أن رفاق الرحلة قد عادوا دون أن يصيدوا شيئا .

مقابر الملوك :

وفي بكرور صباح اليوم التالى جدينا الى الشاطئ الغربى (تعليق المترجم : يسمى الأرشيدوق الشاطيء الغربى للنيل باسم الشاطيء الليبى Libyan shore) ، لزيارة مقابر الملوك . ركبتنا البغال ، وفى بداية الطريق عبرنا سهلا خصبا ، وكان الفلاحون يعملون فى حقولهم بهمة بينما كانت نسور الجيف تتعلق بكثرة حول الآكواخ الطينية المتناثرة ، بينما ترعى الجمال والماعز - ذوات الآذان الطويلة - والجواميس والحمير

والأغنام كلا اعترته صفرة . وكان الطريق يمر بنا بين بعض البرك ظل الماء باقيا فيها منذ أيام الفيضان وعبرنا ترعة ضحلة بها رمال الى قرية صغيرة فقيرة ، تشكل نخيلها وأشجارها الحد الفاصل بين الأراضى المزروعة والصحراء ، وسرعان ما وصلنا لسفح الجبال الشامخة لينتهى الوادى عند منحدرات جبلية حادة ، وأصبحت المنحدرات الصخرية أمامنا مباشرة . ويؤدى ممر خاص الى الأسفل الى مقابر الملوك ، وقد اختار رفاق الرحلة أن يسلكوا هذا الطريق .

فكان من رأيي أنا والدوق الكبير أن نصل الى مقابر الملوك بأن نسلك طريقا قصيرا عبر الجبل ، وبالفعل فقد استعنا بهرشله عربى معروف بأنه رياضى ممتاز وتسلفنا بعض التلال الرملية التى اختلطت بها أحجار مكسرة ، ثم هبطنا من الناحية الأخرى .

وكان الممر الضيق يلف مرتفعا على طول المنحدرات الصخرية بين كتل وجلاميد صخرية ، والى اليمين واليسار كنا نرى ما لا يحصى من القبور والكهوف الجنائزية *funerat caves* فالمنحدرات الدنيا لكل خط الجبال الى الغرب من طيبة القديمة بها تجويفات عميقة فتجويفات أعمق فأعجمق وهكذا ، واتخذت هذه التجويفات مقابر على مدى القرون .

وقد خرج ذئب من بين هذه القبور وانسل صاعدا المنحدرات ولسوء الحظ فان المسافة كانت بعيدة لا تمكننى من اطلاق النار عليه بطلقة صغيرة ، اننا الآن فى طريقنا لتسلق الجبل صاعدين ممرات مختلفة أملين أن نتمكن من اطلاق النار عليه .

وسرعان ما وصلنا للقمة فتجلى أمامنا منظر جميل فى وادى النيل الأخضر متمثلا فى مدينة الأقصر وآثار الكرنك ، وفى الناحية المقابلة الجبال العربية *Arabian mountains* : قمم وذرى ومسيلات ووديان ومنحدرات صخرية وأكوام من رمال وأحجار مهشمة وكتل حجرية صلدة وكتل من أحجار جيرية ، جميعها بيضاء أو اعترتها الصفرة دون أثر لخضرة ، وانما جرداء تتلألا وقد عكست أشعة الشمس الأفريقية . فلما يتخيل المرء صورة أكثر عظمة وجهامة من جبل صحراوى حقيقى . وفى الرمال وجدت آثار ضباع وذئاب وحيوانات ابن آوى وما لا يحصى من جحور الحيوانات البرية ، وكمنت النسور فى ظلال الصخور وحلقت العظاءات *Swift* فوق قمم الجبل القصية .

وجرى ذئب عبر الممر أمامى لكنه كان بعيدا لا تؤثر فيه طلقتى ، وضاعت فرصة مماثلة - لاقتناص ابن آوى - من الدوق الكبير للسبب نفسه ، وسرنا فى ضيق وهبطنا بصعوبة فى الوادى الرئيسى لنقابل الحمير

في الموضع المتفق عليه سلفا . وركبنا الحمير عبر واد منعزل تحيطه جبال
بيضاء عابسة ، لنصل الى مقابر الملوك عند ببيان الملوك **Biban-el-Moluk**
حيث يواجه ممر مسلود من منتهاه **Cul de sac** ومنحدر على نسق
انحدار الوادى الذى يشقه (أى الطريق) وينتهى بنهايته وثمة شق
(هوة) مظلم يقضى الى مدافن الاسرات (الفرعونية) الاولى ، وحملتنا
المشاعل ودخلنا أضرحة الماضى .

وانى مدين لبرجش **Brugsch** باشا لكثير من الملاحظات القيمة
عن هذه البقعة ، وسأتركه الآن يقضى بما عنده : « مقابر ببيان الملوك تقح
فى واد جانبى فى الجبل توحى طبيعته نفسها بسكون الموت ، وهنا تم
دفن الأجيال المتعاقبة من أكثر ملوك الاسرات الحاكمة فى طيبة شهرة ،
وذلك فى كهوف عميقة ، ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة فصاعدا . ونجد
قبر سيسى الأول **Seti I** الذى يمثل معبدا (ضريبا **temple**)
حقيقيا لميت قد نحت خارج الصخرة ، ويعد هو الأجل بين هذه الآثار
الجديرة بالملاحظة . وتفضى الدرجات (السلالم) التى تهبط بشكل
منحوظ الى مجازات يمر بها حاملو الجثث ، فى ظلمة شديدة ، من ممر
الى ممر ، ومن حجرة الى حجرة ، ورغم غارات النهب على هذه المقابر
الا أن الرسوم والكتابة لاتزال تحتفظ ببهاء ألوانها كاملا . لقد تابعنا
رؤية مناظر متتابعة مستعينين بالضوء الباهت فحملتنا هذه المناظر الى عالم
الموتى وجعلت مناطق العالم السفلى المختلفة أمام نواظرنا مصورة نعيم
الفرديوس وعذاب من يستحقون اللعنة ، والسموات ذوات النجوم ورحلة
مراكب الشمس السرية من الغرب الى الشرق ومن الموت الى الحياة خلال
الليل والظلمة . لقد تجلى كل ذلك أمامنا فى صور . وتجلى بتفصيل
كامل ، ونشرت أمامنا صفحات غامضة للحياة بعد الموت ومفتاح عقائد
المصريين القدماء المتشابهة هو فكرة بعث الروح بعد موت الجسد
الى مصدر النور ، فيحظى الطيب بالنور والسعادة ويجازى الشرير بالظلمة
والآلم .

وفى غرفة - تم اغلاقها باحكام قبل ذلك - فى ضريح سيسى الاول
Seti I (حوالى ١٣٥٠ ق م) رأينا ما يشبه بقرة السماء
Cow of heaven ، ويجهدها شريط من كتابات هيروغليفية طويلة ذات
أهمية فائقة ، إذ تتناول اباداة الجنس البشرى واعادة تشكيل نظام
عالمى جديد ، مما يقدم لنا مفتاحا للفهم الصحيح للعقيدة المصرية القديمة .
وقدما يلى ترجمة لهذا النص الغامض :

« كان لمصر العليا والدينا ملك هو اله النور رع Ra لم يولد (هو موجود بذاته) ، وبينما هو يحكم اتحد الملوك البشر والآلهة في كيان واحد (*) وبدأ البشر في حبك المؤامرات عنده اله النور رع ليتخلصوا منه ، ولأن عظمته الملكية قد غدت عتيقة عريقة فان عظامه كانت من فضة ولحمه من ذهب وشعره من ياقوت نقي ورأى بعظمته الملكية كيف يكره به البشر ، فدعا اليه خدمه قائلا : « احضروا لى عيني ورب السحاب شو Shu وربة المطر تافنوت Tafnut ورب الأرض كب Keb وربة السماء نت Nut وأحضروا الأب والأم اللذين اتحلا معى وقت أن كنت ونفسى فى المياه الأولى (المياه التى هى الأصل والأساس) ، وكذلك رب المياه الأولى نن Nun الذى يحمل ألوهيتى (ربوبيتى) فى نفسه ، دعوه يحضر حاشيته معه . وقولوا له : « أحضرهم هنا بلا توان أو تأخير . لا تنتظر للرجال (البشر) ولا تدر أرواحهم بعيدا . تعال الى قصر هليوبولس مع الأرباب الذين وافقوا على خروجى من الماء الى المكان الذى أشغله الآن » وبالفعل تم احضار الأرباب فألقوا بأنفسهم على الأرض اظهرا لولائهم لعظمته حتى يلقي كلماته لوالد أكبر الأرباب الذى خلق البشر وأنجب النبلاء . وقال الأرباب لعظمته : « تحدث الينا حتى نفهم » .

« فتحدث اله النور رع Ra لرب الماء الأول نن Nun قائلا : « أنت الأكبر بين الأرباب ، منك خرجت ، وأنت أصل الألوهية ، فلتسمعنى الآن : الرجال الذين خلقوا من عيني يتحدثون ضدى ! فقل لى : ماذا أنت فاعل ؟ حقيقة انى سأنتظر ولن أحطمهم حتى اسمع رأيك فى هذا الموضوع » .

فتحدث نن Nun وقال : « يا بنى . أنت رع اله النور أنت اله أعلى درجة منه فهو أبوك وأنت أعظم منه ، أعظم من الذى أنجبك Who begat thee فأين أقيم (أجعل) البشر الذين يقولون هذه الكلمات عنك ، ذلك أن فزع أولئك الذين يحيكون المؤامرات ضدك سيكون عظيما كبيرا ، سيكونون الى جوارك لأنك ستطبق عليهم جفونك (عيونك) . »

وقال عظمة رع اله النور : اذهب اليهم ، فقد هربوا للنجبل لأن أرواحهم كانت مليئة بالرهبه من قربى » .

وتحدث الأرباب الآخرون لعظمته : « أرسل عينك . دعها تضرب عنك أولئك الذين حاكوا المؤامرات باعتبارهم أتوا أمرا شريرا . » .

(*) أصبح اللاهوت والناسوت فى كيان واحد ، وهى الافكار نفسها التى تسربت بعد ذلك لبعض ديانات التوحيد - (المترجم) .

فأرسل إله النور رع عينه his eye فهبطت متقمصة (متجسدة) شكل الربة هاتور Hathor ، وعادت بعد أن حطمت البشر (الذين تحدثوا ضد رع) على الجبل .

وتحدثت عظمة الإله (الرب) فقال : « أبشر . لقد تم تنفيذ ما كان يجب تنفيذه . . . لقد أوردنا البشر موارد التهلكة » .

وتحدثت هذه الربة (الإلهة) فقالت : « اننى أقسم بك اننى نفذت حكمك فى هؤلاء البشر ، وهذا يسعد روجى » .

وقال إله النور رع : « سوف أنفذ حكمى (قضائى) على البشر من خلالك فى المستقبل » .

وهذا هو أصل اسم الربة الانتقام . الربة سخط Sokhet (٣) .

وهكذا تحدثت نوت Nut ربة السماء أمام أبيها نون Nun رب الماء الأول . وعندئذ تحولت ربة السماء نوت Nut الى بقرة ضخمة وحملت على ظهرها عظمة إله النور رع .

« وبعد أن علم البشر الذين ذهبوا صاعدين فى المجرى ما حدث وقفوا ونظروا اليه (رع) وهو جالس على ظهر البقرة » .

وتحدث البشر وقالوا له (رع) : « أنت إله النور رع لا تتخل عنا ، سنقتل أعدائك الذين يحيكون المؤامرات ضدك . . . سيقتلون » .

وذهب عظمته الى قصره لكن الذين تبعوه بقوا مع البشر (الرجال) حتى غرقت الأرض فى الظلمة ، الا أنه عندما أنارت الأرض وأشرق الصباح هب البشر (الرجال) مسلحين بالأقواس والرماح وأطلقوها على أعداء الإله (وهذا هو أصل فكرة الأضحية) وتحدث هذا الإله الى الإلهة نوت Nut السماوية : « لقد حملت نفسى على ظهرك فأرفعيني الى أعلى » وفهمت ربة السماوات المعنى فتمطت . وهذا أصل العبارة القائلة : اطح نفسك فوق ظهرها تمدد (تمطى) ذاتها .

وقال عظمة هذا الإله : « والآن وقد فارقت البشر ، سأصعد الى أعلى وأراقب » .

وراح عظمة الإله يراقب (الأمور) من الخارج ، وقال : ابحثوا لى عن حمالين أشداء : « مجموعة من البشر » وهذا هو أصل عبارة « فمجموعة رجال (mass of men) » .

وقال جل جلاله hir royal majesty : « يا له من عمل مفعم
بالسلام أن أقيم حقلا واسعا ! » وهذا أصل اسم (حقل السلام) . سوف
أنزع (?) الأعشاب فيه ، وهذا أصل اسم (pluckfield) وسأمد
السكان بكل شيء

وتوقفت السفينة هناك ، وفوقها مجاديف ومعبد صغير ، وفوقها
قرص الشمس ، ووقف اله النور رع فيها أمام رب السحاب شو shu ،
وبجانب يده (قراءة أخرى : خلفه الى جوار يده) .

وتم وضع ضرع البقرة الى جوار فخذهما الأيسر ، وفي الوسط .
فالكتابات الموجودة عند منتصف ساق البقرة الخلفية كالتالي : « السماوات
الخارجية » و « أنا حيث أكون I am where I am » و « أنا لا أدعها تعود
I do not let her turn back » ، والكتابات الى أسفل السفينة في المقدمة :
« لا تسترح يا ولدي » والكتابات في الاتجاه المعاكس (المقابل) :
« حملك كالحياة Thy bearing is life like » و « ابنك هنالك
Thy son is yonder » و « الحياة والسعادة والصحة ، كل ذلك ممنوح
لمنخريك » والكتابات خلف شو رب السحاب بالقرب من ذراعيه هي :
« حارسها Her guardian » والكتابات خلفه عند قدميه في الاتجاه
المقابل : « الحقيقة » وكتابة أخرى : « هم يدخلون هنا » وأخرى :
« اننى الحامى كل يوم » .

والكتابات تحت ذراع الشكل (الرسم) الكائن بين الساق اليسرى
وخلفها كالتالي : « منهى كل شيء » .

والكتابات فوق الرسم عند الربيع الخلفى من البقرة بالقرب من
الساقين هي : « حارس خروجها Guardian of her going out » .

والكتابات خلف الشكلين التي تمتد من ساق البقرة الى رأس
الشكلين هي : « الرجل كبير السن الذى يسبح عند خروجه » و « الرجل
كبير السن الذى يتعبه عند قدومه » .

والكتابات فوق رأس الشكلين والكائنة بين الساقين الأماميتين
للبقرة « المستمع » « المصغى » و « تقله سلطان السماوات العلا » .

« وقال عظمة هذا الاله للرب توت Thot (رب الفهم) :
« استدع لى عظمه كب Keb رب الأرض بهذه الكلمات : « تعال
بسرعة »

وجاء عظمة كب Keb رب الأرض وقال عظمة اله النور رع : فلتقم معركة بسبب ديدانك (البشر) الذين يسببون لك الازعاج ، فمن أجل سعادتهم يجب أن يخشونى طالما أنا موجود as long as I exist لذلك سأترك لك مهمة معرفة صدقهم وطهارتهم . كن مستعدا واذهب حيث أبونا الذى هو رب الماء الأول – نون God of the water, Nun primordial water, Nun

وقل له :

احفظ الديدان (المقصود البشر أو الكائنات الحية) على الأرض وفى الماء واكتب فى التو واللحظة لكل مكان (منطقة) يقطن فيها ديدانك وقل : « ان حافظكم (ربكم) هو الذى يحيط بكل شيء » . اذا كانوا سيصرفون أننى ذهبت بعيدا ، فمن أجل سعادتهم أن أرتفع فوقهم كضوء الشمس . الشفاء ضرورى . انه الأب (الأب) الذى هم فى حاجة اليه . كن أننى الأب على هذه الأرض » .

وهم أيضا سيكونون محميين (محروسين) بسبب أفكارهم الحكيمة وسوف يكون فى حكم أفواههم خلاصهم their Salvation ذلك لأن حكمتى قضت بالخلاص . وسيكون الشكور آمنا ، والا لن أقدم لأحد حمايتى بسبب العظمة (الجلالة) الذى أعطى له أمامى (قبلى) . سوف أوحدهم مع ابنك أوزوريس وسوف أحفظ أطفالهم ، وستتجلى فضائلهم فى أنهم يعملون وفقا لما يقتضيه جبههم للعالم كله وفقا للأفكار الحكيمية المثبوتة فيهم .

وقال عظمة الاله : استدع لى الرب توت – رب الفهم ، فلما حضر قال عظمة الاله له : « انتبه ! عظيمة هى المسافة من السماء حيث أقيم عرشى وحيث يتحتم أن أقيم لأوزع أشعة الشمس (بالعدل dispense) أنت رب عظيم فى الأعماق وفى عالم القبور حيث أنت الذى تكتب وتعاقب من يسكنون هناك ومن يقترفون الخطايا فأبعد عنى أولئك الذين يتبعون الآثام who followed evil الذين يملأون قلبى بالخجل (الحسرة) – اجعل نفسك مكاني – ممثلى ، والا فلماذا سميت توت Thot ممثل الشمس ؟ اننى سوف أمرك أن تستدعى الأمراء باسمك » . وهذا هو أصل ابيس Ibis رسول توت « سوف أدعك تمد يدك لوجه الأرباب القدامى (الآلهة القدامى) الذين هم أعظم منك . وسيكون حسنا اذا ما ظلمت (رويت) ظمئى » وهذا أصل طائر الماء التابع للرب توت . « وسأدعك تحتضن السماء والأرض بالعظمة كشعاع من نور » ومن هنا أتى اسم « مغلف enfolder » للقمر . « وسأدعك تجبر كل البرابرة على التقهقر » ومن هنا أتى اسم « الطارد expeller » للقرد الذى

يحمل رأس كلب ، وهذا أصل المهمة المنوطة - كقائد للجيش .
« لكنك أنت - على هذا - مثلى لكل الأشياء المرئية التي يمكن التجلي
من خلالها .. that through thee may be manifested وكل البشر
سميتدحونك كاله » .

« وإذا ادعى أى شخص هذه المرتبة لنفسه ، اجعله يحك جسده
أولا بالزيت والدهان ، ودعه يرفع المبخرة (وعاء العطر) بيديه الى خلف
أذنيه » .

« واجعله يتسلى فمه بالصابون المقدس ، ودعه يرتدى ملابس
نظيفة » .

« واجعله ينظف نفسه بماء الفيضان ، واجعله يلبس فى قدميه
صندلا (نعالا) بيضاء لامعة . وستنتطبع صورة ربة الحقيقة خضراء على
لسانه .

وإذا كان يسره أن يقول ذلك (الحكم) للرب توت فاجعله يظهر
نفسه تسع مرات كل يوم طوال ثلاثة أيام .

وليفعل الشيء نفسه الكهنة والناس والآخرين ، وإذا كرر انسان
ذلك ، فليراع التعليمات التالية :

اجعله يقف فى دائرة تفصله عن الآخرين .

اجعله يركز عينه عليها ويدير كل أطرافه نحوها . ولا يجعل قدميه
قادرتين على التحرك للأمام . فإذا كان الانسان (الرجل) على هذا النحو
فقل له انه لو كان كذلك لكان مثل اله النور رع فى يوم ولادته .
لا تتناقص عناصر الخير فيه ، ولن يفقد بينه شيئا وانما يبقى فى الطريق
السوى مليون مرة » .

وهكذا ينتهى الوصف الدقيق للبقرة السماوية وما يحيط بها،
وما حولها من كتابات .

ان سلالة (الآلهة والأرباب) التى يرد ذكرها فى عقائد هذا الدين
الذى مضى عليه آلاف السنين جديرة بالاهتمام ، كما أن الوصف التفصيلي
الرائع يميز هذه العقائد المتعلقة بأهل الجنوب خاصة الشرقيين . وأرد
أن أضيف هنا شجرة نسب للآلهة المصرية القديمة مستخلصة من هذه
الآثار :

Nun (Chaos) (شاونس) تن

اله الماء الأول

رع Ra (الشمس)

اله التور • عنصر النار

Fasnut فاسنوت

Shu (هركيولس) شو

ربة المطر

رب السحاب ، عنصر الهواء

(Kronos) Keb • كپ

(Rhea) Nut نوت

رب الأرض - عنصر التراب

ربة السماء

ايزيس

Set ست

Horus حورس

أوزوريس

نفريس

(تيفون)

(أبولو)

عنصر الماء

Apollo

هريوكراتس

Harpocrates

العالم في تجدهه النورى فى شكله المرئى

وبعد أن تفحصنا كل غرف أهم مقابر الملوك تناولنا افطارا متواضعا خارج المدخل ، وبعد راحة قصيرة صعدنا بشق الأنفس من خلال ممر ضيق ، لنعبر الجبال الى مدينة حابو Habu فوصلنا مرة أخرى الى صحراء جرداء صخرية وأصبحنا الآن عرضة لشمس الظهيرة المحرقة . وكان علينا أن نتسلق بعض الصخور شديدة الانحدار لنعبرها فلم نصل لقمته الا بعد جهد جهيد وبعد ذلك مباشرة وصلنا لمنطقة القبور الحجرية ، ومررنا خلال خرائب وبقايا ومنازل قديمة آيلة للسقوط ، كلها تعود لعصور اسلامية فوصلنا لأرض مزروعة فتركنا خيولنا في ظل جدار ، وأوصلنا طريق أطول من الطريق الذى قطعناه صباحا الى تمثال ممنون الضخم اللافت للنظر Collesus of Memnon الذى فات كل توقعاتنا ، ثم وصلنا الى شاطئ النيل ، ومن ثم وصلنا لسفينتنا البخارية مستخدمين أحد القوارب فى فترة بعد الظهر ، وتناولنا غداءنا . وتبعنا بعض العرب كمساعدى صيد لزيارة بقعة بالقرب من مدينة حابو Habu فى المساء بحثا عن الطرائد . وركبت بعد الغداء - يتبعنى مساعدو الصيد وسلكننا مرة أخرى طريقا طويلا عبر أرض زراعية ومررنا بتمثال ممنون حتى وصلنا لقرية حابو التى لا تزيد عن كونها بضعة بيوت طينية . وثمة سهل صحراوى عريض على نحو ما يفصل بين الأرض الزراعية وسفح الجبل - يمتد مباشرة خلف القرية (قرية حابو) .

وكانت آثار أقدام الضباع والذئاب وحيوانات ابن آوى كثيرة ومتتابعة تربط بين الجبل والمساحة التى نمارس فيها رياضتنا فاخترنا خلف بعض الأحجار الضخام . كانت الشمس تقرب وكانت الرمال والصخور والجبال والآثار والنخيل وقرى السهل تفيض بأزهى الألوان وواصلت بومة فرعونية بنية - يعترى لونها البنى صفرة - كبيرة الحجم - طيراتها الصامت ، بحثا عن فريسة ، وسرعان ما أطلقت النار على ابن آوى تتبع آثار أقدام الحيوانات الآنف ذكرها ، وراح يتقدم قافزا للأمام وكأنما لا يحيق به خطر ، الا أن طلقتى طاشت فقد كان ابن آوى - لسوء الحظ - بعيدا ، وتشقلب الحيوان واضطرب واتخذ سبيله مسرعا عائدا للجبل مرة أخرى . وقد وجدت حقا خطا أحمر - وهذا حقيقى ، ولم يجد البحث السريع الذى لم يستغرق وقتا كاقيا عن نتيجة فسرعان ما حل شفق الغروب وكان على أن أعود للمنطقة الملائمة لصيد الضباع .

وركبت قاطعا الصحراء يدلنى رجل غربى ، وكانت الصحراء تمتد وتمتد داخل السهل حتى وصلنا الى تل رملى صغير . كان المشعل الذى نحمله من النوع الجيد وكان الحمار الميت قد وضع بشكل واضح فى الرمال البيضاء .

كان السكون العميق يسود المنطقة المحيطة بنا ، وتظهر في الظلمة غير الدامسة الخطوط التي تحدد أشكال الجبال وبلت الصحراء الصفراء شاسعة لا نهاية لها .

وسمعت أكثر من مرة صوت تسلل ابن آوى ورأيت ظللا سرعان ما مرت سريعا ، وميزت شكل ذئب ، لكن الضياع وهي ما نرغب في صيده كثيرا لم تأت . فافضل الأوقات لصيده الضياع هي الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، لكن في ذلك الوقت يهاجمنى النوم فلا أستطيع مقاومتها بعد الساعة الحادية عشرة ، فغادرت مكمنى ، وتركنى العربى أذهب لمسافة قريبة واقترح أن نبقى في انتظار الضبع - بينما هو مسلح ببندقيته .

ان أمامى مسافة طويلة لكنها لطيفة بالنسبة لى قليل مصر القمر يحفر فى الذاكرة كأروع المناظر الساحرة ، وقد حملت ذاكرتى هذا المنظر من أرض الفراعنة العظيمة . وكانت تماثيل منون Memnon منتصبية كالاشباح ، زاد الليل من ضخامتها . وجرى ذئب بالقرب من النيل أمامى على بعد خطوات قليلة لكن ببندقيتى لم تكن معمرة لسوء الحظ . ولم أصل للباخرة الا متأخرا جدا وحان وقت راحتى التى كنت تواقا لها .

وفى بكور اليوم الثانى عشر من الشهر ركبنا جميعا وسرنا فى الطريق نفسه لقرية حابى ، وأطلقت النار من فوق حمارى على طائر الشنقب Snipe وطائر زمار الرمل Sand pipers ، وكانت صفوف طويلة من اللقالق (جمع لقلق Stork) تقف على الشواطىء الرملية وفى البرك . وصلنا لقرية حابو بعد ساعة حيث كان الصياد العربى فى انتظارنا ليخبرنا أنه فقد - بسعادة - الضبع ، حوالى الساعة الواحدة ليلا . ولم أصدقه وقررت أن أعين المنطقة بنفسى وأن أركز اهتمامى أيضا على النسور المتجمعة بأعداد كبيرة وفقا لما ذكره العربى .

ولسوء الحظ ، وجدت أن هذه الطيور الجارحة - بمجرد وصولى - كانت قد أنهت بالفعل وجبتها وجمدت - غير قادرة على الحركة - فى مكان غير قريب على بعد مئات قليلة من الخطوات فى الصحراء . لقد كان الحمار الميت قد مزق اربا ، وتم التهامه بالكامل تقريبا وما تبقى منه كان مغطى بريش النسور وأقدارها .

وأخطأت كما أخطأ العربى ، فسرعان ما وجدت أثر الضبع يؤدى من جانب واحد للجيفة ، ويؤدى من الجانب الآخر للصحراء . وفى طريق العودة لقرية حابو لاحظت آثارا حديثة تماما لقدمنى غزال .

و بمجرد أن وصلت لمستراح رفاقي في الرحلة حتى بدأنا زيارتنا لمعبد الرامسيوم Ramesseum المدهش الجميل ، وهو معبد جنازى temple of the dead لازال يحتفظ بيهائه ، ويقع بالقرب من قرية جابو .

واني مدين لصديقي برجش Brugsch ببعض الملاحظات عن هذا الجزء من طيبة أوردها هنا بكلماته هو : « الجزء الغربى من طيبة لا يقل ثراء في الجبال عن الجزء الشرقى للمدينة ، وكان يعتبر مثنى للموتى - مدينة الموتى necropolis . ففي سهل من الأحجار الجيرية وكذلك في المنحدرات ذات التجويفات والثقوب في الجبال المجاورة - وجد ملايين من أهل طيبة ذوى الثنآن مثنوهم الأخير . ففي السهل عند سفوح المنحدرات الصخرية تشمخ - فى كل اتجاه - المعابد الجنازىة Sepulchral temples وأبوابها دائما مفتوحة ناحية الشرق مما يعطى مدينة الموتى طبيعة أكثر المناطق قداسة . ومعبد الجرنة Gurna الذى لا يزال موجودا عند الطرف الشمالى للسلسلة الطويلة من المعابد ، والذى أنشأه رمسيس الثانى أحياء لذكرى جده غير المشهور الذى يحمل الاسم نفسه ، ومعبد الجنازى المسمى رمسيوم ، يعد مثلا فى تصميمه وزخرفته ، على نسق معبد سبتى الأول الجنازى فى أبيدوس (سبتى الأول والدة رمسيس الثانى) وقد سبق أن وصفنا هذا المعبد .

والرامسيوم فى طيبة يعد بالإضافة - لكونه معبدا جنازيا - هيكلأ أحياء ذكرى انتصار الملك على الحيثيين Hothites وتخليدا للأعمال المجيدة التى حققها . وتمثاله العملاق من الجرانيت الأحمر مطروح على أرض المعبد القديم بالقرب من بوابة الجناح الجنوبى .

وأبعد الى الجنوب يوجد تمثالا ممتون الشهيران - حارسا مدينة الموتى ، وقد شمخا منعزلين تحت سماء طيبة الزرقاء الصافية كشاهدين صامتين على تاريخ المصريين العظيم الطويل . لقد زين المصريون - فى وقت من الأوقات - المساحة الواقعة أمام البوابة العظيمة للمعبد الجنازى للفرعون أمنحتب الثالث ، وقد اختفى هذا المعبد الآن دون أن يترك أثرا فى الغالب على سطح الأرض . وهذه الآثار من عمل أحد موظفى البيت الملكى وهو حى Hi بن جابو .

ولا زال يوجد الى الجنوب المعابد الجنازىة للفرعين : تحنمس الثالث ورمسيس الثالث تقع وسط مكان مرتفع يشبه تلا . ورمسيس الثالث هو الملك رامبسينيتوس Rampsinitus فى التراث الاغريقى ، وحقق معبده شهرة لكثرة ما به من رسوم وكتابات لتخليد ذكرى انتصاراته ضد

الحلف الليبي الأيوني وإذا تتبعنا المعبد الصخري الذى أنشأه تحتمس فى الركن الشمالى الغربى لمدينة الموتى العظيمة فى طيبة نكون قد آتينا على كل معابد الملوك الجنائزية التى كان هدفها هو أن تبقى شاهدا للأجيال المتعاقبة حتى لا يضيع الماضى .

ولما انتهينا من زيارة مدينة الأموات الشهيرة تلك ركبنا وعبرنا السهل عائدين الى سفينتنا البخارية . لقد كان علينا الآن أن نغادر الأقصر الجميلة وآثار طيبة العظيمة ذات المائة بوابة . وكان سهل طيبة يرقده متدثرا بسديم حرارة الظهيرة الحارقة تحدهو الجبال الشامخة . لقد كان منظرا مدهشا ، كان خير وداع لنا .

قنا :

وقضينا فترة بعد الظهر فى رحلتنا فى قضاء ساعات مبهجة فوق ظهر السفينة نغم بالنسائم الباردة التى يرفها النهر الينا ، وبالمناظر المحببة يتلو بعضها بعضا أمام نواظرننا . وفى الساعة السادسة مساء رسونا فى قنا ، وفى هذه المرة لم يكن رسونا على الشاطئ الغربى حيث دندرة Dendera وإنما رسونا على الشاطئ الشرقى بالقرب من المدينة الجديدة .

وقضينا فترة المساء فى الصيد بالمناطق المجاورة للمدينة ، فقد ركبت أنا وهويوز Hoyos عبر سهل غنى وعريض - فى هذا المكان ثم تتبعنا إحدى الترع ، فاصطدنا طيوراً مختلفة وعبرنا ونحن راكبون مجرى مائيا فى موضع ضحل وعدنا فى اتجاه المدينة فوجدنا بجوارها خدائق باسمه وغابات نخيل تشمخ بذراها . وكانت الحدوات والصقور والبازات ذوات الأجنحة السوداء والغربان السود وأنواع أخرى من الغربان Crows واليوم الصياع Screech-owl وكل أنواع الطيور الصغيرة - تبحث لها عن ملجأ فى هذه الغابة . أما وقد علمنا ذلك فقد اختبأنا خلف أشجار النخيل وفزنا بصيد وفير .

ولما ظهر الشفق الأحمر بعد غروب جميل ركبنا عائدين بموازة سور حتى دخلنا المدينة الكبيرة نسبيا .

وكانت الطرق الضيقة على جانبيها منازل طينية ، بالإضافة الى زيناتها المعمارية ومآذنها السامقة - كل ذلك ينبىء عن أهمية المكان الذى ينص بالحياة . وقادتنا الصدفة السعيدة خلال الشوارع المزدهجة الى سوق عامرة مغطاة بالحصير ومضاءة بشكل جيد ، وتجارها المشغولون

يتحلّقون حولنا بطمع محدثين جلية وضوضاء • وقد هربنا من الأتربة والأبخرة والروائح النتنة التي تنتشر - خاصة في المساء - شرقي المدن - متتبعين المرباط Stalls التي كانت تكون خطا طويلا ، وأسرعنا عائدين الى باخرتنا ، وقد عاد رفاقي الآخرون ببعض الصيد ، لقد كان حصاد صيدنا في قنا وقيرا •

وتابعنا رحلتنا في اليوم الثالث عشر من الشهر في جو جميل ولم نتوقف من مشرق الشمس حتى منتصف النهار فوصلنا حيث جبل طوق Tuk يقترب اقترابا شديدا من مجرى النهر وسعدنا برؤية المنطقة واقترحنا أن نتريض بعض الشيء بعد أن نرسو على الشاطئ المهشم ، ولم يكن ثمة قرية ولا منزل قريب ، فلم يكن الا الشقوق والصدوع في الجبل الصخري التي يفصلها عن مجرى النهر مرج أخضر لا يتعدى عرضه مائة خطوة في أقصى اتساع له • ولما زحفنا بين أكوام الصخور وعلى المنحدرات الجرداء وجدت كثيرا من آثار حيوانات ابن آوى وبعض الجحور ، ومن ثم فقد أتيت بكلابي من نوع الدشهند وتركتها تبحث في الأخاديد والشقوق العميقة ، ولسوء الحظ فإن هذا كان بغير نتيجة •

وفشلت جهودي كذلك في الزحف الى الطيور الجارحة المستقرة فوق قمم التلال والصخور ، وأثناء هذه المحاولات المتحوسة وجدت بعض القبور القديمة المجوفة ، ووجدت فيها بالإضافة للعظام بقايا مومياء محنطة - ربما كانت مجرد لحم وعضلات حمصتها حرارة المناخ الجاف ، وأثناء عودتي من الجبل أطلقت بندقيتي على بعض طيور السماني التي لجأت الى المرج الضيق مرهقة بسبب رحلتها الطويلة •

سوهاج :

وبعد توقف لم يدم أكثر من ساعتين واصلنا رحلتنا ، وعند اقتراب الساعة الثانية وصلت باخرتنا الى مدينة سوهاج وهي مدينة كبيرة ذات موقع جيد ، فرست ليتاح لنا فرصة كشف المناطق القريبة منها •

وذهبت أنا والدوق الكبير فدرنا حول أبعد أحياء المدينة بالقرب من ثكنات عسكرية لحامية صغيرة وبحثنا عن بعض البرك الكبيرة لاصطياد أنواع الطيور المختلفة • واضطررنا للابتعاد لتزاحم المتطفلين والقادمين ومعهم جواميسهم وجمالهم لتشرب ، وسرنا متتبعين الطريق الموازي لبحر يوسف الشهير Famous Canal of Joseph فمررنا بمنازل متناثرة وحقول يانعة ويساتين ووصلنا الى غابة من أشجار الجميز والطرفاء والنخيل • لقد كان هذا المكان غطاء ممتازا تأوى اليه أعداد كبيرة من

الطيور ، وبعد غروب الشمس مباشرة أطلقنا بنادقنا على الطيور التي كانت قد شرعت في النوم ففوجئت ، فوقع في أيدينا في غضون دقائق قابيلة نسر صغير ، وحدقات كثيرة ، وصقور وبومتان وكثير من الحمام واليمام . ومن ناحية المنظر ، فإن هذه الغابة تشتمل - فقط - على الأشجار الأفريقية مما أعطاها شكلا جذابا ، وقد غادرناها - غير راغبين في مغادرتها - تاركين روائحها العطرة ، وثرأها وظل خضرتها ، انها تذكر المرء بحكايات الليالي العربية . وتبعنا الطريق ذاته فوصلنا - سريعا - للمدينة فركبنا وعبرنا طرقا ضيقة ومزدحمة .

الى أسيوط :

وتفضل المدير على باشا فأعارنى حمارة الضخم الأبيض كالثلج ، واسمه - أى الحمار - أبو جبل ، وهو حمار عربى من سلالة عربية نقية وغمرنى السرور وأنا أركبه فقد كانت خطواته ممتازة ، فلما رأى على باشا مبلغ سرورى به أهدانى اياه . وكان يجب علينا الآن أن نجد مستقرا للحمار على ظهر السفينة ، فأنشأنا له مربطا وسرعان ما دخل منزلنا المتحرك (يقصد السفينة البخارية) ، وشرعنا فى بكور اليوم التالى فى مواصلة الرحلة الى أسيوط ، وتوقفت الباخرة عند آخر محطاتها ، فوصلنا الى أسيوط عند الظهر ، وسلكنا طريقا تحفه الأشجار أدى بنا الى داخل المدينة . ومدينة أسيوط هى أكثر مدن مصر أهمية جنوب القاهرة ، فهى مقر المدير وبها تجارة مزدهرة ومبان ممتازة ، حقيقة ان المنازل - حتى هنا - مشيدة من الطين ، لكنها أكثر ارتفاعا وبها زينات وزخارف عربية أفضل مما هو موجود فى المدن الواقعة الى الجنوب منها : فالماذن والبوابات الجميلة تلفت نظر المسافر ، والطرق التى تحفها أشجار الجميز والبساتين المثمرة تحيط بالمدينة من ناحية النهر .

وركبنا دوابنا وسرنا فى بعض الطرق الضيقة ، وبين المرباط Stalls الممتدة بطول احدى الأسواق المهمة التى ينتهى اليها طريق قافلة دارفور - وكانت السوق عامرة بريش النعام والعاج . وللأواني الفخارية الأسيوطية الحمراء والسوداء خصوصيتها ، وكانت المناظر فى السوق شائقة جدا بما فيها من حركة ونشاط . وكان كل سكان وادى النيل من مختلف المديرىات بأزيائهم البهيجة المختلفة - موجودين هنا جنبا الى جنب مع الفلاحين الحقيقيين الذين يمارسون التجارة .

وعبرنا المدينة ووصلنا لسفح جبال منحدره بعد أن مررنا ببحر يوسف المعروف . وفى أسيوط تقترب الجبال من النهر أكثر فأكثر ويضيق السهل الزراعى كثيرا جنوب المدينة وشمالها بحيث لا يتجاوز

بضع خطوات • وصعدنا ممرا منحدرًا ضيقًا لتلقى نظرة على الكهوف والمعابد الجنائزية Sepulchral chapels المقامة فوق الجبال بين الصخور والأحجار في منتصف المسافة بين السفح والقمة •

وكان لهذا المكان أهمية خاصة في التاريخ القديم ، وقد اتخذت أسيوط Ossiut - أكبر مدن صعيد مصر وأكثرها أهمية - اسمها الحالي من الاسم القديم سيوط Siut • وكان لأنوبيس Anubis - الربة التي تحمل رأس ابن أوى - معابدها ومذابجها هنا • لقد كانت كل حيوانات الفصيلة الكلبية - خاصة الذئب - هنا ، لذا فإن الاسم الاغريقي للمدينة هو ليكوبولس Lykopolis وتعني مدينة الذئب • وفي كهوف الجبال التي تقع خلف أسيوط والتي تشكل أنوفا في سلسلة تلال الصحراء الليبية (المصرية الغربية) تجد حيوانات الأسرة الكلبية لا تزال - حتى الآن - محنطة وبحالة جيدة ، وبالقرب القريب منها جبانة مشهورة تعود لأيام الأسرة الثالثة عشرة (٢٠٠ ق م) والمخصصة لكبار موظفي الدولة في هذه الفترة • وقد دخلنا إحدى هذه الغرف المحفورة في الصخر فوجدناها واسعة وبصرف النظر عن شكلها الخاص ، فإننا لم نجد بداخلها ما يستحق الرؤية •

وقد انقسمت مجموعتنا الآن ، فذهب بعض الرفاق يتجولون بين أديم صوب المدينة ، بينما تسلفت أنا خلال ممر ضيق إلى الحيد ، وحظيت بالقاء نظرة على المدينة الجميلة ووادي النيل والجبال العربية (جبال صحراء مصر الشرقية) بينما كانت الهضبة الليبية (صحراء مصر الغربية) خلفي •

وهبطت للوادي مستخدمًا ممرا آخر حيث الصخور تنحدر بشدة ، وبين أكوام من الأحجار والكتل الصخرية ، واجتزت بعض الكهوف الجنائزية funeral Cave • وبعض الهياكل العظمية وأخيرا وصلت للمقابر الاسلامية • كانت مدينة موتى اسلامية واسعة بها كثير من الآثار الجميلة الجديرة بأن يزورها المرء • انها تمتد إلى الغرب من أسيوط وتصل عند أحد طرفيها إلى حداثق مزهرة وأرض زراعية ، كما تصل عند طرفها الآخر إلى قفر صحراوي •

وسرت عائدا في المدينة وتلكات في شوارع الأحياء البعيدة ملاحظا أساليب الناس وطرائقهم ، وفي الوقت نفسه أطلقت بندقيتي على بعض نسور الجيف بين المنازل ، وبعد الظهر عدت مخترقا أفضل أحياء المدينة لاتناول غدائي على ظهر السفينة •

وعند الغروب ركبنا جميعا مرة أخرى الى سفوح الجبال وتمركزنا عند نقاط مختلفة ، فذهب بعض الرفاق الى المقابر ، بينما أخفيت أنا نفسي في أحد مباني الأضرحة الإسلامية . كان المساء جميلا . السكون يعم المكان فلا تسمع الا همس النسيم الخفيف يداعب الأوراق في قمم أشجار الجميز .

ولسوء الحظ ، لم تأت نحو مكمنى أية طريدة من ذوات الأربع ، لكننى رأيت أكثر من عشرين تسرا كبيرا على البعد ، أتت واحدا اثر الآخر ، لتخط فوق جرف عال ، وكان أمرا مسليا أن أراقب كيف تتعارك هذه الطيور لهيئة مجثمها الليلي ، فلم يكن أى منها براغب أن يجثم الى الأدنى من النسور الأخرى ، ومضى العراك بينها فترة طويلة قبل أن تنجح في تنظيم نفسها بأن تجتم جميعا متجاورة ، في شق طويل في الصخرة .

وبعد ساعة كان على أن أغادر المقابر فقد اقترب وقت متابعة الرحلة ، فالتحقت برفاقى عند بحر يوسف ، وكانوا قد رأوا واحدا من حيوانات ابن أوى وذئبا كبيرا ، لكنهما - لسوء الحظ - كانا بين الصخور وبعيدا عن مجال البنادق ، وكان الدوق الكبير قد رأى أيضا واحدا من طيور النزاقيات Vampire (وهو طائر فى حجم الغراب) فى اللحظة التى كان فيها هذا الطائر المقرف خارجا من إحدى المقابر .

الوصول للبدرشين :

وركبنا بسرعة عائدين لمرسى سفينتنا ، وودعنا بحرارة أدميرالنا الأسود المحترم ، وودعنا أيضا سفينتنا الشجاعة التى كانت مسكنا لنا طوال الأيام الممتعة الماضية . انها أيام جميلة لا تنسى ، وذهبنا الى محطة السكة الحديد القريبة . وسرعان ما اتجه القطار شمالا مغادرا أسيوط وسرعان أيضا ما غشانا النوم اللذيذ ، وعندما استيقظت فى بكور اليوم الخامس عشر من الشهر ، كانت الشمس تتغلغل فى عرباتنا وكنا قد وصلنا بالفعل لمحطة صغيرة مهمة هى محطة البدرشين . قتناولنا افطارنا فى غرفة انتظار قنطرة ، ثم بدأنا الركوب الى منف (ممفيس Memphis) . وكان الطريق يمر بين برك سبخة وحقول جيبله وغابات نخيل حتى وصلنا لقرية ميت رهينة Mitrahenne الرائدة بين حضرة كشيقة يانعة ذات طابع خضرى أفريقي .

وسأترك برجش يحدثنا عنها :

« لقد ولت للأبد حكايات بهاء مدينة منف Memphis القديمة وعظمتها ، أو كما سميتها النقوش المصرية ، ممنوفر Mem-nofir وتعني (المرعى الخصب Good pasture) فمعابد منف وقصور ملوكها القدماء الذين اتخذوا منها عاصمة قد محيت من فوق سطح الأرض ، وليس ثمة حجر واحد مما بقى منها يذكرنا بمؤسسى المدينة الأول . أما الآن فالمنطقة محاطة بأسوار طينية مهلمة تمتد على طول حزام النخيل المحيط بقرية ميت رهينة (وهى مينات - را - هانـو القديمة old Minet R. hannu) الى الشمال والى الجنوب محددة - أى الأسوار - زمام ممفيس (منف) الواسع ، الحاضرة السالفة للوطنية المقدسة (الحرم الوطنى) فهنا كانت توجد معابد الاله بتاح المبدع العظيم وصانع كل الأشياء المخلوقة . وحرم هذا الاله كان محميا بخطوط قوية محصنة ، وكانت هذه التحصينات تشكل قلعة المدينة التى يقع بداخلها ما يعد بمثابة تمثال ربة الحكمة أثينا الذى ارتبطت سلامة طروادة بسلامته ، فقد ارتبطت سلامة الامبراطورية المصرية بسلامة ما بداخل قلعة منف ومن ثم فقد دافع المصريون بشدة عن المدينة ضد الأعداء الداخلين والخارجيين خلال حقبة التاريخ المصرى .

والآثار القليلة التى لا تزال باقية ممتدة على أراضي هذه البقعة المقدسة تعود لمباني عصور متأخرة : معابد أراد بعض الملوك الذين ترجع أصولهم الى طيبة ، بانثاشاتها ، أن يقدموا الدليل على تعاطفهم وولائهم للحرم المقدس القديم للمملكة (المصرية) ، فرمسيس الثانى والد (سيدنا) موسى بالتبنى Adoptive father ، ويسمى أيضا سيزتورا Sestora أو (سيزوستريس Sesostri) ولد سنة ١٣٥٠ ق.م . يعد على رأس هؤلاء المؤسسين الملكيين . وبقايا المباني الأولى التى أسسها والتي كانت تعد على نحو ما امتدادا لخرائب معابد أقدم - مطروحة الآن ومبعثرة فوق الأرض . وتمثاله الضخم الذى كان - ذات يوم - شامخا أمام بوابة معبد بتاح العظيم Ptah - يعد (أى هذا التمثال) واحدا من روائع النحت المصرى ، وهو منحوت من حجر جبرى جميل Limestone يشبه الرخام ، وهو (أى التمثال) . مطروح الآن فى منطقة يضرها ماء النيل سنويا فى موسم الفيضان .

وملامح هذا الفرعون العظيم تذكر - بحيوية ووضوح - بتمثاله الجميل فى متحف تورين Turin . والقطع العديدة حول تمثال رمسيس - والتي تحمل أسماء خلفائه خاصة ابنه الملك مينبتاح Mineptah (الفرعون الذى خرج اليهود فى عهده - من مصر) - تبين

أن هؤلاء الملوك قد قدموا القرابين المختلفة أنواعها لاله مصر (لرب مصر الأعلى Supreme divinity) فى بواكير التاريخ المصرى .

فالثور المقدس أبيس (هابو Hapu كما أسماه المصريون القدماء) كان مكرسا للاله نفسه - بتاح باعتبار هذا الاله تجسده (حل) فى جسده الثور ، وكان الثور أبيس قائما بجانب المعبد العظيم فى إحدى البساتين الخارجية الملحقة بالمعبد ، وكان يحظى بالتقديس والعناية الفائقة . وعند موت الثور المقدس جرت له مراسم دفن مهيبه تكلفت تكاليف كثيرة ، وحملت جثته المحنطة المزينة بزينات كثيرة - فى عربة ، وجرى بها الى مقبرة أبيس « Apis » . وركبنا من منف خلف الأراضى الزراعية صاعدين فى صحراء مصر الغربية (الصحراء الليبية) الى أهرام سقارة بعد منزل مارييت Mariette الى مقابر أبيس .

المنطقة هنا تشبه تماما منطقة أهرام الجيزة . اذ يمكن رؤية أهرام الجيزة عندما يكون المرء عند أهرام سقارة ، وكذلك يمكن رؤية القاهرة وقلعتها ، وجبال المقطم .

وتوغلنا - مزودين بالمشاعل - فى شبكات طرق مقابر أبيس تحت الأرض . لقد بدت لا نهاية لها ، وكان هواؤها جافا مقبضا .

« وقد كانت الثيران - فى أكثر فترات التاريخ المصرى ازدهارا وكذلك فى الفترة المتأخرة - توضع فى تابوت ضخم من الحجارة الصلدة وتطرح فى حجيرات منفصلة فى ممرات تحت الأرض ، وكانت ترتب فى مواضعها ترتيبا زمنيا (كرونولوجيا) ، ولكل حجرة (قبر) نقوشها الخاصة بها . ومقابر أبيس فى منف التى هبئت الآن بأفضل الوسائل ليزورها الأجانب - تضم الآن أربعة وعشرين من هذه التوابيت الضخام . وسلسلة الثيران المقدسة المدفونة هنا تبدأ من منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد وتنتهى زمن الامبراطور أغسطس Augustus .

أما الثيران التى عاشت قبل هذه الفترة فقد دفنت فى هرم سقارة المدرج ، وفى داخل هذا الهرم توجد مساحة واسعة مقنطرة بها محاريب وممرات منفصلة . وبقايا عظام الثيران التى بقيت تشير بوضوح الى الهدف من انشاء هذا الهرم » .

وتناولنا افطارنا فى منزل صغير بالقرب من مقابر أبيس وكان عالم المصريات الشهير مارييت Mariette - الذى توفى مؤخرا - قد أقام هذا المنزل لأغراض الدراسة ، وبعد ذلك ذهبنا الى المدرجات الدنيا للهرم الشهير لاصطياد حيوانات ابن أوى . وما كاد العرب يبدعون فى تسلق

المدرجات حتى مر - كالبرق - واحد من حيوانات ابن آوى ، هابطا
المدرجات ، ولم أتمكن من اطلاق بندقيتي تجاهه . وبعد جولة الصيد
الصغيرة هذه زرنا الأهرامات الأخرى القريبة ، وكان الصغير منها قد
افتتح مؤخرا وهو يعود الى الملك بيبى الأول Pepi I .

عن الأهرامات وأبى الهول :

وليسمح لى القارىء أن أقتبس بعض الملاحظات عن الأهرامات بشكل
عام فى منف والجيزة ، وأيضا عن (أبو الهول) تفضل بها صديقى
برجش :

« اله منف الوطنى القديم ، بتاح ، بقدرته الخاصة كملك للموتى ،
وحام للراجلين (الموتى) حمل اسم سوكار Sokar . وهو بقدراته الخاصة
تلك يعد مماثلا تماما للاله أوزوريس الذى هو بمثابة اله لكل مصر .
والأماكن المخصصة لعبادته تقع فى قرية سقارة الحالية التى تحمل الاسم
المصرى القديم نفسه الذى يعنى (بيت سوكار house of Soker) . وقد
اشتق الاسم العربى للقرية من الاسم المصرى القديم . ويحمى اله الموتى
مقابر أهل منف الكائنة حول الأهرام بشكل منظم ويعود أقدمها الى زمن
ملوك منف . وقد أقيمت مدينة الموتى الجنائزية مشيدة بالحجارة وتسمى
« بيوت الخلود houses of eternity » ويشكل ما بين صفوف هذه المعابد
شوارع مدينة الموتى . وتحت هذه المعابد توجد الغرف الحقيقية التى
ارتاح فيها الموتى راحتهم الأبدية فى توابيت حجرية أو خشبية . وأفضل
قبر من حيث بقاءه فى حالة جيدة من أيام ملوك منف ، هو هذا القبر
الذى يعود لمصرى ذى مكانة رفيعة اسمه ثى Thi ، وقد عاش فى منتصف
القرن الرابع قبل الميلاد وقد جهز لنفسه معبدا بالقرب من أهرامات هؤلاء
الملوك الذين تولى فى ظلهم منصب أمر الدولة officer of State .

وتعتبر الرسوم الثرية فى ألوانها والدقيقة والرقيقة والمتقنة على
جدران هذه المقابر والمعابد ذات قيمة عالية لكثرة ما بها من مشاهد عن
الحياة لدرجة أنها تضع أمام نواظرنا بشكل حى تماما أحوال الزراعة
والصناعة ومراسم تقديم الأضحيات فى هذه الحقب الموعلة فى القدم من
تاريخ الانسانية .

ويرجع وجود هذه الرسوم الى الاعتقاد أنه فى العالم الآخر ،
ستبقى الممتلكات الخاصة بالأثرياء وملوك الأراضى المميزين تابعة لأصحابها
كما كانت فى الحياة الدنيا . ولم تترك هذه الرسوم مظهرا من مظاهر
الحياة ولا منشطا من مناشطها الا سجلته : الملاحه ، توليد الماشية ،

الزراعة ، فيضان النيل ، الحرف وأصحابها بدءا من مصلح الأحذية حتى النجار ، الرسم والنحت ، مما يجعل هذه الصور سجلا للحياة في الغاية من الدقة . وللزوجة والأطفال مكان بارز في هذه الرسوم ، فالزوجة تحظى بالتقدير بسبب صفاتها الجديرة بالاطراء والتي تبلغ الأوج في التعبير القائل : « جمالها مضرب المثل وحلاوتها في لطفها مع زوجها » .

وفي مدن الأهموات في منف - التي تمتد بغير انقطاع من أبو رواش Abu-roash الى الفيوم - نجد أن المقابر القديمة للملوك منف مرتفعة تبدو من بعيد عند حافة الهضبة الصحراوية . وقد حكم هؤلاء الملوك في مصر من سنة ٤٠٠٠ ق م الى ٢٥٠٠ ق م . ورغم أن العدد الكبير من هذه المقابر قد سوى - قبل الآن - بالأرض ، فإن ما بقي منها فيه الكفاية لتمكيننا من تكوين حكم صائب عن أسلوب بنائها ووسائل تنفيذها . ولغرفة الدفن غالبا سقف مستدق يقوم على عمودين حجريين ، يقف كل عمود منهما مقابل الآخر ويميلان الى الأعلى في اتجاه النقطة المستدقة ، ويجب النظر الى هذه النقطة باعتبارها النقطة الجوهريّة في أي هرم . وكثل الغطاء الحجري فوقها تأخذ شكل هرم ، وكانت زوايا الشكل الهرمي ^{في} *Alexandria* القديمة ^{في} *Pir-am-us* ، ومنها أخذ الاغريق كلمة *Pyramis* ويضاف للهرم وفقا لطول فترة حكم الفرعون الذي بناه ، فكلما تزدادت فترة حكمه ازداد حجم الهرم ، فالهرم ينمو بزيادة فترة حكمه ، والاختلاف في ارتفاعات الأهرامات تمثل - وفقا لهذا - الاختلافات في مدد حكم مؤسسيها ، بينما ترتيبها الموضعي بحيث يتبع بعضها بعضا من الشمال الى الجنوب فيمثل في عين المراقب ترتيبها الزمني (الكرونولوجي) أيضا .

والدخول للأهرامات يكون - دائما - من الشمال . ويفلق باب الهرم بكتلة جرانيتية ، وبعد المدخل يوجد انحدار ، ثم ممر مستو ينتهي بغرفة الدفن نفسها حيث مومياء الفرعون في تابوت عادة ما يكون من الجرانيت ، في الجانب الغربي من الحجرة .

وأحجار الأهرام التي تشبه درجات السلم منعمة من الخارج وعندما تثبت معا تبدو ذات سطح أملس ، فيبدو الهرم بأحجاره تلك كتلة واحدة من القاعدة الى النقطة المستدقة في أعلاه ، متخذًا شكل مثلث .

وقد فتح الباحثون عن الكنوز معظم الأهرامات منذ وقت باكر . فقد بحثت الفرس بقيادة قمبيز ، وكذلك الرومان ثم الخلفاء العرب عن كنوز مدفونة داخلها ، وفي أيامنا تلك جرت محاولة أخرى للتوغل داخل أهرامات سقارة .

ووفقا لما ذكره برجش باشا ، فقد كنا أول أوريين يزورون هرم الملك إبى منذ فتح .

وحتى فى الأزمنة الكلاسية فان أهرامات الجيزة العظيمة كانت تعد من بين عجائب الدنيا ، ولا زالت هذه الأهرامات تثير اعجاب معاصرنا حتى الذين لا يعجبهم العجب منهم . فالكتل الحجرية الضخمة المستخدمة فى تشييدها ، بل وحتى طريقة توزيعها فى هذه المباني العملاقة ليس لها نظير فى أى مكان آخر . وهرم الجيزة الأكبر كان ارتفاعه - فى البداية - أربعمائة قدم وخمسة عشر قدما (٤١٥ قدما) ، وقدرت أحجاره بما لا يقل عن خمسة وسبعين مليوناً من الأقدام المكعبة (٧٥٠٠٠ ر ٠٠٠ قدم مكعب) ، ومن التقديرات أن الأحجار المستخدمة فى بنائه تكفى إقامة سور بارتفاع ستة أقدام حول فرنسا . وقد حددت النقوش اسم صاحب الهرم . انه خوفو Chufu ويكتبه المؤلفون الكلاسيون Cheops الذى حكم مصر سنة ٢٧٠٠ ق.م . أمام هرم ابنه وخليفه خفرع Chafra (وهو Chephres بالنسبة للاغريق) فقد تم انشاؤه فى اتجاه الجنوب الغربى من الهرم الأكبر ، ولا يزال هنا الهرم الثانى (هرم خفرع) يحمل غطاءه الملاطى old Coating الخارجى .

وعند سفحه كان يوجد هرم خاص على شكل معبد شيد من كتل حجرية كلسية وجرانيتية ومرمرية (ألبستر) ، ووجد طريق يمتد الى الشرق ربط هذا المعبد بما يسمى معبد أبى الهول Temple of the Sphinx وبقايا هذا الطريق لا تزال واضحة ويدل على أنه بحالة جيدة ، ، وقد تم تنظيفه مؤخرا من رمال الصحراء . وأرضية معبد أبى الهول يوجد بها فى قاع بئر ممتلئة الآن بالماء - عدة تماثيل للملك خفرع تم اكتشافها . وتحظى باهتمام خاص من السائحين الأوريين . لكن ليس من نقوش على الجدران الجرانيتية والمرمرية لهذا المبنى العملاق ، وظل الهدف من انشائه لغزا لم يحل ! .

وفيما يلي قائمة بالأهرامات ومشيدتها من الملوك

الأسرة	الاسم باليونانية	مؤسسه	الهرم	المكان
الرابعة - ١	سوريس Sorid	سنفرو Snefru	خا Cha	أبو رواش Roash
الرابعة - ٢	Cheops	خوفو Chufu	خوت Chut	الجيزة Gizeh
الرابعة - ٣	Chcphren	خفرع Chafra	وير Uer	
الرابعة - ٤	Mycerinus	منقرع Menkara	هير Hir	
الرابعة - ٧	Sebercheres	Scheps-Kaf شيسسكاف	كيباه Kebeh	Zauit el-Arian
الخامسة - ١	Usercheres	أوسركاف Userkaf	أب ست Ab-set	Rigah
الخامسة - ٢	سيفر Sephres	سحورع Sahurah	خابا Chaba	أبو صير Abusir
	؟	كيا keka	؟	
	؟	نوفرا Nofra	؟	
الخامسة - ٦	Rathures	رانورع Ranurer	مست Menseet	
الخامسة - ٧	Meruheres	مكاهور Menkahor	نوتر - ست	سقارة Sakkara
الخامسة - ٨	Tatcheres	تاتكارا Tatkara	نوفر	
الخامسة - ٩	Onnos	وناس Unas	نوتر - ست	
السادسة - ١	Othoes	تيتا Teta	تات - ست Tat set	
	Usercheres	أوسركاف Userkara	؟	
السادسة - ٤	Phiops I	بيبي الأول Pepi I	من - نوفر Men-Nofer	
السادسة - ٥	Menthuphis	هينوماسوف Hunemsaf	خا نوفر Cha-Nofer	
	Piophs II	نوفركارع Noferkara (Pepi II)	من - آته Men-Anoh	

والنصف الأدنى من (أبو الهول) مغمور في الرمال وتسميه النقوش هو Hu ، وتصفه باعتباره تجسيدا رمزيا لاله الشمس باسمه هورماشو (هورماخو) Hormachu (حورس) ، وملاحح التمثال التي اعترافا - لسوء الحظ - تدمير شديد ، تمثل موجد الملكة . its royal author

وثمة شريط طويل من النقوش بين القدمين الأماميتين لجسم الأسد ، لكن هذه الكتابات مطمورة الآن في الرمال وهي تسجل حلما ملهششا لواحد من الفراعين المصريين الأواخر . فقد نسب الى تحتمس الرابع Thutmes IV (دفن حوالي ١٥٣٠ ق م) هذه الرؤيا :

« انظر ، لقد كان ميالا ليصطاد - للترفيه عن نفسه - في زمام مقاطعة منف - جنوبا وشمالا - حيث قذف بسهامه النحاسية على الهدف ، فاصطاد أسود وادي الغزال .

لقد أتى هنا في عربته الملكية التي تجرها خيول أسرع من الريح . وكان معه اثنان من خدمه لا أحد يعرف عنهما شيئا .

وانظر اليه عندما يحين وقت الراحة ، ذلك الوقت الذي يهبه لخدمته ، فانه يكرس هذا الوقت لتزيين (أبو الهول) الخاص بالاله هورماشو Hormachu ، الى جوار معبد الاله سوهار Sohar في مدينة الموتى ، والربة رانتوني Ranuti ، بتقديم القرابين من القمح والزهور ، ويصلي لايونيس Isis التي أمر من أجلها ببناء السور الشمالي والسور الجنوبي ، ويصلي للاله سخط Sochet في جزايس (سخا) وللاله سوتيك Sutek من أجل السنخز الجليل الباقي من عصور مضت في هذه البقعة المقدسة ، بل وحتى للمناطق التي تقطنها آلهة بابلون (القاهرة القديمة) وحيث يوجد الطريق المقدس للآلهة في الجانب الغربي من هليوبولس Heliopolis . من أجل مشاهدته أبي الهول الاله العظيم الشامخ شبر Cheper الباقي في هذا المكان ، الأعظم بين الأرواح والأكثر عظمة . الذي اليه يتوجه كل قاطني منف وكل مدن مصر بالعبادة رافعين أيديهم نحو وجهه ، ولتنحرف له الأضاحي .

« لقد حدث ذات يوم يوم أن الأمير تحتمس أتى هنا في رحلة في منتصف النهار تقريبا وبعد أن استظل بظل هذا الاله أخذته سنة من النوم فرأى فيما يرى النائم في اللحظة التي تكون فيها الشمس وقفت في السميت ، لقد بدت له كما أن هذا الاله الجليل تحدث اليه بغمه حديث الأب لابنه قائلا : « شاهةئي ، وانتبه لي جيها أنت ابني تحتمس . أتا

أبوك هورماشو ، أنا الاله شبر - را - تم . سأهيك الملك . ستلبس تاج
عصر على عرش اله الأرض كب *tabk* ، ستصبح الأرض كلها لك بطولها
وعرضها يثمرها نور العين المشدة لرب العالمين *Lord of all* ستأزيك النروات
من المناطق الداخلية وستجيب كثيرا من كل الناس وستنعم بعمر مديد .
وستحظى بالأفضل لأن وجهي قد استدار لك وقلبي تعلق بك . رمال
الصحراء قد غطتني . قل انك ستفعل وفقا لرغبتى ، عندئذ سأعرف أنك
ابنى المدافع عني . اقترب منى ودعنى أتحد بك » .

« عندئذ استيقظ الأمير وكرر ما سمعته للتو : لقد فهم قول هذا
الاله ووعاه فى نفسه ، بينما هو يقول :

« فى الحق انى أرى الناس فى معابد منف . يقدمون الأضحيات
لهذا الاله دون أن يفعلوا شيئا لحمايته من الرمال عمل الملك خفرع ،
الصورة (التمثال) التى رفعها (كرسها) للاله ثوم - هورماشو
- *Tom Hormachu* ... » .

واعترى النص تشويه بعد ذلك وتعذرت قراءة ما بقى منه . وان
كان من السهل تخمين ما حدث بعد ذلك . فقد أزاح تحتبس الرمال من
حول (أبو الهول) ومن ثم توج ملكا لمصر . وهى حقيقة ليست ذات
قيمة تاريخية كبيرة ، لكن الطريف أنه حتى فى القرن السادس عشر قبل
الميلاد كان أبو الهول - كما هو الآن - مطمورا الى نصفه فى الرمال
العميقة . وساضيف هنا الى هذه المقتطفات التاريخية بعض الملاحظات
عن الفيوم لأنها تمتد الى الجنوب من منف القديمة . يرجع الاسم الحديث
الى الكلمة القديمة با - جوما *Pa-Juma* وتعنى أرض البحيرة ، والمقصود
هو بحيرة موريس *Moeris* التى كانت شهيرة جدا - لكنها الآن تلاشت .

وكانت بحيرة موريس - فيما مضى - الجزء الجنوبي الشرقى
من واحة الفيوم ، وكانت بمثابة مخزن طبيعى للمياه متصل بالنيل عن
طريق قناة عريضة ونظام للتصريف يؤدي لوصول فائض مياه الفيضان
اليها (٤) .

وتستقبل القنوات ما يكفى لرى الأجزاء الرئيسية فى الواحة
(الفيوم) وتحول هذا الحوض (مخزن المياه) الذى كان ذات يوم غير
ذى جدوى بمرور الوقت الى حديقة للاله *Garden of God* ونتيجة لاهمال
الحكومة اختفت البحيرة بعد أن وجد ما بقى بها من مياه طريقه الى بحيرة
قارون . وكل المنطقة المحيطة بالفيوم كان يعتبر بالنسبة للمصريين
القدماء - شيطانيا *Satanic* لذا فهذه المنطقة لم تظهر أبدا فى القوائم
المقدسة للمدن ولا قوائم أسماء المقاطعات *districts* .

فهنا كانت مملكة ست ، وهو بمثابة الشيطان بالنسبة للمصريين ،
وهنا مركز عبادة التمساح الذى يكرهه بقية المصريين خدم أوزيريس •
وكان يوجد معبد مخصص للتمساح فى مدينة كروكوديلوبولس
Crocodilopolis بجوار مدينة الفيوم الحالية •

وقبل أن أترك هذه المناطق المصرية المهمة التى لفتت انتباهنا طوال
الفصلين الأخيرين للتراث الثالث للمصريين فى عصر الفراعنة سأضيف
القوائم التالية (*) •

وبعد أن تسلقنا هرم الملك بيبى الأول ببعض المشقة والمعاناة ،
غادرنا الصحراء وآثارها القديمة وركبنا عائدین الى الأرض الزراعية •

واجتزنا أثناء الطريق مزارع الأريفة (أشجار نخلية) Areca (**)
التي تشكل بيئة مناسبة جدا للأغراض الصيد فأرأينا أن يقوم خدمنا
بإثارة الطرائد فيها وشاركهم فى ذلك بعض الفلاحين ، ومما يؤسف له
أن مالك الأرض ظهر فجأة ورغب البنا ألا نتنكب حرمة ممتلكاته •

وكان هذا الشخص الذى لا يعرف التراجع زنجيا عجوزا ، وكان
أثما (طواشيا) ضخما حجمه كآته جان ، لكنه كان نحىلا ذا ملامح مترهلة
وكان يلبس عباءة واسعة وعريضة - انه واحد من أبشع وأقبح من رأيت
على الإطلاق ، وكانت نظرتة عدوانية وقد اكتسب من مهنته المحترمة قدرا
كبيرا من المال ، وهو يقضى الآن شيخوخته فى ممتلكاته الواسعة •
وتجنبنا الخلاف معه فركبنا للبدرشين ومن هناك أوصلنا القطار للقاهرة
فى أقل من ساعة ، وها نحن مرة أخرى - بعد هذه الرحلة الطويلة المليئة
بالخبرات الممتعة - نعود للقاهرة الجميلة - مدينة الخلفاء •

(*) الحقنا هذه القوائم باخر هذا الفصل - (المترجم)

(**) يسمى أيضا نخيل الكوئل - (المعجم الزراعى)

الأقسام الجغرافية والإدارية لمصر
كما وردت بالإحصار
(١) به - تو - ريس (مصر العليا)

The Political And Geographical Division of Egypt According To The
Statement on The Monument.

A. Pa — To — Ris, or The Land of the South.

Province	ARABIC	GREEK	SACRED ANIMAL
1. Tegah	Alfih	Aphroditopolis	Cow
2. Smenhur	Ismen	Ptolemais	Ram
3. Chinsu	Ahuas	Heracleopolis Manga	Ram
4. Pimaza	Pemdige	Oxyrinchus	Beaked bandolus (fish)
5. Habennu	Hebe	Hipponus	Dogs
6. kasa	Kais	Cynopolis	Dogs
7. Hibonu	Minieh	Hiu	Ram
8. Chimunu	Aschmun	Hermopolis Magna	Ibis
9. Kus	Kos	Cause	Dogs
10. Siaut	Ossiut	Lykopolis	Dogs
11. Nientbaki		Hieracoupolis	Falcon
12. Shasholf	Sholp	Hypselis	Ram
13. Tebu	Atfi	Aphroditopolis	Cow
14. Apu	Abu	Panopolis	Ichneumon
15. Abidu	Harabat	Abydus	Beetle
16. Hau	Hon	Diospolis Parva	Cow
17. Tentaris	Dendera	Tentyra	Cow
18. Kobti	Kift	Koptus	Ram
19. Ni-amon	Lugzor-Karnak	Thebae	He-goat
20. Nechab	El-kab	Eileithyiaopolis	Vulture
21. Teb	Edfu	Apollinopolis M.	Falcon
22. Ab	Assuan	Elephantine	Hè-goat

(ب) با - تو - انخت (أرض الشمال - الدلتا)

PROVINCE	ARABIC	GREEK	SACRED ANIMAL
1. Kosem (Goshen of Scripture)	Fakus	Phakusa	Hawk
2. Am	Far-ama	Pelusium	Serpent
3. Pibast (Pibeseth of Scripture)	Tell-bast	Bubastis	Cats
4. To-mchit (No-amon of Scripture).	Damiat	Diospolis	He-goats
5. Bindad	Amdid	Mendes	He-goats
6. Chimum	Ashmun	Hermopolis	Ibis
7. Zaan (Zoan of Scripture)	San	Tanir	Falcon Gull
8. On (On of Scripture)	Matarich	Heliopolis	Ox
9. Thabennuter	Samanud	Sebennytus	Falcon
10. Kahebes	?	Cynopolis	Crocodile
11. Hatarihab	Etrib	Athribis	Ox
12. Pუსisi	Abusir	Bpsiris	Ram
13. Pitom (also in Scripture)	Tell-el-Kebir	Patumus	Eel
14. Sontinofer	Alexandria	Gyynaecopolis	Crocodile
15. Chasun	Hasse	Sais	Ram
16. Sai	Sa	Prosopis	cow
17. Zokpir	Shebshir	Apis	Crocodile
18. Ni-ent-hapi	?	Letopolis	Ox
19. Sochem	Ausim	Memphis	Hawk
20. Menofir (Noph of Scripture)	Munf		Ox

تعليقات المترجم على الفصل الخامس

(١) راجع تعليق رقم ٧ بالفصل الرابع .

(٢) راجع تعليقات الفصل الرابع .

(٣) يلاحظ القارئ الكريم أن دلالة الكلمة في اللغة العربية هي الدلالة نفسها التي يحملها اسم هذه الربة المصرية القديمة .

(٤) في وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية أن بحيرة قارون هي نفسها بحيرة موريس .

الفصل السادس

يوم فى القاهرة - حديقة الأزبكية - مولد الحسين -
الى الجزيرة والجزيرة - الصيد عند الهرم - الرحلة الى
المنزلة - دمياط - بقايا الهكسوس - جزر المنزلة -
بورسعيد - البرود الانجليزى - ارتطام فى التفتاة -
من بورسعيد للاسماعيلية - الى القاهرة - شجرة مريم -
مزرعة النعام - الحمام التركى - القلعة ومسجد مذهب
على - شخصية محمد على - مذبحه الجماليك - بشر يوسف
- الكتبخانة - الحاوى - الى القناطر - البراويش -
الرحلة للسويس - عن برزخ السويس - سيناء - عيون
موسى - لقاء مع دى لبيس العجوز - الى بورسعيد -
مغادرة مصر - رسوم الفنان بوسنجر * تعليقات
الترجم

ووصلنا من المحطة الى مدينة الخلفاء القديمة (القاهرة) بعد أن
قطعنا طريقا جميلا تحفه الأشجار وعبرنا جسرا ضخما على النيل ، وكانت
شوارع المدينة تغص بالحياة ، فالوقت كان عصرا .

العربات والعرجية ، والسائرون على أقدامهم * سرعة ذات طابع
غربى ، ونشاط جنبا الى جنب مع قوافل الجمال والنسوة القرويات
المحجبات والحمر الناهقة والسقاءون والمتسولون العمى - وكل ما له
رائحة الماضى ، وكنا سعداء أن نعود مرة أخرى للاستمتاع بالحياة فى
القاهرة * وسرعان ما وصلنا بعد أن مررنا بالحى الغربى وعبرنا جسر
ترعة الى طريق شبرا الذى تحفه الأشجار ومن ثم الى مقر اقامتنا فى قصر
النزهة .

وبعد أن استرحمنا وتناولنا عشاءنا شغف بعضنا سحر الليالى
الافريقية القمرية فاتخذنا سبيلنا الى داخل المدينة بعربات مستأجرة .

حديقة الأزبكية :

وتوقفنا فى حديقة الأزبكية وتحولنا بين الأشجار والنباتات وبالقرب
من البرك وحول مساقط المياه الصناعية والصخور والاكشاك .

وكان الناس جالسين فى معظم المطاعم - خاصة أهل الشرق الأدنى
العاملين فى التجارة - ورأينا الشباب يقضون وقتهم فى الشراب والاستماع
للموسيقا ولعب الورق .

وتعتبر حديقة الأزبكية هذه نعمة عظيمة للقاهريين . خاصة فى
فصل الصيف . انها حديقة تلقى العناية ويتم الانفاق عليها بسخاء كما
انها مزدهرة ويانعة بفضل المناخ الملائم . ويبلغ تأثيرها أروع درجاته عندما
يكون القمر بدرا ، أما بالنسبة لنا فقد بدأ لنا قمر القاهرة شاحبا ، ولا غرو
فهو بالفعل كذلك اذا قورن بقمر أسوان .

مولد الحسين :

ومن حديقة الأزبكية انطلقنا لنجول خلال الحي العربى القديم ، وقد
اخترنا أمسية مناسبة ، وكان ذلك من مجاسن الصدف اذ كان المسلمون
يحتفلون بمولد الحسين the feast of the great El-Hossein لنا ، فقد
استمتعنا بمنياظر شائقة للغاية لمهرجان شرقي ليلي كان معقودا فى
الشوارع القريبة من المسجد الذى يحمل اسم « مسجد الحسين » .

جموع كبيرة من الناس كانت تتحرك فى الشوارع الضيقة غلوا
ورواحا ، والحوانيت والمقاهى مشرعة أبوابها والمصاييح والشموع مثبتة
الى البيوت ، وقد بسطت سجاجيد زاهية فى الطرقات ، وتندلى فى الشوارع
الثريات الزجاجية معلقة فى حبال ملونة ، وكل المنازل مزينة بزينات غالية
أو رخيصة وفقا لمدى ثراء ملاكها . كان كل شىء مبهجا يغمره الضوء ،
وكانت الألوان زاهية متعددة ، وكانت المشاهد خصبة خصوبة تفوق
الوصف .

وراح المسلمون من مختلف الطبقات والمهن يدفع بعضهم بعضهم
الآخر (يزغد بعضهم بعضا) ، لقد كان الجميع يتزاحمون وهم فى طريقهم
لمسجد الحسين الذى بدأ فى أحسن زينة ، وقد تدلت المصاييح من
أبوابه الواسعة المشرعة - وترى فى هذا الجمع المزدحم المتجه للمسجد -
الفلاحين التقايدين بأثوابهم الزرق والسقائين وهم يصيحون ، والمتسولين
وهم يشكون والعرجان وهم ينتحبون ، كما ترى البدو بعباءاتهم البيض
والتجار المكتنزين لحما ، والمحترمين الذين يرتلون ملابس ذات ألوان
مفرحة ويضعون عمائم خضرا على رؤوسهم بزعم أنهم من سلالة الرسول
(صلى الله عليه وسلم) والجنود وبائعى مختلف البضائع والأشياء .

ومن هنا توجه الجمع المزدحم الى الجانب الأعلى من الطريق حيث
الحواة الذين يلعبون بالأقماعى والمشعوذون والراقصون والراقصات
مما أضفى على الطريق روح السوق الشرقية .

وكان معنا فى هذه المناسبة يرچس باشا Brugsch فتصبحنا بعدم الذهاب للمساجد ونحن فى ملابسنا الغربية لكثرة المتعصبين به فى ذلك الوقت ، ومن ثم فقد شققنا طريقنا الى حيث المشعوذين والحواة لتراقب الحياة الوطنية الحقيقية للشعب . الشارع يصعد بنا تصعدا وثميدا ، لذا فلم نتمكن من القاء نظرية فورية شاملة على هذا الخليط وعلى الألوان الغربية والأضواء . لقد بدأ غربيا ومسعورا بالنسبة للمسلمين الشرقيين وذكرنى بشدة بالباليه البندقى (الفينيسى) الذى يمثل مهرجانا شعبيا صينيا .

وبعد فترة عدنا الى الحى الأوروبى حيث كانت المقاهى ومحلات النيذ لازالت مزدحمة . هنا - كما فى أى مكان فى بلاد الجنوب - يتحول الليل الى نهار ورأينا الأوربيين الشرقيين من أغنياء وفقراء لكنهم كانوا يضعون الطرايبش فوق رؤوسهم ويلعبون البلياردو والورق أو يستمعون الى الفرق الموسيقية .

زيارة الخديو :

وفى صباح اليوم التالى زرنا الخديو Viceroy لنشكره للكرم الفائق الذى حظينا به أثناء رحلتنا النيلية . ولم تكن زيارتنا هذه رسمية ، لذا فقد اتجهنا قبل الظهر تماما قاطعين الطرقات غير المزدحمة الى القصر . وقضينا ربع ساعة مع الخديو نشرب القهوة المعتادة وندخن السجائر الممتازة وسأل (الخديو) بشوق بالغ عما نخلصنا به من تجارب فى رحلتنا النيلية المبهجة .

الى الجزيرة والجزيرة :

وعدنا من القصر سالكين أقصر الطرق الى قصر النزهة لترتدى ملابسنا الرياضية ، وبعد فترة راحة قصيرة بدأ جمعنا كله للقيام بنزهة لمقرات Seats نائب السلطان فى الجزيرة والجزيرة .

الحدائق ذات جمال فريد ، ببحيراتها ومحطات مياهها ونوافرها وأكشاكها (ظلاتها الخشبية المعدة للراحة) ومجازاتها المغطاة بالخضرة وطرقاتها الظليلة ، وروعة زروعها ، وكثرة زهورها التى تنثر عطرها على نحو لا يوجد الا فى مثل هذا المناخ . لقد أدت حرارة المناخ بالشرقيين الى أن يحيوا حياة بطالة (حياة غير فعالة) فنتج عن ذلك ذوق مصفى وعادات مترفة فصور مناظر وحكايات الشرق الخيالية ، يراها المرء هنا وقد تحولت الى واقع ملموس ، فالمرء يجد هنا كما يجد فى حكايات الشرق أن السعادة والمتعة هما الهدف الوحيد للحياة ، ولم يعد موجودا - لسوء الحظ - هنا

معرض الوحوش المشهور جدا - الذي أقامه آخر نائب للسلطان ، فلم نجد
الا أقباضا خاوية .

ولم يكن المنزل (الذي آقمنا فيه) يبعث على السرور كثيرا فقد كان
المبنى واسعاً ليس له نمط مميز ، وإنما كان ذا طابع أوروبي تماما لا يذكرنا
بالشرق الا من خلال بعض الزينات العربية هنا وهناك . وكان يضم من
الداخل كثيرا من السلالم والقاعات ، والأهم من ذلك أنه كان يضم ما لا يحصى
من الغرف بدت غربية الطابع الا أنها جميعها مطلية بطلاء ذى لون فاتح
وبدت جرداء . وذكرنا أننا فى الشرق بعض الدواوين التى فرشت بشكل
جميل وأشغال الرخام والكوات الصغيرة فى الجدران وأوانى الزهور والمياه
الجارية والحمامات الجذابة .

وثمة أماكن كثيرة داخل القاهرة وحولها تكاد تكون غير مأهولة
بالسكان . وتحمل بعض الأميرات كبيرات السن حياتهن الرتيبة المملة
فى هذه القصور حتى النهاية ، ولأن صيانة هذه المباني تتكلف مبالغ
طائلة فانها تترك حتى يعثرها الخراب بالسرعة نفسها التى تم تشييدها
وتزيينها فيها . فكما أقيمت بسرعة ، فانها تخرب بسرعة ! .

وقد زرنا كل ركن فى هذه الحدائق وتلك المنازل ، ومن ثم اتخذنا
طريقنا الى أهرامات الجيزة .

كانت الحرارة شديدة وكانت الرياح تقذف برمال الصحراء الى
أنوفنا وعيوننا ، لذا فقد سعدنا عندما انتهينا من قطع هذا الطريق الممل
الطويل ، ووصلنا الى سفوح هذه المباني العملاقة .

الصيد عند الهرم :

وكان هدفنا من زيارتنا للأهرامات للمرة الثانية هو اصطياد
حيوانات ابن آوى ، وتسلق هرم خوفو ، وبدأ بعض العرب فوراً فى البحث
(بين صخور) هذه المباني الجليلة ولم يجدوا الا حيوانين من هذه الحيوانات
(حيوان ابن آوى) : قتل الدوق الكبير واحدا منهما ، وأطلقت أنا النار
على الآخر لكنهما كان بعيدين جدا ، فزحف الحيوان المصاب الى الصحراء .

ولم يكن ثمة أحد عند الهرم الثالث الصغير لذا فسرعان ما قررنا
تسلقه ، وتحمل رفاقي المشاق فتسلقوه فى عشرين دقيقة دون وقوع
حوادث خطيرة ، ورجعت أن أعطى العرب الذين تراحموا حول السائحين
ودأخوا يرفعونهم خطوة خطوة - الفرصة لممارسة تدريباتهم الرشيقة
فرحت أقفز من حجر الى حجر فوصلت الى قمة الهرم فى تسع دقائق :

ون فوق صخرة مسطحة فى أعلى الهرم يمكن للمرء أن يشاهد منظرا
جميلا لوادى النيل الأخضر والأرض المنصبة المنبسطة لادانا تضر الصحراء
ذات اللون البرتقالى من الجانبين ، ومدينة القاهرة الجميلة ببيوتها المزخمة
وماذنها السامقة .

كانت الشمس تزدن بالمحيب ، فبدأ قرصها ككرة من لؤلؤ فى عذا
المجر الضبابى المصفر المقعم بالحرارة ، العامر بذرات الرمال - واختفى
قرصها فى صحراء مصر الغربية (الصحراء الليبية) وهبطت فى المساء على
الجبال الشرقية وظهرت القلعة القديمة وجبال المقطم فى ألوان وردية
خفيفة كالوان جبال الألب عندنا .

وجرى بعض المرشدين العاملين عند الهرم - خاصة البارعين منهم
فى الجرى - أملا فى الحصول على بقشيش ، ليهبطوا - فى ثمانى دقائق .
قمة هرم خوفو . ويصعدوا قمة هرم خفرع ، مع أن الجزء العلوى من هذا
الهرم الأخير خطر جدا ومن الصعب تسلقه فليس به درجات يمكن الصعود
عليها .

وبعد استعراض المهارات هذا هبطنا من محطتنا الشامخة هذه وفى
الطريق أخبرنا مرشد شاب ذو ملامح جميلة وسحنة عربية أصيلة أنه
ليس مصرياً ، وليس واحداً من الفلاحين البؤساء وإنما هو يشرف بأنه
ينحدر من سلالة جزائرية نبيلة ، وأنه كرجل رأى العالم لا يعرف تونس
فحسب وإنما مراكش أيضاً حيث يعيش العرب الحقيقيون لا البشر
المخلطون البائسون الذين يعيشون فى وادى النيل . وكان هذا الرجل
الطيب يبدو ساخطا جدا على مواطنيه (المصريين) ونفس عن مشاعر
السخط هذه بوضوح عندما وجد أن حواراه شائق بالنسبة لى .

وعند سفوح الأهرامات كان علينا أن ننظر بارتياح الى ما يفعله
بعض البدو . لقد ركبوا ، ودابة أحدهم خلف دابة الآخر وانطلقوا بأقصى
سرعة وأطلقوا النار من بنادقهم ولم يكن هؤلاء الرجال ولا خيولهم
ولا ملابسهم ولا بنادقهم فى هيئة يمكن وصفها بأنها جميلة أو أصيلة ،
فحيثما يذهب المرء يجد ابتزازا وخداعاً تحت شعار ما يسمى بالعروض
الوطنية ، وتعتبر الأهرامات هى محط أنظار السائحين ، وينتهز البدو
فرصة ذلك فيمارسون خداعهم الغبى . انهم ينتمون الى نفس الفئة التى
تنتمى اليها الأطباء المجتررة التى تجلسها مغرورة متشجعة فى غابات
سويسرا .

لقد زحف المساء وكان علينا أن نكر عائدين الى مقر اقامتنا بسرعة
سالكين الطريق نفسه الذى آتينا منه ، كما كان علينا - أثناء العودة -

أن نمر بشوارع المدينة التي كانت في هذه الساعة مفعمة بالحركة والنشاط ، ولما انتهينا من تناول وجبتنا اتجهنا للسكة الحديدية لنتجه الى المنزلة .

الرحلة الى المنزلة :

وتجمع بعض الرجال في محطة القاهرة لوداعنا ، وكان من بينهم صديقنا برجش باشا . وكان البارون ساورما حاضرا وجاهزا ليصحينا الى بحيرة المنزلة . وفي غضون دقائق أخبرنا هر زمرمان Zimmerman رفيقنا المخلص في كل رحلة قطار أن الوقت قد حان لنبدا رحلتنا .

لقد تحدثنا كثيرا خلال الساعة الأولى في القطار ثم شرع كل واحد منا ينسل طلبا للراحة ، وحتى لا يكون هناك سبب لقطع نومنا ، سمح لحافلتنا بالتوقف في محطة دمياط التي وصلناها ليلا . ولما استيقظنا مبكرا في صباح اليوم السابع عشر من شهر مارس وجدنا عربتنا وحيدة على جانب المحطة .

ويمجرد أن تجمع رفاق الرحلة هبطنا على شاطئ الترع (؟) وحملنا زورق بخارى للناحية الأخرى .

دمياط :

لقد سرتني دمياط كثيرا . انها عربية أصيلة وحتى المناطق التي تحده الترع Canal ذكرتني فجأة بالموانئ الهولندية والبلجيكية . وبدت دمياط مثل انتورب Antwerp وقد نقلت الى بلاد العرب بفضل السفن الصغيرة التي راحت تبخر قادمة أو مغادرة بأعلامها وصواربها الجميلة .

وذهبنا سيرا على الأقدام من الرصيف الى منزل ممثلنا القنصلي وهو رجل عجوز مضحك ومهمل . انه - بالضبط - مثلنا .

وداخل دمياط ذو طابع شرقي واضح فشوارعها - اذا أمكن تسميتها بهذا الاسم - أشد قذارة وأكثر ضيقا ، وأكثر تزيينا بالزوايا والسلالم الخشبية ، من معظم المدن العربية . وحيث تختفي المياه الجارية بعيدا عن المنازل ، تختفي الروح الهولندية التي تميز مدينة دمياط .

وعلى أية حال ، ففي دمياط يهب هواء ذو طابع شمالي (أوروبي) (ان كانت كلمة شمالي هذه مناسبة لأفريقيا) أكثر مما يحدث في أحياء القاهرة العربية أو مدن صنعيد مصر . وفي بعض الأحيان يحس المرء بالبرودة هنا كما أن وجود البحر يجعلنا نحسن بالترطوبة .

والمنازل هنا غير مزدحمة (أكثر تفردا وانعزالا) أسقفها جيدة ،
ويتعبير آخر فانها قد شيدت لتمتكت فترة أطول .

وفى منزل ممثلنا وجدنا كل شىء منظما جميلا - غرف أوروبية
مفروشة بسجاجيد تركية ، وخدم عرب ، ورائحة الشرق ، وعطر الزهور
ذو الرائحة النفاذة ينتشر فى كل أرجاء المنزل . وفى كل شىء يمكنك أن
تلمح أن صاحب المنزل شرقى أصيل .

الى بحيرة المنزلة :

وبعد أن تناولنا افطارنا على عجل (وكانت أمتعتنا فى هذه الأثناء
توضع فوق ظهور الخيول) بدأنا رحلتنا من جديد . وامتطى بعضنا حميرا
وركب اثنان من جماعتنا حنطورا (عربية قديمة الطراز) ، وفى غضون
دقائق قليلة تحركت قافلتننا الصغيرة ينظم مسيرتها صيحات الحمارة
(بتشديد الميم) ، وسار موكبنا فى بعض الشوارع حتى وصلنا الى طريق
جيدة تحفها البساتين والمنازل الريفية وبعض غابات النخيل غير الكثيفة ،
على طول ترعة حتى وصلنا الى شاطئ البحيرة . ورأينا ثلاثة أكواخ بائسة
للصيادين على الشاطئ الرملى ، وأمامنا امتدت البحيرة العريضة لا تحدها
حدود وقد اعترت مياهها الدكنة ، وشواطئها سبخات وكثبان رملية ، وكان
منظرها موحشا رتيبا ساكنا سكون النوم .

وفى المنزلة لم أستطع - حقيقة - أن أقنع نفسى أننى لازلت فى مصر .
حيث بهاء الألوان وخصوبتها . ولم يكن الجو ملائما وكانت الرطوبة
محسوسة ، والرياح الباردة غير المحببة أجبرتنا على ممارسة رياضتنا تحت
السحب الممطرة الداكنة ، وكانت السماء عابسة تماما . لقد بدا كأننا
عدنا للشمال (لأوربا) مرة أخرى وتذكرنا بحسرة شمس أسوان التى
لا تنسى . ان هذه البحيرة الكثيبة جديرة بأن تكون احدى بيارات سهول
شمال أوربا ، ورست السفينة (الذهبية) أمام أكواخ صائدى الأسماك .
وفكرت أن قراصنة الماضى لم يكونوا يستخدمون قوارب أسوأ من تلك التى
يستخدمها صيادو بحيرة المنزلة ، فقواربنا النمساوية الصغيرة تعتبر
فرقاطات (سفنا شراعية حربية) اذا قورنت بها . وكان يتحتم علينا أن
نختار لأنفسنا بعض هذه القوارب البائسة ، فاخترت أنا والدوق الكبير
والبارون ساورما والقسيس المرافق لنا أكبرها ، وكل اثنين من رفاقنا
استقلا قاربا ، وتبعنا قارب آخر يضم الأعلاف والطعام .

ويكفى أن أصف قاربا من هذه القوارب لينسحب وصفى عليها
جميعا . لقد كانت جميعا بحالة سيئة فى المقدمة مكان مرتفع يحيط بالدقل
(الصارى) وعلى هذه المقدمة المرتفعة مقاعد من خيزران ومنضدة صغيرة ،

وفي هذا المكان يمكننا قضاء النهار ، وهنا أيضا ينام الصيادان وطاقم القارب بالليل ، وإذا رفعت فتحة صغيرة فانك تكون قد فتحت خزانة صغيرة يمكن أن تخزن فيها الأمتعة ، وفي وسط القارب الى الأدنى من هذه المنطقة الأمامية المرتفعة بخطوتين توجد كيبنة (قهرة) صغيرة ذات نوافذ زجاجية ، وهذه الكيبنة (القهرة) مقسمة الى قسمين - وفي الناحية الخارجية يوجد سريران ضيقان ولا شيء آخر . وفي الحقيقة فان المكان لا يتسع لشيء آخر ، وفي الجانب الآخر يوجد نوع من الخزائن يمكن للمرء بشيء من الحذق والمهارة أن يصعد فوقها لكنها منخفضة جدا لا تتيح للمرء أكثر من الاستلقاء فوقها وثمة حشيتان تملآن هذا المكان الضيق . وفي هذا المكان يتحتم على رجلين ضئيل حجمهما أن يناما جنبا الى جنب ، دون أن تعترض أطراف أحدهما أطراف الآخر . ودقة هذا القارب موجودة عند المؤخرة .

بقايا الهكسوس :

وكان طاقم السفينة كله من صيادى البحيرة يلبسون ملابس واسعة مبهجة ويضعون العائم فوق رؤوسهم ولم يكونوا على قدر كاف من النظافة وقد عبقوا المكان (بزفارتهم) . ولم يكن لأى منهم طبع العربى وسماته . فجلودهم بنية داكنة ووجوههم عريضة وأنوفهم مسطحة flat (فطساء) وبنيتهم لها طابع رجولى ، ولكنهم ليسوا نحالا جدا ولا عصبيين كمعظم العرب ، ومن النظرة الأولى يمكن للمرء أن يحكم أنهم سلالة أجنبية (غير عربية أو مصرية) ، وفي الحق فان المناطق المحيطة ببحيرة المنزلة يقطنها سلالة الهكسوس القلماة وهم احدى القبائل الكوشية الذين هزموا الفراعنة زمن الأسرة الرابعة عشرة ، وقد احتفظ هؤلاء الهكسوس بجنسهم نقيًا (غير مختلط) . وكان علينا أن نكون فى قاربنا الصغير هذا بالقرب القريب من هؤلاء الناس ، وكان هذا أمرا شائعا من الناحية العلمية ، لكنهم على المستوى الشخصى أناس لا يحب المرء أن يعيش معهم ان كان له مطلق الحرية فى الاختيار .

وقبل أن نبدأ مباشرة أتوا بطائر بجع أعمى لاستخدامه كشرى ، وكان - على أية حال ينقر بمنقاره هنا وهناك ، كما كان قنرا جدا فأعدناه للشاطئ بعد وصوله بدقائق قليلة وتم ربط كل قارب كبير بآخر صغير ، وبدأت الرحلة : ان هؤلاء الناس يحركون أشرعتهم بمهارة فائقة ، وبمعاونة الرياح الغربية القوية انسابت سفننا بسرعة فوق سطح الماء . وتعد بحيرة المنزلة احدى أكبر البحيرات المالحة فى العالم ، وهى بحيرة هائلة لا يفصلها عن البحر (المتوسط) سوى شريط من كثبان رملية ، وعند شواطئها

الجنوبية والغربية السنة طويلة من مستنقعات وسبخات ، أما الى الشرق
فنجده مخرجها عند حاجز داخلي لقناة السويس .

Findr its outlet at the inner dyke of the Suez Canal.

وإذا غادرت دمياط وجدت - الى الشمال - شريطا من كتبان رملية
صفراء ووجدت الى الجنوب - لكن على مسافة بعيدة - مساحات خضراء ،
ووجدت - الى الشرق - المنظر ممتدا حيث الماء واليابسة يختلطان كما هو
الحال عند ساحل البحر . وفي البداية لم نر الا جزرا قليلة لكن مساحاتها
كبيرة . وعمق البحيرة التي تبلغ مساحتها خمسا وأربعين ميلا مربعا
- الآن - يزيد عن مفضل فخذ الرجل ، وقاعها من طوى متماسك *Stiff clay*
وأثناء العواصف - التي تبلغ درجة كبيرة من العنف أحيانا - لا يمكن أن
يعرق المرء فيها اذ بإمكانه أن يقف ويسير على قدميه في كل أنحاءها .

وفي شهور الشتاء تكون هذه البحيرة مغطاة تماما - بمعنى الكلمة -
بكل أنواع الطيور المهاجرة خاصة البط والأوز ، وفي النصف الثاني من
شهر مارس لا يجد المرء الا الطيور المحلية وبعض أسراب طيور الشمال
التي تأخرت في هجرتها ، أما نسور البحر الضخمة التي تصل للبحيرة
بأعداد كبيرة شتاء ، فلا تكون موجودة في شهر مارس باستثناء بعض
النسور المنقطة قليلة العدد يمكن رؤيتها في بعض جزر البحيرة .

وقد وافقنا في البداية أن يتفرق جمعنا وأن نتخذ كل مجموعة
الطريق الذي تريده شريطة أن نكون جميعا على مرأى من بعضنا وبعضنا
الآخر وأن نلتقى ظهرا عند اشارة متفق عليها لتناول الضاء . وسرعان
مارأينا بعض البجع يسبح وفشلت محاولتنا الاقتراب منه بقارب صغير ،
كما هي العادة ، فواصلنا طريقنا بالدهبية .

وبعد فترة يسيرة دخلنا منطقة الجزر . ان وسط البحيرة ممتلئ
تماما بالجزر المسطحة منها الكبير ومنها الصغير ، ومعظمها ذرات شواطئ
رملية ، وفوقها أسراب من البجع بأعداد هائلة . أكبر من الجزر نفسها ،
وكانت تتألق تحت أشعة الشمس بألوانها الحمراء التي تخللتها بقع
بيضاء .

واقتربنا ببطء وحذر من إحدى جماعات البجع هذه ، وبحيثنا
بمناظيرنا المقرية (التلسكوبات) بدقة ، فلم نر الا بجعا ، ولم نر بشروش
(فلامنجو *Flamingo*) واحدا ، وكان طائر البشروش هذا هو ما نود
رؤيته .

وعندما كنا على مسافة لا تقل عن خمسمائة خطوة ، بدأت طيور البجع تضطرب فمدت أعناقها الطويلة وحركت أجنحتها وانطلقت أربع من بناذقها لتقدم لهذه الطيور التي اعترتها الدهشة - تحية الصباح . فعم بينها اضطراب شديد ، وضربت بأجنحتها بحويية وانطلقت محلقة فغطت الجزيرة البيضاء بسحابة هائلة سرعان ما ألت بظلمها على الماء . والآن بدأنا نطلق النار بشكل فردى ، ومن الغريب أن أقول أن هذا كان بدون نتيجة فقد كانت الطلقات تذهب هباء بسبب بعد المسافة كما أن هذه الطيور التي تبدو قريبة جدا ومكتظة يوجد بينها فى الواقع مسافات . لم تسقط الا بجمعة واحدة - عندما أطلقنا الوايل الأول - هوت ميتة طافية فوق سطح الماء وخاض أحد البحارة لاحضارها .

ولما توغلنا فى الجزر زاد المنظر حيوية ، فقد كانت النوارس sea-mews وطيور الخطاف Sea-Swallow والبط تسبح بين الجزر بأعداد كبيرة . وكان يسبح حول الجزر أيضا (أبو ملعقة) Spoon bills والغطاس divers ويطر صغير حجمه لم نستطع تبيينها من على البعد . وثمة طيور رمادية وأخرى فضية وطيور البلسون (مالك الحزين) وأسراب من طيور محلية من أنواع مختلفة فى أسراب على الشواطئ الرملية (للجزر) ، ولم يكن لدينا الوازع القوى للتوقف فى أية جزيرة فلم يكن وقت الظهيرة قد حل بعد أن تجمعت سفننا وكان كل من معنا فى الدهبية قد استمتع بطعام افطار جيد تم اعداده فى السفينة (القارب) المخصص لاعداد الطعام وحمل المؤن ، وظهرت أمامنا جزيرة أكبر مساحة مزدانة ببرج أبيض .

هذا قبر شيخ (ولى) يحظى بتوقير كبير فى بحيرة المنزلة . وثمة أكواخ بائسة للصيادين الى جانب المبنى المهدم بقبته المستديرة ومئذنته المنحيلة التي تشبه المنارة ، ويفصل هذه الجزيرة عن جزيرة أخرى صخرية ممر مائى ضيق . وقررنا أن نتوقف هنا لنمارس الصيد سيرا على الأقدام ، وقد اختفى طائر البلسون (مالك الحزين) بمختلف أنواعه عند أول محاولة منا للاقتراب ، ومن ناحية أخرى فقد وجدنا على شاطئ الجزيرة عددا من الطيور الأصغر حجما - أبو مجرفة avosel or Scooper وهو طائر ملفت للنظر ريشه أبيض وأسود وساقاه طويلتان نحيلتان ، ومنقاره مقوس لأعلى ، وطائر الراف ruff (وهو طائر مائى تتميز ذكورهم فى فترة معينة بأطواق ريشية حول أعناقها) وأربعة أنواع مختلفة أو خمسة من عائلة طيور الشاطئ .

وتفرقت كل مجموعة منا فى اتجاه وسرعان ما دوت الطلقات مرحة وفى أقل من نصف الساعة كنا قد أطلقنا طلقاتنا فى كل أنحاء الجزيرة .

جزر المنزلة :

والجزر نفسها لا تستحق الا كلمات قليلة لوصفها فلها جميعا التكوين نفسه . فجميعها ضيقة وطويلة ، وجميعها تغطي القواقع والأصداف ، وكل سطوحها تكسوها أشجار الطرفاء Tamarisk داكنة الخضرة ، وشواطئ الجزر رملية ومستوية ، وفي بعض المناطق يجرد المرء طميا (طينا) على سطوحها ، وريش الطيور متناثر في كل مكان - زغب البجع كبير الحجم ، وزغب البشروس الوردى ، وزغب أنواع أخرى مختلفة من طيور الماء .

وبعض الجزر - خاصة تلك التي تحيطها شواطئ رملية واسعة تبدو مغطاة تماما بطبقة من زرق (بفتح الزاي والراء) الطيور ويمكن للمرء أن يرى على الطين آثار أقدام كل أنواع طيور الماء وطيور المستنقعات والسبخات ، وفي مكان واحد رأيت أيضا آثار أقدام نمس ، ثم تابعنا رحلتنا شرقا بعد أن مارسنا رياضة الصيد لوقت يسير لكنه مثير .

وقد رغبتنا هذا اليوم أن نواصل الرحلة حتى نصل لمنطقة طائر البشروس (الفلامنجو) ، وفي الحقيقة فاننا سرعان ما رأينا بين الجزر - الشاطئ الوردى الطويل لهذا الطائر الفريد . كان المنظر بهيجا . وكان علينا أن نعبر لساننا ضيقا من اليأس ، لذا فقد أوقفنا الدهبية ، وحثنا رفاقنا الآخرين - نظرا لانقضاء فترة كافية على منتصف النهار - أن ينتشروا بين الجزر وأن نلتقى في هذه البقعة لقضاء الليل .

وتم سحب قاربنا الصغير عبر الجزيرة لقرب أسراب البشروس من الشاطئ المقابل ، ولما أصبحنا على بعد حوالى أربعمئة خطوة منها بدأت تتلهمل وتتحرك بينما كانت قبل اقترابنا واقفة بلا حراك . وأهدينا لها أول وابل من الطاقات ، فعلتنا سحابة وردية رائعة وابتعدت عنا مخلقة وراءها طائرا واحدا لا يكاد يقوى على الوقوف ولا يكاد يقوى على السباحة ، ورأينا من خلال التاسكوب أن الطائر جريح فساعدنا وجدفنا لنصل اليه فلما اقتربنا منه بدأ يضرب بجناحيه وطار فوق الماء بارتفاع منخفض واختفى عن أنظارنا خلف الجزر .

وواصلنا رحلتنا وقد حاقت بنا خيبة الأمل الى جزيرة طويلة ذات شاطئ رملي أبيض ، ومارسنا شيئا من رياضة الصيد ونحن في سبيلنا لها . كان هدفنا الآن هو البحث عن أماكن مناسبة لنتخذها مراكز لاصياد طيور الماء التي بدأت بالفعل تتجمع شيئا فشيئا .

ولسوء الحظ فإن هذه الجزيرة الملائمة جدا كانت - بالفعل - مشغولة فقد كان صائد طيور عجوز يث الثياب جالسا في كوخ بناه من

فروع صغيرة ، والى جواره ابنه ، وهو ولد صغير غطاه الذباب والبعوض وكل ما يمكن وصفه من هوام . وكان هذا الصياد قد ربط نفسه بجبل متصل ببعض الشباك الكبيرة القريبة من الشاطئ .

وربط الرفاق بجمعة بائسة عمياء تدعو للأسى الى عصا - لتكون شركا تهوى اليه الطيور الأخرى ، بالإضافة لحوالى عشرة أو اثني عشر طائرا من طيور الغاق العمياء . لقد بدت لنا الجزيرة أكثر المواضع ملاءمة فقد كانت أرضها مغطاة بالأسمك المتعفنة وزرق (بفتح الزاى والراء) الطيور والريش ، ومن الصعب أن يبقى أوربي فى مثل هذا المكان طويلا . وبدأ صائده الطيور العجوز غير سعيدة بالمرّة بزيارتنا للجزيرة وراح يتمتم بكلمات تنم عن التذمر أخذت طريقها الى لحيته الكثنة المهوشة . ولم نضايقه طويلا وانما جددنا بسرعة الى جزيرة أخرى طويلة وضيقة فى مواجهة جزيرته . وعند وصولنا خصصنا لكل منا موضعا . وكانت الشجيرات الكثيفة فيها خير غطاء لنا وسرعان ما حل الصمت والسكون فى الجزيرة ، فأقبلت أسراب الطيور من غاق وطيور (أبو ملحقة) وبعض طيور البشروس وطيور مزرة البطائح moor-buzzards وبعض طيور الشواطئ الصغيرة من مختلف الأنواع ، لكنها كانت بعيدة فلم نحقق نجاحا . بل ان طيور البشروس ، فرادى أو جماعات : كل جماعة مكونة من عشرة طيور أو نحوها ، كانت تحلق هنا وهناك لكننا لم نتمكن من اصابتها أى منها ، ولم تظهر الأسراب الضخمة حتى بعد الغروب . وكان أكثر أهدافنا مدعاة للسخرية هو اصطياد البشروس وهو طائر ، فقد كانت رقبته الطويلة ورجلاه الطويلتان اللتان تحملانه أفقيا تجعلانه يبدو كعصا طويلة علق بها جناحان .

واشدت الرياح مساء وراحت الأمواج تضرب الشاطئ بشدة وانقشعت السحب شيئا ما فاستمتعنا بمنظر الشمس الجميل عند الغروب . كانت السماء من ناحية الغرب أرجوانية ، انعكست ألوانها على البحيرة وراح قرص الشمس يتوارى ببطء وراء الأمواج المرتجفة .

وانطلقنا لسفينتنا بمجرد حلول الظلمة ، وكان علينا أن نخوض الى الركبة بين الشجيرات الكثيفة لهذه الجزيرة الطويلة قبل أن نصل الى قاربنا الى الغرب منها .

وبعد عبور قصير وصلنا لجزيرة ضيقة قريبة من الشاطئ حيث ربطت دهبيتنا بشدة . وكان كل رفاقنا موجودين هناك وقد أحضر كل واحد منهم بعض الصيد ، لكن أحدا منهم لم يكن صيده وفيرا ، ولم يكن

من بين صيد أحدهم بشروس واحد رغم الطلقات العديدة التي أطلقوها على هذا الطائر الحذر من مسافات بعيدة .

كانه المساء باردا شيئا ما ، وكان علينا أن نتناول عشاءنا في الدهبية ونحن متدهثرون في معطفنا . وكانت بعض الفوانيس تضيء المنظر الغريب : سفن قليل عددها بجانب جزيرة صغيرة في ليل حالك في بحيرة لا حياة فيها بعيدة عن العمران . ولم يكن يقطع السكون المطبق سوى صوت الأمواج وأصوات العرب الغليظة .

وسرعان ما مات الحوار على شفاهنا ، وراح العرب والأوروبيون في سبات ، وعزفت سيمفونية من غطيط النائمين . ولن أنسى أبدا هذه الليلة التي قضيتها في هذه الخلية الضيقة . لقد سقطنا ضحية لجيوش من الهوام ، وراحت البراغيث تلتهم أجسادنا البائسة .

وفي الثامن عشر من الشهر غادرنا دهبيتنا ولا زالت الظلمة حالكة لنتشر مرة أخرى في الجزيرة منتظرين مرور الطيور صباحا . وجدفت بنفسى الى جزيرة ضيقة ، وزحفت في سدفة الفجر صوب مجموعة صغيرة من طيور البشروس وفشلت في اصطياد واحد منها عندما أطلقت النار عليها من بعد ، فاختبأت بين الشجيرات ، ومرت أمامى طيور مختلف أنواعها فاصطلت ووضعت في حقيبتى أنواعا مختلفة منها ، وكان من بينها طائر بلشون (مالك الحزين) كبير حجمه ، وشكل طائر البشروس (الفلامنجو) صحابة حمراء تضم آلافا من هذه الطيور تتخذ مختلف الاتجاهات ، لكنها كانت أبعد من أن تصيبتها بنلقيتى .

وعندما انتهى الوقت المحدد تجمعنا مرة أخرى في القوارب ، لقد كان هذا النهار عابسا لا يدعو للمسرة فالسما يغطيها سحب كثيف ، وريح باردة تأتينا عابرة مياه البحيرة ، وزخات المطر تبللنا بشكل دورى . ولأن الريح وجهتنا الى الجانب الجنوبي من البحيرة فقد رأينا - بين الجبن والآخر أسرابا ضخمة من البجع والبشروس (الفلامنجو) على الشواطئ الرملية فاتجهنا بالقارب الى واحدة من هذه المجموعات ، وفي هذه الأثناء عبرت الجزيرة صحابة - غطت الجزيرة - من طيور النورس وطيور (أبو ملعة) ، ووجهنا طلقاتنا من مختلف الاتجاهات لطائر البشروس (الفلامنجو) مرة أخرى دون نتيجة ، فهبت الطيور مشكلة صحابة هائلة لتستقر على مسافة بعيدة منا .

وتوقفنا عند إحدى الجزر الصغيرة لنتناول افطارنا عند الشاطئ ، ولأن العواصف كانت لا تزال تهب بل وتزداد ، فقد عقدنا اجتماعا وطرحنا خططا أولها أن نعود الى دمياط لكن العرب أعلنوا أنه مادامت

الرياح تهب على هذا النحو فانهم لا بد أن يجلدوا وأن يسحبوا قواربنا ،
وهو عمل شاق وممل .

وكنا قد وصلنا بالفعل الى وسط البحيرة وأصبح فى امكاننا أن نرى
بالعين المجردة صوب الجنوب - على مسافة بعيدة - مآذن مدينة المنزلة
الصغيرة ونخيلها .

ونصحنا البحارة أن نلغى برنامجنا وأن نتجه الى بور سعيد وكان
هذا تغييرا مهما فى خطة رحلتنا لكنه بدا هو الحل الوحيد المعقول خاصة
ان مسئول القيادة الأول وعده أنه يصل بورسعيد مبحرا بأقصى سرعة هذا
المساء مستفيدا من الرياح الغربية السائدة .

وأشفعنا القول بالعمل فانطلقت الدهبية الخفيفة بين الجزر لا تلوى
على شيء ، واتضح أن الأجزاء الشرقية من البحيرة أغنى بالطيور من الأجزاء
الغربية ، فقد رأينا أعدادا كبيرة من طيور أبو مجرفة Shovel-birés
وأنواعا كثيرة من البط وأسرابا من النوارس وطيور الخاق . وأطلقنا النار
- بنجاح - على مجموعة من البجع وأخذنا منها نماذج باهرة الى دهبيتنا .

وبعد الظهر ظهرت فى الأفق منازل بورسعيد البيضاء ، ورأينا
- على البعد - بعض أسراب البشروس واقفة ، بينما تحرك بعضها بعيدا .
وصفت السماء ، فنعمننا بشمس دافئة واستمتعنا - مرة أخرى - بمنظر
الغروب المدهش الجميل .

بورسعيد :

لقد كان طاقم الدهبية ماهرا . انهم رفاق ممتازون ومجدون بشكل
غير عادى توثقت صلتى بهم تماما خلال اليومين . وقبل أن يختفى شفق
الغروب كنا نستطيع تمييز منازل مدينة بورسعيد والطريق العالى (جسر)
لقناة السويس ، ووصلنا لهدفنا قبل حلول الظلام .

لم يكن يفصلنا عن الشاطئ الا مئات قليلة من اليارات لكن الماء
كان ضحلا ، لذلك كان لا بد أن يحملنا العرب الشجعان المرافقون لنا
لشاطئ القناة . يحملوننا نحن أنفسنا لا أمتعنا فقط .

وكنا قد أرسلنا مراسل (مشهل) Swiftist الدهبية ليسبقنا
حاملنا خطابا ، لذا فقد كان فى انتظارنا - بالفعل - سفينة بخارية على
شاطئ القناة . وكان فى انتظارنا قنصلنا وقبطان الميناء وهو دلاشى بالميلاد
(يعود فى الأصل الى دلاشيا) . ورأينا قناة السويس - للمرة الأولى ،

حيث تقع آسيا على شاطئها الآخر . والنظرة الأولى لقارة آسيا لا تنبئ عن جمال كثير ، فقد قدمت لنا آسيا نفسها في شكل جسر (طريق مرتفع) .

وأوصلتنا الباخرة بسرعة الى رصيف غير بعيد عن الفندق . ولم نر في الشوارع الا أوريبين ، وكان كل شيء رأينا يعطى الميناء طابع الموانئ الانجليزية . وكان الفندق كبيرا ومشيدا على الطراز الحديث تماما ، ويحظى بصيانة جيدة ، وذكرني بسويسرا ، فليس به أية لمحة شرقية . وكنا نحن وأسرة انجليزية - نزلاء الفندق الوحيدين هذا المساء ، وحالما وصلنا قدموا لنا عشاء فاخرا وفي حوالى العاشرة كنا آمنين في أسرنا .

وغادرنا الفندق في صباح اليوم التالي حيث توجهنا لباخرة قناة السويس ، وكان القبطان - وهو رجل عجوز مجرب - وكذلك كل طاقم الباخرة - من الفرنسيين ، وكقاعدة عامة فان قناة السويس وكل ما يتعلق بها من حصة فرنسا (ملك لفرنسا) .

وأمكننا أن نلقى نظرة من فوق شاطئ القناة على بحيرة المنزلة الى الغرب ، وعلى سهل الفرما Pelusium الاسيوى الى الشرق .

ان فكرة التحرك بين الكتلتين القاريتين (آسيا وأفريقيا) فكرة جذابة لكنها عند التطبيق قد تكون مملة . ووقفت الاف مؤلفه من الجمع والبشروس عند السبخات الجنوبية لبحيرة المنزلة ، فأطلقنا النار عليها عبر القناة ، ولم يكن لطلقاتنا تأثير سوى أنها طارت مكونة سحابة أكبر مما يتصوره العقل .

البرود الانجليزي - ارتفاع في القناة :

ولما انتهت بحيرة المنزلة عن أيامنا وجدنا أن الشاطئ الغربي للقناة مهجور وغير مأهول تماما . لقد حجبت الشواطئ العالية كل المناظر ، وكانت أشغال الأتربة والرمال الناتجة عن الحفر تملأ الشواطئ : الأيمن والأيسر ولا تعتبر صورة جذابة بالنسبة لنا مع أنها - على أية حال - اشغال جيدة . وكان التغيير الوحيد هو اصطدامنا بباخرة هندية انجليزية ضخمة اعترضت طريقنا بشكل أخرق وطن قبطاننا أنه يمكننا المرور فتقدم بجسارة فأدى ذلك الى تصادم عنيف وحلوث بعض التلغيات البسيطة في جوانب سفينتنا ، فالتصقتنا بالسفينة الانجليزية ، وعانينا لنصف ساعة حتى خلصنا سفينتنا منه . لقد أعطانا هذا القبطان الانجليزي الفظ ظهره وكان الأمر - على الأقل - لا يئنيه وأخيرا تمكنا من تحريك سفينتنا تحريكا خفيفا ، وحدث صرير من جراء الاحتكاك بين السفينتين المتصادمتين ، ثم اصطدمتا مرة أخرى ، وتخلصت سفينتنا ،

بل اننا عملنا على دفع السفينة الانجليزية ، ثم واصلت سفينتنا وسفينته سيرهما فى اتجاهين متضادين .

شاطئ القناة الغربى :

وكنا نذهب بين الحين والآخر لنلقى نظرة من قمرة القبطان على شاطئ القناة الآسيوى نحو الصحراء العربية (ليقصد صحراء سيناء) . ان طبيعتها تختلف تماما عن الصحراء الليبية (يقصد صحراء مصر الغربية) . ان ألوانها غير داكنة ، ورمالها وجبالها غالبا بيضاء ، وكان بها عديد من الشجيرات الصغيرة المستديرة ذوات خضرة فاقع لونها .

الاسماعيلية :

وبعد عشر ساعات وصلنا لبحيرة الاسماعيلية المالحة ومدينة الاسماعيلية أيضا - وهى مدينة ذات طابع أوروبى تماما . ووجدنا أن الصحارى الصفراء التى اعترى صفرتها البياض والتى تحيط بالبحيرة مستوية تماما فى غالبها ، وترى على البعد - الى الجنوب - سلسلة جبال عتاقة Ataka الجميلة . والمنطقة بلا شك رتيبة عابسة الا أن لون البحيرة المالحة الأزرق بتناقضه مع لون شواطئها الصحراوى قد خلق مزاجا لوليا يسترعى الانتباه .

وكانت لدينا فرصة - أثناء اتجاهنا لمحطة السكك الحديدية - أن نرى ما يثير اعجابنا بشرة الفرنسيين وصناعتهم وذوقهم الراقى ، فقد نجحوا فى أن يقيموا فى الصحراء منتجعا بحريا للاستحمام ، ومساكن بيضاء نظيفة ذوات ستائر تمنع عنها الهوام Jalousies ، وشوارع جيدة ، وطرق تحفها الأشجار وبساتين تلقى العناية . ولما بدأ قطارنا فى المسير تجاوزنا بعض السبخات الصغيرة ثم قطعنا الصحراء وهى هنا صحراء عربية خالصة Which is here Completly Arab ، ووجدنا بعد ذلك بحيرة صغيرة يحفها الغاب (البوص) والى جوارها بعض الكباشن البائسة ولما أصبحت التلال الرملية بجوار الخط الحديدى منخفضة بما فيه الكفاية رأينا الى الجنوب جبل عتاقة الشامخ وبعده جبال آمون Ammon وهذه السلسلة هى نفسها التى يكون أنفها الغربى (نتوؤها الغربى) جبل المقطم المعروف .

وبعد فترة بدأت الصحراء تتراجع وأخيرا اختفت عن أنظارنا وأصبحنا مرة أخرى فى الأرض كثيفة الزروع لمصر الدنيا . فتجاوزنا مدينة الزقازيق وقرى مختلفة صغيرة وسرعان ما بدت لتواظرننا مدينة

الخلفاء الجميلة تتألق ذهبية فى ضوء الشمس ، ولما وصلناها سلكننا أقصر الطرق الى قصر النزهة ، وكنا فى حاجة للراحة .

عود الى هليوبولس ، وشجرة مريم :

وفى صباح اليوم التاسع والعشرين قررنا أن نمارس رياضة الصيد فى هليوبولس . كان الجو ملائما تماما فالهواء نقي والجزء دافئ . وبعد أن قطعنا الطريق السيئ نفسه الذى قطعناه عند شهر مضى وصلنا الى (شجرة مريم) وأطلقنا كلاب الدشهند لتبحث عن الضباع والنموس فى الحدائق الصغيرة وبين أشجار الصبار الكثيفة التى تشكل سياجا قريبا . لكننا سرعان ما اكتشفنا أن كل ذلك بدون جدوى لأن موسم طيور السماني (القرى) قد بدأ منذ فترة وسمعنا طلقات تأتي أصواتها من مختلف الاتجاهات ، فقد كان الشرقيون الباحثون عن المتعة يوم الأحد ، وكانوا من أصول شرق أوربية من مختلف الطبقات - يفتشون الشجيرات والحقول ، لذا فقد بدأ أمرا غير مجد أن نطلب اخلاء الأرض منهم .

مزرعة النعام :

وثمة مطعم صغير بالقرب من شجرة مريم بين الحدائق والأشجار انظلية - وهو مكان أثير لدى أهل القاهرة - وقد تناولنا افطارنا هنا (فى هذا المطعم) ثم ذهبنا بين الحقول والحدائق لنصل الى مزرعة النعام التى تقع على حافة الصحراء ويعمل بها جماعة يبدو أنها أنجزت عملا جيدا فقد كان كل شيء فيها مرتبا بطريقة مريحة وكان مدير المزرعة رجلا سويسريا ألمانيا جعلنا نرى الأماكن المخصصة لهذه الطيور - مساحات رملية مفتوحة، ومبايت داخلية والفتحات الصغيرة، وكل الطيور (النعام) هنا من النوع الفخم ، بعضها صغير وبعضها كبير ، والنعام هنا من نوعين (صنفين) مختلفين وبدأت هذه الطيور كلها فى الغاية من الجمال بريشها الجميل .

وبعد أن رأينا كل شيء فى مزرعة النعام هذه سلكننا أقصر الطرق الى حدائق البرتقال المشهورة فى هليوبولس ورأينا بعض آثار الدئاب لكنها لم تكن فى جحورها فى هذا الموسم " وعبنا بحثنا بين أشجار حديقة البرتقال الجميلة وفى أرضها ، فلم نجد ذئبا واحدا ، وفى طريقنا توقفنا عدة مرات وبحثنا دون جدوى بين أشجار حدائق مختلفة ، كما بحثنا فى حقل من حقول قصب السكر لكن ديانا Diana لم تتعطف علينا هذا اليوم فعدنا للقاهرة بحقائق خاوية .

الحمام التركي :

ولما وصلنا لمقر اقامتنا دلفنا الى حمام تركي منعش غاية الانعاش ، ويجب على المرء أن يكون قد خاض هذه التجربة (الحمام التركي) في الشرق ، فهي تستغرق بمختلف مراحلها بما في ذلك التدليك - ساعة ، وذلك حتى يفهم مدى عشق الشرقيين لهذا الحمام وكل ما يتعلق به ، وختم الحمامات التركية يشكلون طبقة (فئة) خاصة يمارسون عملهم بدقة لا مفر منها ، وتجد هذه الحمامات في بيوت الأثرياء الشرقيين ، وهي تجلب سرورا بالغاً وسعادة لا يمكن وصفها .

القلعة ومسجد محمد علي :

وفي ٢١ مارس اتجهنا صباحا الى قلعة القاهرة الشهيرة ومررنا بعدة بوابات على جانب منحدر تلي . واستقبلنا الخفراء بعزف الموسيقى العسكرية .

والقلعة مبنى ضخيم محصن تحصينا فائقا من جهة المدينة (القاهرة) بصخور محلية . وبعد أن تحطمت هذه القلعة سنة ١٨٢٣ تم انشاء مبنى حديث في البقعة نفسها ليحل تماما محل قلعة صلاح الدين التي أنشئت ١١٦٦ والتي أقيمت من أحجار آثار مصر القديمة . وبعد أن مررنا عبر البوابة الأولى (الباب الجديد) واجتازنا مجازا أدى بنا الى البوابة الثانية (الباب الوسطاني) وقعت أنظارنا على ميدان مربع ثان تحيط به المباني الحكومية والعسكرية وقصر صغير لنائب الخديو .

المآذن - شعار القاهرة :

وأكثر أهداف السائح أهمية وأكثرها مدعاة للتشويق في هذه البقعة هو مسجد محمد علي الضخم المشيد من الألباستر (المرمر) الذي يشمخ وسط القلعة . وقد أنشأه مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية ، الذي حظى بشهرة كبيرة - انه الشجاع محمد علي ، وقد أنشأه في موضع كان به قصر قديم خرب . ويرى المرء من هنا على البعد مآذن القاهرة السامقة تشمخ عالية . ان هذه المآذن هي شعار القاهرة an emblem of Cairo . ودخلنا مبنى المسجد المهيب بعد أن وضعنا نعالنا في أخفاف (جمع خف) كانت معدة لهذا الغرض ، ويؤثر في المرء - للوهلة الأولى - مساحة المسجد المربع ، والقبعة المهيبة وما حولها من قباب أخرى صغيرة ، والجدران المكسوة بمرمر (الألباستر) بنى سوييف الأصفر ، لكن عند التدقيق يكتشف المرء أن التفاصيل المعمارية أدنى في مستواها من التفاصيل المعمارية في المساجد

القديمة ، والنوافير هنا رغم ثقلها الا أنها خالية من الجمال ، وقد فرش
 المسجد ببعض السجاجيد الجميلة ، كما أن المحراب الذي يشير الى اتجاه
 مكة (المكرمة) مزخرف بشكل جيد ، ويقع قبر محمد على الى جانب هذه
 البقعة المقدسة عند المسلمين (يقصد القبلة) (*) . والقبر مغطي
 بستائر ذوات أشغال ذهبية ومحاط بشبك حديدي وشاهد قبره على هيئة
 عمارة حجرية - كما تقتضى تعاليم الدين الاسلامي (**).

شخصية محمد على :

وسمح لنا باجتياز الشبك الذى يشكل سورا حول القبر لننظر الى
 الضريح الذى يضم رفات الرجل العظيم . ابن أحد كناسى قوله ، الجندى
 الكامل والشرقى الكامل ذو الروح الاستقلالية المتمردة Wild & undisciplined
 ذو الطاقة الحديدية ، والمتسم بالقسوة فوق كل هذا ، والذى
 وهب - بالاضافة لذلك - مواهب عظيمة وذكاء - كان يسعى لتكوين
 إمبراطورية على نسق الخلافة (الاسلامية) الأولى . لفته سار عبر
 فلسطين على رأس جيشه الباسل ، واضعا الاسكندر الأكبر كمثال له .
 ولو أن القوى الأوروبية لم تتدخل لاستطاع الباشا الناصر - بلا شك -
 أن يصل اسطنبول ليحاصر الخليفة . لكن التدخل الأوروبى أجبره على
 الاكتفاء بمصر وتوجيه كل عنايته وطاقاته لها .

والقلعة التى بناها محمد على هى آخر آثاره الدالة على قسوته
 الوحشية . وكان محمد على لا يثق فى المماليك الذين كانوا يخدمون فى
 مصر كمجموعة مرتزقة مخلصين للسلطان faithful to Sultan .

عذبة المالك ، والمملوك الهارب :

وانتهز محمد على فرصة تجمع المماليك فى ساحة القلعة الى جوار
 المسجد وأمر باغتيالهم جميعا ما عدا مملوكا واحدا كان تركيا
 شجاعا قفز وعليه كل دروعه بحصانه الجسور فوق الجدار الذى يشكل
 حدود الساحة واندفع الى منحدر شديد وهبط الى أكوام ناعمة من النفايات

(*) قبر محمد على ليس الى جوار القبلة فى المسجد ، ولعل هناك خلافا فى التعبير ،
 فقبر محمد على يكون الى الخلف من المصلين وليس امامهم كما هو مشاهد حتى الآن -
 (المترجم) .

(**) هذا من العادات وليس له اية علاقة بالفكر الاسلامي وليس هناك اى نص
 نقيض (قران كريم او حديث نبوى) يعرض ذلك - (المترجم) .

أسفل القلعة ، واستطاع هذا المقاتل أن ينهض بجواده المخلص وكأنما نجح بمعجزة وهرب من ملاحقة الباشا الساخط .

ولقد رأينا آثار دماء هذه المذبحة على الأرض وألقينا نظرة من هذا المكان المرتفع على مدينة الخلفاء العريقة . كان منظرها رائعا بمنزلها ومآذنها ، وعلى البعد رأينا الأرض الزراعية يتخللها النيل كخيوط من الفضة . وخلف الأرض الخضراء يشمخ الهرم ، وخلف كل ذلك صحراء صفراء لا تحدها حدود ، وخلفنا وإلى الأبدى منا مباشرة منحدرات جبال المقطم الداكنة ومقابر الخلفاء والماليك التي تشملها القوضى وعدم النظام وبقايا أثرية للمدينة القديمة التي اعتراها الحراب - كل ذلك يقدم للرائى صورة شائقة .

وقد ألحق بساحة القلعة مقر Castle صغير لنائب الخديو ، وهو مقر مرتب ببساطة ليس فيه ما يلفت النظر الا أنه كان ذات يوم مقرا لنحمد على . وقد تركت غرفته وحمامه على الحالة نفسها التي كانت عليها عندما كان هو على قيد الحياة . ويحسن المصريون صنعا بتوقيع ذكرى هذا الرجل الجدير بالاحترام ، لأنه قد ترك أثرا قويا فى بلادهم واذا تابعت ذريته جهوده وورثت عنه ذكاه وطاقاته فان مصر ستلعب دورا أعظم من دورها الحالى .

بئر يوسف :

وقد أرونا فى ركن خارج طريق (ممر) فى القلعة ما يسمى ببئر يوسف ، وقد أمر بحفره صلاح الدين يوسف ، وغالبا ما يخلط الناس بينه وبين يوسف المصرى وتدير الجواميس ساقية ترفع الماء من هذا المستودع المائى القديم والبسيط (١) .

أما وقد أكملنا جولتنا فى القلعة فقد استأذنا من السلطات المدنية والعسكرية ومن دراويش المسجد وهبطنا التل الى المدينة .

الكتبخانة الخديوية :

وتشغل مكتبة الخديو الشهيرة ذات الرصيد الكبير مبنى كبيرا وملائما فى أحد الشوارع القديمة . ومدير هذه المؤسسة المائى وقد استخدم خبرته وتدريبه العلمى فى ترتيب المجموعات الثرية التي كانت قبل ذلك هملا بغير نظام . ومن الطبيعى أن تثير المجموعة الشرقية من هذه الكتب والمواد اهتمام الغرباء وقد وجدنا نسخا من القرآن (الكريم) بكل لغات المسلمين فى آسيا ، كما وجدنا نسخا من القرآن (الكريم) تعود

لبواكير التاريخ الاسلامى معروضة بأسلوب فريد جميل . لقد أمر الخديو ومن سبقوه بجمع الكتب الدينية القيمة من المساجد وايداعها هذه المكتبة للحفاظ عليها من التلف . وقد رأينا فى هذه المكتبة أيضا بعض الكتب الفارسية ذوات خطوط ورسوم جميلة . لقد ذكرتنى الأشكال الخارجية والأساليب ، والأزياء وعدة الفرسان وأسلحتهم بكثير من الأعمال الفنية فى العصور الوسطى الغربية . وبالإضافة لنسخ القرآن (الكريم) رأينا مجلدات توضح بالكلمة والرسم الحروب والمعارك والقنص بل وحتى المناظر الطبيعية ، وكثير من هذه المناظر الفارسية ذوات قيمة بالإضافة لقيمتها التاريخية .

وبعد أن ألقينا نظرة خلال المكتبة بقدر ما سمح به وقتنا المحدود . واصلنا تحركنا - راكبين - فمررنا خلال زحام المدينة الحربية ، واسرعنا نقطع بعض الشوارع الأوربية حتى وصلنا - سريعا - الى ميدان قصر الخديو الكبير .

وفى مواجهة القصر والثكنات يوجد مبنى جديد لمدرسة College . يولى الخديو العناية فائقة بها فهو الذى أمر بإنشائها ، وطلب منا زيارتها ، وقد جلنا فى فصولها حيث كان الدارسون يتلقون دروسهم على أيدي معلمين أوروبيين . وكان معظمهم من أولاد أثرياء القاهرة المسلمين . وان كان من بينهم صبيان من أبناء الخديو - وكان الأطفال يبدون بمنظر حسن وصحة جيدة ويتسمون بالحيوية ، وقد رأينا قاعات المعيشة والمطاعم والملاعب ، وكانت المدرسة منظمة على النسق الأوربي وان كان هناك بذخ فى تجهيزاتها وأثاثها مما لا يتمشى مع الفرض منها كمؤسسة تعليمية .

ثم زرنا بعد ذلك القنصلين العامين : البارون شافر Schaffer والبارون ساورما Saurma فى منزليهما الجذابين ثم عدنا بعد ذلك للحى العربى . وتوقفنا عند شارع ضيق لا تستطيع حافلتنا المرور به وترجلنا حتى باب فندق النيل الممتاز الذى يقع فى وسط المدينة القديمة ، وهو فندق جميل وتحولت باحته الى حديقة جميلة أضافت الى جماله جمالا ، وصاحب الفندق نمساوى ، ومن هنا فقد قابلتنا مجموعات مختلفة من بلادنا وعبد القادر وبرجش باشا والبارون ساورما ، وتناولنا جميعا افطارا ممتازا تحت سقيفة جميلة .

الحاوى :

وقضينا بعض الساعات الباعثة على السرور فى هذا الفندق اذ أمتعنا (حاوى) عربى ببعض الألعاب (السحرية) التى تتطلب مهارة كبيرة . وكان مساعده صبى صغير يقول - بألمانية مهشمة - قبل كل

لعبة (سحرية) : « تعال هنا يا عفريت » ، وعقب هذه الألعاب (السحرية) جاء دور (حاوى الأفاعى) الذى أحضر معه أفاعى ضخاما جدا ، وسحالي مختلفة (من بينها سحرية جيكو Guko الرماذية) وعقارب غريبة ، وقد أخرجها جميعا (الأفاعى والسحالي والعقارب) من تحت معطفه الواسع . ثم أتى رجل ومعه قرود سمينة مدوجة جيدة ، وعنز وكلاب مختلفة . ويشكل عام فان ما رأيناه شائع فى كل سرق فى أوربا ، لكن البشرة الداكنة للحاوى العربى وثوبه الواسع والمسلك الشرقى الوقور والانثر العام للمشاهدة المرحه - كل ذلك قد أضفى الجاذبية على عروض - هى فى حد ذاتها - مبهلة وطفولية .

وعند عودتنا لمقر اقامتنا ارتدينا ملابس الصيد ، وذهبت مع الدوق الكبير والبارون ساورما خلال شوارع المدينة وعبرنا جسرا على النيل بالقرب من المنازل الريفية للخديو ، وتمركزنا فى أحد حقول القصب هناك ومعنا عنز راحت تتغو أخفيناها بين أعواد القصب الطويلة . يا حسارة ! لم يأت ذئب ولا أى حيوان غير مستأنس ، مع أن ساورما كان قد مارس الصيد بنجاح فى البقعة نفسها وبالطريقة نفسها ، لكن ديانا كانت غير عطوف معنا اليوم مرة أخرى (لم يكن الحظ حليفنا) ، فعدنا لمقر اقامتنا عندما بدأ الظلام يزحف . لقد كان مساء رائعا ، غروب بهى أعقبه ليل الربيع الأفريقى العظيم . فراحت الحشرات تطن وتئن ، وراحت الخفافيش تمر بسرعة حول الأشجار التى راحت ذؤاباتها تحف حفيفا رقيقا . سحر محيط من النجوم فى القبة السماوية الزرقاء ، وهدهوء لا يقطع جلاله سوى نباح الكلاب الذى لا ينقطع وصياح طيور دجاجات الماء فى طريقها للنيل .

لقد كانت القاهرة تفص بالحياة ، وكان علينا أن نندفع لنشق طريقنا وسط الزحام والحركة حتى نصل الى قصر النزهة .

وذهبنا فى بكور صباح اليوم التالى الى ثكنات قصر النيل الكثيرة ، وواصلنا رحلتنا فوق ظهر الباخرة فيروز Feruz التى كانت راسية الى الأذنى من الثكنات . لقد ذكرتنا هذه الباخرة القديمة بسهولة الصعيد السعيدة ، وأيامنا الطيبة هناك . وقاد الأدميرال الداكن - مرة أخرى - سفينته الجيدة ، وما هى الا دقائق قليلة حتى تحركت سفينتنا شمالا .

الى القناطر :

لقد تعلمنا منذ الوهلة الأولى أن هناك فرقا بين مناظر مصر العلماء ، ومناظر الدلتا ، فمناظر الصعيد براء ألوانها وجمال طبيعتها تزداد قيمتها عندما يعود المرء الى القاهرة ومصر الدنيا (الدلتا) ، فما كان جنابا فى

الدلتا عندما رأيناه للمرة الأولى ، بدأ لنا - بالمقارنة بمناظر الصعيد شاحبا
لا لون له •

لقد كانت رحلتنا هذا اليوم الى قناطر النيل الشهيرة « barrage du Nil »
• لقد تجاوزنا في البدايه منارل قديمه تهبط تدريجيا حتى
الماء ، ثم توغلنا فى المجرى الواسع للنيل فوجدنا يخوتا متنوعة للخدو
صفت جنبا الى جنب ، وبواخر يريد وعددا كبيرا من الذهبيات (البواخر
السياحية والخاصة) وعلى الشاطئ الغربى توجد بيوت ريفية تحيطها
حدائق غناء ، وناحية اليمين (الشاطئ الشرقى) المدينة ، وضاحية شبرا
وقلعة تحمل الاسم نفسه (قلعة شبرا) والأشجار الباسقة للمتزهه الكبير
وسرعان ما اختفت هذه المشاهد الشائقة وبدأت المناطق الزراعية ذوات
المنظر الرتيب فى مصر السفلى تحف النهر مستمرة استمرارا غير منقطع •

وقد رأينا مجموعة من الأوز البرى المرتجل وعددا كبير من البط
أما دجاجات النهر فكانت عند الشاطئين لكن بأعداد قليلة ، وتجاوزت
سفينتنا عددا من الجزر الرملية الطويلة ، وظهر أمام نواظرنا مبنى حاجز
يشبه الجسر (الكوبرى) •

هنا يتفرع النيل الى فرعين : فرع دمياط وفرع رشيد • اننا الآن
عند النقطة الجنوبية للدلتا • واللسان الطينى الذى يفصل الفرعين وكذلك
الفرعان ، قد مد عليها جميعا جسور (كبارى) حديدية وقناطر عملاقة
أنشأها محمد على ، والهدف منها هو الاحتفاظ بمياه النهر أمامها أثناء فترة
انخفاض المياه حتى يمكن امداد ترع الوجه البحرى كثيرة العدد بالمياه
اللازمة أثناء التحاريق (نقص المياه) كما يتم امدادها أثناء الفيضان على
سواء •

ويقال ان نتائج هذا المشروع - الذى عاق الملاحه فى النيل فى
الوقت نفسه - لا تساوى المبالغ الطائلة التى أنفقت عليه • وثمة قلعة
تكلفت أيضا مبالغ طائلة على اللسان بين السدود ، وهذه القلعة المهجورة
منخفضة جدا .فهى لا تزيد كثيرا عن كونها دمية وثمة عدد قليل من البنادق
قديمة الطراز وتكنة بها حامية صغيرة ، على أن أكثر ما يلفت النظر فى
هذا كله هو الصفوف الطويلة من الأشجار الباسقة التى تزين كل جوانب
هذا المكان المهجور •

• وكان علينا أن نتفقد المكان كله ودرنا حول القلعة ، وكذلك السدود
(القناطر) ، وبعد اتمام جهلتنا اتخذت باخرتنا طريق العودة • وترقنا
عند جزيرة طويلة ضيقة تغطيها الرمال والشجيرات الكثيفة ، وبحثنا فيها

عن الطرائد • لقد أطلقت بنقيتي على بعض طيور الماء الصغيرة بالاضافة الى اصطيدى لصقر جميل ذى صدر شاحب • وثمة فرع ضحل من النهر يقسم الجزيرة ، وعبر هذه المخاضة تتجول قطعان كبيرة من الخراف والماعز لتتغذى على الشجيرات النابتة فيها • وقد وجدنا على ضفتي النيل أكواخا بائسة مختلفة تمت اقامتها لأغراض الصيد •

وسرعان ما تخلينا عن الصيد في هذه الجزيرة وعدنا لباخرتنا وتناولنا اظطارنا فى طريق عودتنا لمقر اقامتنا ، وما كدنا ننتهى من تناول القهوة السوداء وتسخين السجائر حتى وصلنا لقصر النيل وودعنا السفينة فيروز الحبيبة وداعا أخيرا •

الدررايش

وقد عرف عبد القادر باشا - باهتمامه الذى لا يفتر - كم أنا مشوق لرؤية الدرايش وهم يرتصون turning ويصبحون howling فحصل من الخديو على أمر بالسماح لنا بدخوى احدى تكايا Convent هؤلاء المتعصبين ، خاصة أنه لم يكن هناك يوم الجمعة ضمن أيام برنامجنا فى القاهرة (ففى يوم الجمعة يمارس هؤلاء الدرايش طقوسا خاصة نى المساجد الكبرى) • فركبنا مارين خلال المدينة كلها حتى وصلنا لأبعد جزء فى الحى العربى • وتوقفت عربتنا عند حارة صغيرة وتسلقنا منحدرًا حادًا الى جدار (سور) ، وعندما دخلنا من البوابة وجدنا رواقًا صغيرًا معمداً مسقوفاً وحديقة ، ووصلنا لغرفة الاستقبال بعد أن سعدنا ساما خشيبيا بائسا وسرنا فى ممر • كانت الجدران مستوية وجرداء ، ولم يكن بالخرفة سوى ثلاث كنبات وبعض الأبسطة ، وظهر شابان أظنهما من خدم (التكية) ، وفى غضون دقائق قليلة ظهر شيخ director التكية Convent - وهو رجل عجوز هذه التعبد بأسلوب معاقبة النيات - تكفيرا عن الخطيئة - والعمل على اماتة الشهوات • وكان مظهره الخارجى قبيحا حقا اذ كان نحىلا شاحبا بلون الشمع ، لقد كان كجثة ميت بلامحه الحادة وشفته الشاحبتين وعينه المبتتين ويديه النحيلتين ذواتى العظام البارزة ، وحمله (ظهره) المنحنى ، بالاضافة لصوته الأجوف - كل ذلك كان ذا طابع شبحى شاحب شحوب الموتى • أما ملابسه فثياب طويلة ملونة مزينة بالفراء ، وحزام لامع وعباءة طويلة تزحف خلفه فوق الأرض كان يضم أطرافها الامامية الى بدنه بيديه المرتعشتين رغم حرارة الجو • ويضع فوق رأسه عمامة مرتفعة من لباد أخضر حولها شال أخضر - وهو اللون المفضل لدى النبى (صلى الله عليه وسلم) the Colour of the prophet • وهذه العمامة headdress العجيبة تشبه عمام الفرس •

وقد أشار إلينا - وفقا لما تقتضيه اللياقة - أن نجلس وجلس هو متيبسا على الكنبه كأنه أحد تماثيل الشمع ، وأحضر الخدم القهوة في فناجين قذرة وقدموا لنا السجائر .

وبعد مقابلة رسمية قصيرة دعانا لقاعة الحلقة (القاعة المقدسة Sacred hall) في المسجد التابع لاتباعه (مريديه) فدلغنا الى مبنى غريب بعد أن مررنا بممر بحذاء البيت . لقد كان قبة دائرية عالية ذات حلبي معمارية شرقية ، وثمة ممر ضيق سقفه قائم على أعمدة خشبية تدور مدار الجدران . انه المكان الذي يتمركز فيه مشرف الحلقة faithful spectator والموسيقيون (العازفون) . والى الأدنى منا رأينا حلقة تشبه حلقة التدريب في مدارس تعليم الفروسية riding school ذات سياج يبلغ ارتفاعه ثلاثة أقدام ، وأرضية الحلقة مفروشة برمل ناعم كما في حلبة التدريب في مدارس تعليم الفروسية وثمة بساط تركي قديم مفروش في أحد الجوانب . ولم نجلس أكثر من دقيقة في الممر ، وكنا تواقين لرؤية ما سيحدث بعد ذلك عندما دخل شيخ الطريقة العجوز the old high Priest متقلبا ببطء في الحلقة arena وجلس متربعا على البساط ، وتبعه حوالي عشرين رجلا ، وكانوا جميعا يضعون فوق رؤوسهم عمام عالية من النوع نفسه ، لكنهم يلبسون صدريات بيضاء ضيقة ذات تصميم تركي ومفتوحة من الأمام وتحت الصدرة حزام وقميص واسع كتنورة النساء . وساروا فرادى بخطوات وقورة وقد عقدوا أيديهم أمام صدورهم وانحنوا انحناء شديدا أمام شيخ الطريقة (*) Priest الجالس . ثم صفوا أنفسهم حول الحلقة ازاء جدرانها . وتلا شيخ الطريقة بعد ذلك دعواته بصوت خشن وراح أثناء ذلك ينحني كثيرا في مختلف الاتجاهات وحذا أتباعه حذوه ، ولما انتهوا من ذلك ارتفعت أصوات الموسيقى - فجأة - عالية صاخبة . وكانت الآلات الموسيقية هي نفسها التي رأيتها وسمعت أصواتها أثناء مشاهدتي لرقصة النحلة في صعيد مصر غير أن الأجراس النحاسية والكمان تلعب هنا دورا أكبر في العزف ، والكمان المستصلحة هنا تشبه الجوزلا gusla عند أهل دالماشيا . كان العزف وحشيا وذا طابع حربي .

وعند المقطع الأول خطا الرجال داخل الحلقة وانحنوا مرة أخرى لشيخ الحلقة old priest وبدعوا يدورون حول أنفسهم to turn لا أحد منهم يلمس الآخر وبقي كل شخص في موضعه ، وفي البداية كانت حركتهم بطيئة لكنها زادت شيئا فشيئا بسرعة حتى ان تنوراتهم الطويلة

(*) لعله شيخ السجادة - (المترجم) .

ارتفعت عالياً . واستمرت الموسيقى صاخبة مندفعة ، وأصبحت ملامح وجوههم نائرة مهتاجة أكثر من ذي قبل وراحوا يهمهمون وهم يدورون كالخدروف (النحلة أو الخدروف الذي يديره الصبية مستخلمين خيوطاً) كل في موضعه وملوا أذرعهم وأيديهم ، فهذا يقبض يديه ، والآخر في الخلف يرفعها ، والثالث يبسط كفيه ، وهذا يعنى أن اليد اليمنى تحمل السيف دفاعاً عن العقيدة واليد اليسرى تطلب عطايا الرحمن .

ان المنظر الى مثل هذه المناظر يجعل الأوربي يصاب بالدوار ويجرى الدم بارداً في عروقه . ان هذا التعصب البالغ يسبب للمرء خوفاً ورعباً . ان هؤلاء الناس يدورون حول أنفسهم بسرعة لا تصدق ، دون أن يتزحزح الواحد منهم عن موضعه قيد أنملة ، وتتقلص وجوههم بعنف وكأنما زلزلوا زلزالا شديداً ، وتحملق عيونهم خارجة من محاجرهما ، وأيديهم النحيلة وخدودهم الشاحبة التي اندمجت في لحاهم القصيرة المنسقة على النسق التركي – كل هذا ينبىء عن الخلل العصبى الذى تسببه المشاعر الدينية غير السوية . وثمة رجل عجوز يرتدى ملابس كالتى يرتديها شيخ الطريقة (أو شيخ السجادة) يزحف بين الدراويش وهم يدورون حول أنفسهم لينظم حركاتهم . لقد استمرت هذه الطقوس الدينية فترة طويلة ، ثم توقفت الموسيقى ، فبذل كل درويش قصارى جهده ليستند للجدار . كانوا شاحبين مهزوزين وانحنى كل واحد منهم انحناءً شديداً ، وتليت دعوات أخرى ، ثم عزفت الموسيقى مرة أخرى وبدءوا يدورون من جديد .

كم تستغرقه هذه الطقوس الدينية يومياً ؟ لا أدري ، لأننا بعد نصف ساعة غادرنا التكية Convent . ولا أنكر أنني كنت سعيداً أن أرى الشمس مرة أخرى وأن استمتع برؤية السماء الضاحكة والحركة في الطرقات ، وأن أهرب من هذه التكية الباردة الشبيهة بالزنزانة ومسجد الدراويش الكثيب وهلوستهم المرضية المتفسخة .

وهؤلاء الدراويش رهبان غير متزوجين ، ويعيشون – معيشة مشتركة – في منزل واحد . وثمة طرق Sects مرعبة مختلفة على هذا النحو ظهرت في التاريخ الإسلامى المتأخر – ليس في شبه الجزيرة العربية مهد الإسلام حيث العرب الأذكياء ، وإنما كان ظهورها – أى هذه الطرق المرعبة – فى الشمال بين أهل آسيا الصغرى والقبائل المغولية ، وقد تأثر العثمانيون فى آسيا وأوروبا بهذه الخرافات المنحطة فلعب الصوفيون softas دائماً دوراً مهماً فى هذه الأنحاء أثناء فترات الهياج الدينى والحروب .

وقد وجد الدراويش الدوارون (اللفافون) والمهمهون (التباحون) في القاهرة لفترة طويلة ، لكن هؤلاء الدراويش - خاصة الأوائل منهم - قد تجنّبهم العرب الذين تمسكوا بشريعة دينهم الحقّة ، واعتبروا ما يقوم به الدراويش انحرافا عن التعاليم الحكيمّة للنبي العظيم . لقد كان كل هؤلاء الدراويش الذين رأيناهم هناك من عثمانى أوروبا وآسيا الصغرى ، وكان من الواضح أنهم على النمط التركي تماما .

ووصلنا للجانب الأوربي من المدينة بعد أن اجتزنا الحي العربي ، وتجاوزنا قصر النائب في القصر العيني ، الذي تشغله الآن زوجة الخديو لنصل الى أقدام أرجاء القاهرة حيث وجدنا أن أكوام النقايات والمقابر وخرائب المساجد القديمة والقاذورات المختلفة ، - أكثر بكثير من المساكن المأهولة بالسكان . وعند نهاية شارع ضيق أغلقته الأحجار وبقايا الخرائب ، توقفتنا وعبرنا بوابة تفضى الى باحة (صحن) حولها أروقة ظليلة تحفها النباتات اننا الآن في مسجد قديم دائري ، فوجئنا بمظهره الخرب . واستقبلنا رجل عجوز بدين وعلى وجهه ابتسامة ودود ، وعلى رأسه عمامة مستديرة ويلبس ملابس تركية بهيجة أصيلة ، فتبعناه عابرين بابا ضيقا الى داخل المسجد . كانت الأحجار مغطاة بفراء الخراف ، وثمة درع صديء ورماح وسيوف وخناجر ، وسيوف مثلمة معلقة على الجدران ، وبينها علم أخضر بال (ممزق) ، لا بد أن هذه الأسلحة النبيلة قد شربت من دم الكفار حتى ارتوت فاستحقت أن تعلق في هذا المكان المقدس (المسجد) .

وعندما تبدأ الحرب من أجل الدين الحق ، فان دراويش هذه الطريقة (وهي طريقة ذات طابع حربي أكثر من طرق الدراويش الدوارين « أو الراقصين ») فالواحد منهم يأخذ الدرع ويحمل الراية الخضراءشارة النبي (صلى الله عليه وسلم) ويجرى وهو يعوى خلال الشوارع صائحاً معلنا الحرب والموت للكفرة داعياً المسلمين للجهاد . وقد لعب هؤلاء الناس (الدراويش) دورا مهما في الحروب التركية القديمة ، ولا زال الاسلام يضمن لهم أنهم سوف يجدون ميدانا (مجالا) لنشاطهم .

وما كدنا ندخل المسجد حتى أقبل الناس الأتقياء فجلس الرجل العجوز الذي استقبلنا في الوسط على فراء خروف . وتحلق أتباعه حوله في حلقة ، وتلا دعوات بصوت عال ، وراح يكرر دعواته مرات عدة ، ويكرر المتحلقون حوله ما يقول ، وعزفت الموسيقى - تماما كما هو الحال عند الدراويش الدوارين - أصواتا عالية بربرية ، وتوافقت حركاتهم المستمرة مع القرع الموسيقى ، وراح الواحد منهم يحرك جزء جسمه

العلوى للخلف وللأمام • وكان هؤلاء الدراويش يتأهون ويندبون ويهممون بالكلمات نفسها بشكل غير مفهوم ولا مبين على الإطلاق • لقد كان المنظر كله كثيبا بشكل يبعث على الألم والرثاء • كان هؤلاء الدراويش يلبسون عباءات براقية طويلة ويلفون خواصرهم بحبال بسيطة • وهم تكس كل المسلمين لا يضعون فوق رؤوسهم أى غطاء للرأس ، وشعر الواحد منهم طويل مهوش ولحيته طويلة ، وعندما يميل بدننه الى الخلف (يثنى جزعه الى الوراء) يتهدل شعره حتى يصل الى الأرض ، وعندما يميل بجسده مندفعا للأمام يغطي الشعر وجهه بشكل مهوش • عيونهم زائغة تدور ، وأجسادهم تهتز بعنف والرغبة والزبد يغطي شفاههم ، وكان ثمة رجل ضخم منهم – بالذات – له لحية سوداء يمثل أقصى درجات الانجذاب الوحشى المتبربر •

ولم نمكث طويلا في هذا الجو المقبض ثقيل الوطأة وتبعنا شيخ الطريقة العجوز Old high priest وكل أتباعه (مريديه) حتى الخارج ، ولما خرجوا وراءنا كان كل واحد منهم قد غطى رأسه ، فارتدى معظمهم طواقى بنية وقدموا لنا – تحت تعريشة ظليلة بدائية – قهوتهم السيئة •

وسألت عن أصولهم فوجدتهم مثل الدراويش الدوارين يتحدثون جميعا التركية ، ولم يكن منهم عربى واحد • وكان شيخ الطريقة العجوز من اليونان وكان عثمانيا خالصا ، أما الآخرون فكانوا تركا من اسطنبول ، والروميلي Roumelia وغيره من ولايات البلقان وقد حضر حلقة الذكر هذه مسلمون آخرون أيضا من القرم وآسيا الصغرى ، وكردى واحد من بغداد كان يضع فوق رأسه عمامة خضراء كبيرة •

واستأذنا فى الانصراف بعد فترة قصيرة وعدنا الى قصر النزهة ، وكان يتحتم أن نسرع لأنه كان علينا أن نحضر هذا اليوم – دون ملابس رسمية – غداء خاصا فى قصر الخديو ، وعدنا لقر اقامتنا سريعا بعد الغداء لأنه كان يتعين على الخديو أن يذهب مساء لمسجد الحسين لحضور احتفال دينى وكنا سعداء – بعد هذا اليوم الحافل المثير – أن نخلد للراحة •

وفى بكور اليوم الثالث من هذا الشهر ذهبت الى مقابر الخلفاء ، وحالما انتهى الطريق الذى لا تستطيع العربية (الجنطور) السير به ، وذلك عند آخر منزل فى الطريق – ركبنا حميرا فسارت بنا بين المقابر ، وسرعان ما وصلنا لسفح حيد مرتفع من حيود جبل المقطم ، وسلكتنا الطريق نفسه الذى سلكتناه من بضعة أسابيع خلت ، وتسلقنا الحيد ولم يمض وقت طويل حتى كنا رابضين فى مكمن ضيق غير ملائم •

وبعد ثلاث ساعات طوال مملة خالية من الأحداث تماما ، ظهرت بعض الحدهات ونسور الجيف ، وبمجرد أن بدأت تتناول وجبتها حتى سمعت صوت تحريك ثقيل لجناحي طائر كبير ، وفي الحال تشتتت شمل الضيوف الأقل قيمة وحط نسر كبير ذو رأس بيضاء - وجناحاه لم ينضما ليدته تماما - على ظهر جثة الحمار وشرع يتناول افطاره دون تأخير ، ولم أتوان بدورى لحظة واحدة فألجمته طلقة فانطرح وخرجت من كهفي زاحفا وحملت فوق كتفي غنيمتي الثقيلة وهبطت الجبل متجاوزا الصخور والحيود وأكوام الحجارة الى حيث الخدم والحمير فى انتظارى . وقبيل الظهر كنا فى قصر النزهة مرة أخرى .

وبعد الافطار استرحنا قليلا ، وقررت أنا والدوق الكبير أن نزور حديقة شبرا فحملنا بنادقنا وركبنا أحد الحناطير الذى سار بنا فى حى شبرا الفاخر حتى أسوار الحديقة العالية . إنها حديقة واسعة مسورة وثمة قلعة بين الأشجار السامة والشجيرات الكثيفة ، وهي محاطة بأحواض المياه والعرائش (الشقائق) وأحواض الزهور ، وثمة مساحة واسعة مخصصة لاعداد الطعام ، وثمة بساتين يرتقال داخل هذه الحديقة ، بل ان هناك مساحات مزروعة بالقمح الذى لم يصفر لونه بعد . وكانت البقع الندية الرطبة مزدحمة بأسراب طيور البلشون (مالك الحزين) الرمادية ، بينما على أشجار الصنوبر التى تزين تلا صناعيا بالقرب من القلعة - تحط أعداد كبيرة - بشكل لا يصدق - من طيور البلشون البيضاء ممثلة الجسم plump aigrettes .

وعكرنا صفو هذه الطيور ، لكن كان علينا - للأسف - أن نغادر هذه الحديقة الفاتنة بسرعة بمجرد أن راحت أغصان أشجارها الهامسة تسبغ فى الضوء الذهبى للشمس الغاربة - حتى نصل لقر اقامتنا فى ميعاد تناول العشاء . والقينا نظرة مشتاقة على حقول القمح المتموجة ، وكان من السهل أن استنتج أن هذه البقعة المحاطة بالأسوار ملائمة تماما لبعض الطرائد التى نبغى صيدها . وبعد ذلك بأيام قلائل أخذ ساوزما بنصيحتي ، فذهب للاصطياد فى حديقة شبرا هذه فقتل وشقا ونمسا .

وتناولنا عشاءنا عند وصولنا قصر النزهة مع الأخوين ساورما ، وكان ساورما الصغير والأمير تاكسيس Taxis قد عادا منذ يوم واحد فقط من رحلة طويلة مرهقة لجبال البحر الأحمر ليجثا - عبثا - عن الوعل (التيس) العربى .

وفي الرابع والعشرين من مارس خرجت مجموعتنا كاملة - مبكرا -
الى طريق هليوبولس - الى آخر حدود المدينة حيث نصبت لنا خيمة
مزدانة بالأعلام في الهواء الطلق .

افتتاح مستشفى نمساوى :

وكان عدد من الناس قد تجمعوا هناك ، كما كانت الجالية النمساوية
المجرية موجودة بأعداد كبيرة ، ذلك أننا كنا بصدد الاحتفال بوضع حجر
الأساس للمستشفى النمساوى . وقد دبر كاتولى بك Catouli Bey
- وهو تاجر يهودى ثرى يحظى بالحماية النمساوية - بسخاء كل الأموال
اللازمة لهذا المشروع الطيب ، وقد حضر هو نفسه مرتديا الزى اليهودى
التقديم . وتم الاحتفال وسط ابتهاج الحاضرين بينما كانت تعزف الموسيqa
السلام الوطنى (النمساوى) . لقد كان احتفالا وطنيا تمت وقائعه بعيدا
عن وطننا الغالى فى ركن آخر من أركان العمورة .

وبعد انتهاء الحفل عدنا مباشرة الى الخديو لاستئذانه وتقديم
الشكر له ، وقد عاد بدوره بسرعة الى قصر النزهة ليصبحنا الى محطة
السكك الحديدية . وغادرنا قلعتنا فى حى شبرا ونحن نشعر بالأسف
وسارت بنا الحافلة فى شوارع شبرا وقد غمر الحزن قلوبنا .

مغادرة القاهرة :

ولما وصلنا محطة السكك الحديدية وجدنا كتيبة مشاة قد اصطفت
أمامها لتحيينا بالسلاح بينما تعزف موسيqa نشيدنا الوطنى . وكان على
درجات المحطة عدد كبير من مواطنينا مع المسئولين المصريين ، وبرجش
باشا والأخوان ساورها والأمير تاكسيس . واستأذنا الخديو Viceroy
الذى لاقينا منه رعاية لم تنقطع ، وكذلك ودعنا أصدقاءنا جميعا ، وتحرك
القطار ببطء خارجا من المحطة . لقد شعرنا بغصة ونحن نلقى نظرتنا
الأخيرة على مدينة الخلفاء الجميلة وعلى منحدرات المقطم والقلعة الشامخة
والأهرام الساحرة . لقد كنا الآن بصدد مناطق جديدة وأراض أخرى .

١١٨

لقد سار بنا القطر على الخط نفسه الذى سافرنا عليه منذ أيام
قلائل ، ففي البداية مررنا بأرض زراعية ، وبعض المدن ، كثير منها له
جاذبية تاريخية ، فعلى سبيل المثال - شبن القناطر ، وهى مدينة عربية
حديثة ، بالقرب منها - فوق ما كان يسمى بتل اليهودية Tell el-Yehudiye
كانت تقع مدينة محصنة فى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل حقبتنا ،
وكان فيها - زمن حكومة بطلميوس فيلوميتور Ptolemy Philometor

– معبد يهودى أقامه أونياس Onias كبير الكهنة ، لليهود المطرودين من فلسطين ، والى الأبعد تقع بلبيس Bilbés (بيلابس المصرية القديمة Pilabes) ، وهى مدينة مشهورة – خاصة فى العصور الوسطى – اذ كانت مقرا للحكام العرب المنوط بهم ادارة منطقة شرق الدلتا . ثم أتت الزقازيق ، وهى مدينة واسعة معروفة بنشاطها التجارى واستقر فيها عدد كبير من أهل الشرق (شرق أوروبا وتركيا والشام) ، وبالقرب منها تل أثرى مهم هو تل بسطة Tel-Basta الذى احتفظ لقرون ببقايا معابد مدينة بوباستيس Bupastis ومنازلها ، وبوباستيس هذه مشهورة فى التاريخ القديم (وتعنى بالمصرية القديمة بى – باست Pi-bast ، وتعنى مقر الربة باست Bast ، وبالعبرية Phi-beseth) وكانت الربة باست تعبد هنا فى معبد واسع باهر . ولا تزال صور هذه الربة محفورة على الحجر والبرونز تستخرج من خرائب التل ، وتمثل الربة باست بامرأة شابة نحيلة تحمل احدى يديها صلاصل (صاجات Sistrum) وفى الأخرى سلة ، وليس لها رأس أنثى وانما رأس قطة ، فالقطط رمز مكرس لها . وتشير النقوش اليها – غالبا – على أنها الشكل المحلى للسلام والصحة اللذين تجلبهما الربة ايزيس .

والى الشرق من بوباست Bubastis (التى كانت عاصمة لاقليم سمي باسمها بوباستيتز Bubastites) ، كان يقع فى العصور القديمة النصف الجنوبى من ولاية شسبه الجزيرة العربية المجاورة the adjoining province of Arabia التى لا نعرف عنها سوى القليل فى الكتابات الكلاسيكية المتعلقة بالعصور القديمة . انها الأرض التى أشار اليها الكتاب المقدس باسم جوشن Goshen (*) .

الخط الحديدى يعبر هذه المنطقة بخط مستقيم الى الشرق ، ويسير حذاء ترعة المياه العذبة فى وادى طميلات Tâmilat . وعند مدخل هذا الوادى – عند تل (أبو سليمان) Tell-abu-Soliman توجد بقايا مدينة Pithon أبو باتوموس Patumos التى أجبر فيها اليهود على العمل قبل الخروج (من مصر) . وفى الجزء الشرقى من الوادى – نحو بحيرة التمساح – وجد النصب التذكارى لمسيس الثانى بالقرب من Mas-Chûta مع تماثيل أبى الهول ، وأحجار ذوات نقوش ، وبقايا مبان قديمة من القرميد . وقد عرف لمسيس Lesseps وأغلب الدارسين هذا الموقع باعتباره مدينة رمسيس التى أشار اليها الكتاب المقدس ، لذا فان محطة السكك الحديدية تحمل اسم رمسيس .

(*) ورد فى قاموس الكتاب المقدس الذى ألفته مجموعة من اللاهوتيين أن أرض

جوشن مدينة فى جبال يهوذا وهى قرية الظاهرية الحديثة – (المترجم) .

الى السويس :

وبعد مغادرة الوادي Wadi (الآنف ذكره) يمر الخط الحديدي الى المحطة الأخيرة للاسماعيلية ، ويستمر الخط الحديدي جنوبا عبر الصحراء على طول الساحل الغربي للبحيرات المرة ، وهذه البحيرات : الشمالي منها والجنوبي تقدم للرأى منظرا شائقا بمياهها الزرقاء المتألقة ، والى الغرب منها جبل جنيفة Geneffe ذو الشكل المحدد الجميل حيث المحاجرلا تزال تستخدم على نطاق واسع حتى أيامنا هذه - خاصة فى المواضيع التى بها أحجار رخامية ، وأخيرا ألقينا نظرة على جبل عتاقة الداكن المهيب ثم أخبرنا البحر اللازوردى اللامع كالمرآة أننا اقتربنا من ميناء السويس .

ان المرء ليدعش وهو داخل للمحطة بمنظر الميناء الخاصة بالسفن القادمة من مختلف البلاد . ان السويس التى وصلناها قبيل المساء مدينة لا طعم لها ولا أهمية (لا شخصية) فننادقها البائسة ومساكن القناصل الخاصة - كل ذلك ليس له طابع خاص البتة وإنما على النسق الغربى تماما ، بل ان أرصفة الميناء العديدة وأبنيتها لا تؤكد جمال المدينة أو الميناء .

لا يجعل هذه المدينة شائقة سوى أهميتها التاريخية الفاتمة ، تلك الأهمية التى تنسحب بدورها على البحر الأحمر بمياهه الصافية وسطحه الهادئ وسواحله الجميلة رغم حزنها وكآبتها . وذهينا سراعا لتناول طعامنا فى فندقنا فقد أرهقتنا الرحلة الساخنة . لم يكن فى هذا الفندق الانجليزى المهمل سوى قليل من النزلاء : بعض رجال الأعمال الانجليز كانوا يستجمون قليلا من عناء السفر حتى يواصلوا رحلتهم التى يدهوها من الهند - الى أوروبا ، ومبشر تعس - لكنه مسل تماما - وهو ليقتنات سكسوتى فى الاحتياط ومبشر فى آن واحد ، وقد رغب فى تحويل الأفريقيين فى المناطق الداخلية (للمسيحية) ، وكان مقتنعا من الناحية النظرية بأهمية مهمته وبأهمية المناطق التى سيبشر فيها ، لكن - من الناحية العملية - بدا الرجل تنقصه البراعة والخبرة ، والأهم من كل ذلك ، ينقصه المال ، وكان ينتظر فى الفندق بالسويس حتى تحين ظروف موأية . واستيقظنا مبكرا فى صباح الخامس والعشرين من شهر مارس وبعد أن أظفرتنا على عجل غادرنا الفندق وقطعنا المدينة لنصل الى مرسى البواخر فى الميناء وانى مدين لصدىقى برجش باشا - العالم البارز - لوصفه الذى يدعو للاعجاب - لهذه الولاية ، ولا أجد أفضل من نقل جانب من خطابه الثرى بالملاحظات العلمية .

» في الجانب الشمالي من المدينة يوجد تل صغير به آثار قديمة – أسماء العرب تل القلزم Tell-Kolzum ، وهذا الاسم العربي يذكر باسمه القديم Cylsma – وكانت توجد هنا فيما مضى قلعة محصنة قوية لحماية الميناء . وبانتهاء القناة القديمة فقدت المدينة أهميتها لكن ذكرها بقيت في كتابات المؤلفين العرب الذين غالباً ما استدخلوها مسمى بحر القلزم ليشيروا لما هو معروف اليوم باسم خليج السويس . وزيارة الميناء الحديثة بأشغالها وحواجزها ومخارجها وسدودها ذوات البوابات ، وقنوات المياه العذبة (الترغ) – كل ذلك وحده يمكن أن يدلنا على الجهود المبذولة اليوم في مجال تطبيقات الهندسة الميكانيكية على المياه . ولما كان غير المعروف أكثر جاذبية من المعروف ، والماضي – يثير الفضول أكثر من الحاضر ، والموروثات المنقولة أكثر مدعاة للسرور والبهجة من الحقائق التاريخية المؤكدة – لذا فإن الحجاج (المسلمين) يتلبثون على سواحل البحر الأحمر مستغرقين في أفكار ضاعت مع الزمن ولم يترك لها الزمن في التاريخ أثراً . فأين كانت البقعة من البحر (الأحمر) التي غرق فيها فرعون وجيشه ؟ وأين الطريق التي قاد فيها موسى شعبه عبر الصحراء الى جبل سيناء ؟ تلك هي الأسئلة التي تفرض نفسها على المسافر المسيحي في هذه الأرض . أسئلة عن الماضي والحاضر لا يمكن الاجابة عنها الا اجابة احتمالية على نحو أو آخر .

والنقطة الوحيدة التي تساعد في الاجابة على استفساراتهم هو موقع آبار موسى (٢) في الجانب الآسيوي لخليج السويس غير بعيد عن الساحل في واحة خصبة . وأكبر هذه الآبار قد أحيط بسور فأصبح كأنه خزان ماء ، ويعتقد أنه هو بئر موسى الحقيقي الذي فجره صاحب الشريعة اليهودية من الصخر والذي أحال مياهه المرة الى مياه عذبة بالقاء غصن فيه .

وعندما تهبط الشمس غاربة في المساء ملقبة بأشعتها البرتقالية على جبل عتاقة Ataka الشامخ ، وعندما يرسل البحر بين الساحلين الآسيوي والأفريقي أمواجه الشفافة الزمردية لتصافح الساحل بحنان ، وعندما تبهت الألوان ببطء ثم تضيع مندمجة في اللون البنفسجي ، ثم في الزرقة ، ثم تلتشى في سديم رمادي – عندئذ فان صورة الطبيعة البسيطة – والعظيمة في آن ، تترك تأثيرها كاملاً ، فتستجيب لها الروح استجابة تفوق الوصف ، يظل أثرها باقياً حتى بعد العودة لأوطاننا الشمالية ، بمنظرها المختلفة وجمالها الطبيعي ، ذلك لأن المكوث طويلاً وعميقاً في الشرق يحرك القلب بأحاسيس مرتجعة باعتباره الوطن الأصلي (الحقيقي) .

فهنا - عند آبار موسى - نكون في آسيا ، وهناك على الساحل المقابل لهذا البحر الضيق ، تقع أفريقيا . كيف لا تنهمر الفيوضات التاريخية على عقل الانسان عند رؤيته هذه المنطقة الرابطة بين قارتين ، كيف لا يعود الانسان بعقله الى عهود قديمة ، اننا نرى في فجر التاريخ البشرى قبائل حام (القبائل الحامية) تبدأ من آسيا - مهد جنسنا الأوربي - وقد تملكتها غريزة الهجرة ، فأتجهت غربا عبر جسر الأمم *the bridge of Nations* ، برزخ السويس Isthmus of Suez لتدخل القارة السوداء وتستقر فوق تربة مصر الخصبة مبحرة جنوبا في النهر لتشيد المدن والدول ، ولتترك آثارا عظيمة دالة على وجودها .

« ويبدو أن منف كانت أقدم المراكز (المحطات) التي استقبلت الهجرات الآسيوية . فمن المناسب أن تسمى الأهرامات « حجارة تخوم العالم *the boundary stones of the world* » (*) . ثم توالت آثار مصر الوسطى والعليا بعد ذلك تبعا لانتشار جنس الآباء الأول للمصريين نحو الجنوب - في مصر الوسطى والعليا - حاملة أبلغ الشواهد على أقدم الحضارات التي أبدعها هذا الجنس أثناء توغله جنوبا حول ضفاف النيل ، وثمة هجرة حامية أخرى اختارت الطريق البحري وأنت لمصر من سواحل فارس وشبه الجزيرة العربية ، ويقصد بهم الكوشيون *Cushites* ذوو الوجوه البنية المحمرة ، وهم الأثيوبيون في الموروثات الكلاسية . انهم ملاحو العالم القديم . وعلى سواحل *Araby the Blest* في أرض الصومال الحالية ، وفي الحبشة وفي وديان النوبة المثمرة أسسوا أوطانهم الجديدة ، وراحوا يتصارعون - بشكل دائم - مع الإجناس الزنجية التي كانت تسيطر على النيل ، وما تاخمه من أراض من أقصى الجنوب حتى أسوان .

وتقدمت جماعات الكوشيين من سواحل شبه الجزيرة العربية شمالا ، واستقرت في أرض كنعان وعلى السواحل الشرقية للبحر المتوسط ، وكانت الجبيل (بيبيلوس) وصور ، وسيدون *Sidon* هي الأماكن الأولى التي استقر فيها هؤلاء المهاجرون الكوشيون أسلاف انفينيقين ، وقد جعلوا منها موانئ ، أو مراكز (محطات) بحرية . وثمة مجموعة أخرى ، من جنس مشابه أتت بحرا ودخلت الخليج الفارسي واستقرت على شواطئ الفرات ، وسرعان ما أصبحوا هم القوى الحاكمة في السهل العظيم الممتد بين دجلة والفرات . وأقدم السجلات عن هذه الهجرة ارتبطت باسم نمرود الصائد العظيم وابن كوش *Cush* الذي أسس

(*) أو « الحجارة الحدودية للعالم ، أو « حدود العالم » ، الخ .

(المترجم) .

– وفقاً لمرويات الكتاب المقدس – مملكة قوية في الأجزاء الشمالية من المنطقة المشار إليها • ومرة أخرى كانت هناك قبائل كوشية غزت شرق الدلتا قادمة من شبه جزيرة العرب – قبل الميلاد بألفى سنة ، وأسست هناك امبراطورية الهكسوس • وطول خمسمائة سنة استطاعت هذه القبائل أن توطد لنفسها في الدلتا تحت حكم ملوك من جنسها وتابعت زحفها صوب الجنوب متتبعه مجرى النيل حتى طيبة ، ولم يهزموا الا بعد معارك حامية الوطيس شنها عليهم ملوك من الجنس المصرى • وفى متحف بولاق مجموعة ترية من التماثيل التى تبين وجود الحكام الكوشيين فى مصر بشكل يدعو للعجاب الشديد ، وتمكننا من دراسة خصائص هذا الجنس الكوشى الغازى • وبعد طرد الهكسوس شهدت شبه جزيرة السويس *The Peninsula of Suez* (*) الجيوش المصرية تزحف شرقا لتنتقم من طغاة باشروا طغيانهم على مصر قرونا كثيرة • وتقدم الفراعنة المنتصرون الى بابل ونيينوى وقهروا – فى طريقهم – عديدا من القبائل والبلدان ، وحكموا – لأكثر من أربعمائة سنة – أعظم امبراطورية فى غرب آسيا وأقواها •

« ولحماية حدود مصر من الهجمات القادمة من الشرق تم انشاء الأسوار والتحصينات فى شبه جزيرة السويس (كذا) وبدأت هذه الأسوار وتلك التحصينات بالقرب من الفرما (البوليزيوم) – الى الشرق من بورسعيد الحالية – وحتى هليوبولس • وكان لابد من الحصول على اذن فرعون قبل أن يسمح لأى جنس سامى بتجاوز هذه التحصينات – خاصة زمن المجاعات – والوصول للمراعى الخصبة قرب بحيرة المنزلة • ورحلة يعقوب فى مصر تلقى الضوء على الخطوات الرسمية التى يجب اتخاذها للاستقرار فى هذا الجزء من الدلتا • وبانهيار قوى الفراعنة أصبح برزخ السويس *Isthmus of Suez* – خاصة فى جزئه الشمالى – مسرحا لتحركات مستمرة للقبائل ، فحدثت غارات ، ومعارك : معركة اثر معركة بالقرب من الفرما عند خط الدفاع الخارجى وعبرت الجيوش الأجنبية مستخدمة الفرع البلوزى (الفرع الفارمى) للنيل حتى وصلت هليوبولس ومقر الحكومة شديد التحصين فى منف •

وعندما سد الفرع البلوزى (٣) (الفارمى) للنيل بسبب سحب مياه البحر المتوسط من الساحل السورى (؟ كذا) واهمال قنوات الرى وأعمال تنظيم المياه فى شرق الدلتا خلال أحلك فترات التاريخ المصرى ، تراجعت المنطقة وتدهورت بعد أن كانت حديقة الرب ، وأصبحت الحقول

(*) كذا فى الاصل – (المترجم) •

والسهول - التي كانت يوما مزدهرة بالخضرة - صحارى غير مثمرة .
ومياه الفيضان التي كانت تملأ الفرع البلوزى (الفارمى) للنيل - بشكل
أساسى - قد تحولت الى الفرع الغربى ، وأصبح الفرع الكانوبى Canopic
هو الفرع القوى (الغنى بالمياه) وشيدت الاسكندرية بالقرب من مصبه
وأصبحت مركزا تجاريا مرموقا فى عهد البطالمة والرومان ومركزا للحياة
العقلية فى الدين والفلسفة والآداب . وعادت أهميتها القديمة فى
أيامنا . على الأقل فى ميدان التجارة . حقيقة ان طريق برزخ السويس
Isthmus of Suez يعد شريانا أساسيا من شرايين المواصلات ، لكن
ما يقال غالبا من أن بورسعيد ستحتل يوما ما مكانة الاسكندرية أمر غير
قائم تماما رغم كل ذلك .

« فموقع الاسكندرية المناسب الى الغرب الذى يجعلها أسرع اتصلا
بالموانئ الأوربية من بورسعيد ، وكذلك قربها من الأراضى الزراعية فى
الدلتا ، وما تتمتع به من وجود سكك حديدية وما يصلها من ترع ،
وما بها من أسواق بضائع وصرافة وما تقلمه بشكل عام من وسائل
تجعل الحياة مريحة - كل ذلك يقنعنا - رغم كل الصعوبات فى مينائها -
أنه يجب أن ننظر للاسكندرية كواحدة من أهم المدن التجارية فى مصر
المستقبل .

ولا يمكن لبورسعيد أن تحتل مركزا مماثلا لمركز الاسكندرية
الا اذا أصبحت قارة آسيا منافسة لأوروبا فى مضمار التجارة - وهذا أمر
لا يمكن تصوره الا فى المستقبل البعيد . لقد اندرس برزخ السويس
Isthmus of Suez تاريخيا ، وقبرت الصحراء آخر آثاره فى الرمال ،
وطريق القنطرة لا تقلم اثاره خاصة ، فمن بورسعيد الى السويس
تبدو القنطرة كخط مياه أزرق يقطع الصحراء ، فالصحراء تحيط القنطرة
من الجانبين ، والبقعة الوحيدة التى تسترعى الانتباه مصروفة باسمها
القديم قنطرة الخزنة Kantara-el-Chazne الى الشمال من بركة
البلاح Dattel lake . انها - أى قنطرة الخزنة - تعد بمثابة علامة تبدأ
عندها طريق القوافل المصرية الى آسيا .

« وفى بواكير التاريخ المصرى كانت توجد فى هذه البقعة قلعة قوية
على ضفتى القنطرة التى كانت تربط بحيرة المنزلة ببركة البلاح Dattel lake
وتبين صورة من عصر الملك سيتى الأول Seti I (والد رمسيس الثانى ،
سيزوستريس) على الجدار الخارجى الشمالى للمعبد العظيم لآمون فى
الكرنك - بوضوح جسرا يصل من جانب الى جانب عبر هذه القنطرة الآنف
ذكرها . وعند هذه النقطة بدأ ذلك الاقليم الشرقى الذى أطلق عليه
المصريون اسم هزيان (حزيان Hazion or Hazian) الذى أسماه اليونانيون

Casium وأسماء الرومان Casion - وكان هذا الاسم يشير الى الجزء الجبلي من الصحراء بالقرب من بحيرة سيربونيس Serbonis (*) (وهي الآن مجرد سبخة) ، وتتقدم هذه الجبال داخلة البحر المتوسط مشكلة قنة (بضم القاف وتشديد النون) ، وكان الضريح المقدس يقع هنا ، وكان مكرسا لحارس المنطقة زيوس كاسيوس Zeus Casius . وقد حرف العرب الاسم القديم Hazion فجعلوه خزنة Chazne وظل الاسم ممثلا في قنطرة الخزنة . وأخيرا ، يجب أن نلاحظ أن طريق الفلسطينيين القديم Way of Philistines كما سمي في الكتاب المقدس الذي سلخته جيوش فرعون وجيوش الغزاة الأجانب - من القنطرة الى فلسطين - يقع بين البحر المتوسط وبحيرة سيربونيس ، الا أنه - مؤخرا وفي العصور الحديثة - جرى تفضيل الطريق الواقع الى الجنوب من البحيرة حيث طريق القوافل الصحراوى ،

ولنعد الآن لتابعة وقائع رحلتنا بعد أن استمتعنا بهذه الملاحظات القيمة التي قسمها واحد من أبرز علماء التاريخ المصريين .

سيناء - عيون موسى :

لقد حملتنا الباخرة باخرة القناة المصرية فوق مياه البحر الأحمر الخضراء الجميلة الى الساحل العربي (**). وتوقفت عند أقرب نقطة لعيون موسى ، وسرعان ما اتجهت مجموعتنا جميعا في طريقها - عابرة الصحراء - الى هذه العيون ، فوق ظهور حير صغيرة ، لقد كانت هي المرة الأولى التي نطأ فيها الأرض الآسيوية (***) . ان الصحراء العربية تختلف تماما عن الصحاري الافريقية ، فاللون الأبيض المتألق حل محل اللون البرتقالي بدرجاته المختلفة ، انها جرداء تماما لا يقطع قحويتها سوى شجيرات هنا وهناك .

وعيون موسى التي وصلناها بعد نصف ساعة تقع وسط واحة صغيرة جدا ، وثمره حديقة يانعة حول العيون التي تنبجس من خفر على شكل أقماع ، وابتهجت عيوننا بالنخيل والشجيرات والحشائش الطويلة والنباتات العريضة أوراقها . وثمره أكواخ قليلة يقطنها بعض السدو الفقراء (٤) .

(*) بحيرة البرديول الآن - (المترجم)

(**) المقصود سيناء - (المترجم)

(***) المقصود هنا سيناء كما يتضح من السياق - (المترجم)

ولم آر - بالاضافة لطيور السنونو (طيور الخطاف) سوى سحلية
وأعداد كبيرة من الحرباء تغير ألوانها فى كل لحظة ، وتتسم بالنحالة
كأنها أوراق • وبدت آثار الضباع والذئاب وحيوانات ابن آوى مما يشير
الى أن هذه الحيوانات ترد ماء العيون ليلا •

وكان البدو الذين رأيتاهم عند العيون فى ثياب خلقة • ولبنادقهم
البداية ذوات الأحجار القداحة flint guns حبال طويلة ملفوفة
حولها ، ويشعلون فيها - أى فى هذه الحبال - ويتركونها تشتعل حتى
تصل النار الى البارود فى الخزانة ، ويجب أن ينتظر الصيادون البوساء
لسنة دقائق ترقبا للحدث السعيد • وطلبنا منهم اطلاق بنادقهم فى
حضورنا • انها أسلحة مريكة يحتار المرء فى وصفها بسبب قلة شأنها
وبدايتها •

ويختلف هؤلاء الناس - كثيرا - فى مظهرهم عن البدو الحقيقيين •
فقد بدوا فى عيني يهودا داكنى البشرة • كما أن قوام الواحد منهم
وملامحه اسرائيلية تماما ، وان كان يتحتم على المرء أن ينصرف عقله الى
أنهم من ذرية هاجر Hager الذين خرجوا من صحراء شبه الجزيرة
العربية ، وهم ذرية اسماعيل Ishmaelite المشهورون بالصعيد
والسلب ، وهذا ما ورد فى معظم أشكال الرويات الخرافية عن فجر
التاريخ الشرقى ، وتحتل هذه الفكرة أهمية بالغة •

ومن فوق تل أجرد بالقرب من عيون موسى ألقينا نظرة من بعيد عبر
الصحراء العربية البيضاء المتألقة بحيودها الصخرية وأوديتها - الى
الجنوب حيث جبال سيناء المرتفعة ، والى الغرب - عبر البحر الأحمر -
حيث جبل عتاقة فى أفريقيا ، كانت السحب الكثيفة فى السماء تضىف
على المشاهد شيئا من الجهامة •

وبعد فترة قصيرة عدنا للساحل وبحثنا لبعض الوقت عن الأصداف
فى الرمال ، فالبحر الأحمر مشهور بشراء أصدافه وقد وجدنا فى غضون
دقائق قليلة ما لا يحصى من الأصداف الجميلة • ليس لدينا وقت وعلينا
أن نعود لبأخرتنا ، وبالفعل عدنا وتجاوزنا السويس ودخلنا القناة ،
وهنا كما فى كل مكان ، وجدنا ضفتيها جرداوين ، وأفضل أن أترك
بورجش باشا - مرة أخرى - يحدثنا عن القناة فهو قادر على إثراء الحديث
بأضفاء البعد التاريخى على المشاهد الرائعة •

برزخ السويس - جسر الأمم :

« ان زيارة لجسر الأمم القديم الذى يفصل أفريقيا عن آسيا لا تعوض - اطلاقا - المسافر عن مشقته بمنظر ذوات جمال طبيعى تمر أمام عينيه ، وتدفعه للتوقف ، بل العكس هو الصحيح ، فالشعور بالجفاف يملأ الروح عند النظر للصحراء الجرداء المليئة بأكوام الرمال ترتفع فى وسطها كتل جبلية حمراء تبدو متناقضة مع السماء الزرقاء الصافية - بأشكالها ذات الشقوق والصدوع المحددة تحديدا حادا ، ولا شئ سوى الضوء الباهر والشفافية وتدرجات الألوان الواهنة بشكل مدهش ، تلك الظواهر التى تصبها شمس الشرق على الطبيعة فتجعل حتى للصحراء جاذبية شعرية تناجى الروح وتدعوها للاجابة وتمهرها بأفكار شاعرية غامضة ، لكن بحر النور واللون الذى يغمر أرض الصحراء بأمواجه يدخل العين والعقل ، وان كانت النفس أيضا تتوق لأطفال الربيع الذين تخلوا عن مكانهم لعالم الضوء غير المحدود وتراجعوا خجلين الى الأرض السوداء حول ضفاف النيل .

لقد وصف المؤلفون مصر - عن حق - بأنها هبة النيل . وقد أكدت البحوث الجيولوجية الحديثة وحدها هذا القول ، فبعد أن توغل النيل فى اتجاهه نحو الشمال خلال الجرانيت والحجر الرملى وكون الشلالات محتازا الجنادل فى أكثر المناطق صعبة ، نجده يدخل منطقة مكوناتها من حصى وبلور صخرى ، ويتخذ طريقه للبحر بعد أن يقطع مسافة طويلة ليصل لما نعرفه الآن بوادى النيل الخالص (الحقيقى) ، لقد كان البحر الى الشمال من القاهرة خليجا عريضا يمس بساحله الغربى الصحراء الليبية ، ويمس بساحله الشرقى الصحراء العربية . وأثبتت البحوث الجيولوجية الحديثة المعتمدة على بقايا الحياة الحيوانية والنباتية فى عصور ما قبل التاريخ فى تربة الصحراء خلال شق قناة السويس - بشكل قاطع - أن برزخ السويس كان فى يوم من الأيام نقطة التقاء البحر الأحمر بالبحر المتوسط ، فأمواج البحر المتوسط كانت تضرب فى فوهة القناة الشمالية التى صنعها هذا البحر نفسه ، بينما كانت أمواج البحر الأحمر تتوغل خلال الأجزاء المنخفضة من الصحراء العربية (الشرقية) فاتصلت رويدا رويدا بمياه البحر المتوسط ، وبذلك انفصلت آسيا عن أفريقيا بمسافة تبلغ حوالى سبعين ميلا .

وبمرور الزمن فان موج البحرين حمل معه بالضرورة رمالا (جرف معه رمالا) فتكون - شيئا فشيئا - كثيب رملى سرعان ما أصبح جسرا (حاجزا) متينا ، وهذا الجسر الذى يقع فى منتصف البرزخ أو الى الشمال

من المنتصف قليلا ، يرتفع الآن لحوالى ستة عشر مترا ، وهو معروف
بالفعل باسم الجسر El-Gisr .

« وهذا الجسر هو أعلى نقطة فى المسار (فى الخط) الذى نصفه -
وكان هو الرابط البحرى الوحيد الذى كان يمكن عن طريقه عبور ما يعرف
الآن ببرزخ السويس ، ويجب أن نفترض أن دلنا النيل كانت تتكون
فى الوقت نفسه الذى كان فيه هذا الجسر يتكون ، فالطمي المجلوب عاما
بعد عام مع فيضان النيل نتج عنه فى المقام الأول تكوين الأرض الزراعية
فى مصر العليا . وبالطريقة نفسها كونت الارسابات فى حوض عريض
بين الصحراء الليبية (الغربية) والعربية (الشرقية) وامتد هذا الحوض
شمالا حتى المدى الذى وصل اليه الآن ، فالدلتا هى - بالمعنى الحرفى -
هبة النيل حيث كانت المياه تمر فيها من خلال ثلاثة فروع رئيسية وخمسة
أصغر منها - وكلها كانت تتخذ مجراها الى البحر المتوسط ، لكن الأمواج
المعاكسة للبحر المتوسط (الأمواج المناهضة لتدفق مياه نهر النيل)
والمحرفة نتيجة اصطدامها بالساحل السورى منعت تكوين تربة زراعية
على الساحل الشرقى للدلتا ، واختلطت أمواج البحر بالمياه المتدفقة من
مصاب النيل وشكلت حوضا كبيرا من المياه الضحلة التى تضم جزرا
كثيرة امتدت من دمياط الى بورسعيد ، وهذا الحوض يحمل الآن اسما
شاملا هو بحيرة المنزلة . ومياه هذه البحيرات (التى أطلق عليها مؤخرا
اسم بحيرة المنزلة) كانت متصلة من الجنوب ببحيرة البلاح حيث يقع الى
الجنوب منها « الجسر » الذى تحدثنا عنه آنفا ، أما مياه البحر الأحمر
فغذت حوض مياه البحيرة التالية وهى بحيرة التمساح (بركة التمساح)
والبحيرات المرة التى كانت مرتبطة ارتباطا مباشرا بخليج السويس عن
طريق قناة عرفت بنيل التمساح ، لا غرابة اذن فى أن مواضع هذه البحيرات
بين البحرين الأبيض والأحمر بالقرب من النيل ، قد أيقظت فكرة ربط هذه
البحيرات بقناة مع النيل - وذلك فى فترة باكرة من حقبة التاريخ
المصرى ، فاذا ما تم هذا الربط ارتبط البحر المتوسط بالأحمر .

ووفقا للمرويات الكلاسية فان رمسيس الثانى (وهو سيزوستريس -
سيزوتورا كما تشير النقوش) كان أول ملك يأمر بشق قناة ملاحية من
الفرع البلوزى (الفارمى) للنيل الى بحيرة التمساح مستغلا الانخفاض
الطبيعى لوادى طميلات (Tumilat) . وبقايا المدن والآثار المدرسة التى
تحمل اسم هذا الملك لاتدع مجالا للتشكك فى وجود هذه القناة ، وفى
زمن متأخر بدا أن هذه القناة قد انطمرت وظلت جافة حتى سنة ٦٠٠
قبل الميلاد عندما قام الملك نخاو Necho بوضع خطة لاعادة ربط النيل
بالبحر الأحمر ، وعلى أية حال فقد توقف مشروعه (الذى فنى فيه

١٢٠٠ عام مصرى) بسبب وحي الهى لأحد الكهنة يحذر نخاو من
أنه - بمشروعه هذا - لا يعمل الا لخدمة البرابرة أو الغزاة الأجانب .
وبعد مئات السنين من عصر نخاو لم يخش الملك الفارسى قمييز والملك
الفارسى داريا (داريوس Darius) من مثل هذه النبوءات التحذيرية -
فأكمل الربط بين النيل والبحر الأحمر ، وبقايا هذه القناة تم اكتشافها
فى أيامنا هذه فى منطقة البرزخ ، وقد وجدت هذه البقايا الى جوار مبان
تحمل نقوشا فارسية تحدد ثلاث محطات على طول خط الماء الطويل الذى
يصل بين بحيرة التمساح وخليج السويس . وثمة توسيع وتطوير فى
نظم القنوات هذا تم تحت حكم البطلمة ! اذ تم انشاء قناة فرعية من
فاكوسا Phakusa (فاقوس الحالية) على العرع البلوزى للدليل
الى بحيرة المنزلة وبهذه الطريقة أمكن الوصول لبحيرة البلاح التى كانت
تتصل بدورها ببحيرة التمساح والبحيرات المرة ، وبهذه الطريقة اتصل
البحران المتوسط والأحمر عند أقرب مسافة بينهما ، وأصبح هذا الطريق
المائى ، فى ذلك الوقت - ذا قيمة لا مزيد عليها للتجارة العالمية .
وقد تدهورت هذه القنوات تحت حكم الرومان حتى جاء عمرو (بن العاص)
القائد المشهور فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب فعمل على إعادة الطريق
المائى الرابط القديم فربط القاهرة بالسويس عن طريق قناة ، وفى
القرن الثامن للميلاد لم تعد هذه القناة صالحة للملاحة ، وفى سنة ١٦٧١
قدم ليبنتز Leibnitz خطة للسويس الرابع عشر تبين أهمية ربط
البحرين ، لكن اقتراحه لم يلق أذنا صاغية ، ولما قام الجنرال بونابرت
بحملته الشهيرة على مصر لم تفلت منه فكرة ربط البحرين لكن مشروعه
فشل بسبب الحسابات الخاطئة التى وقع فيها المهندس ليبيير Lepère
والتى مؤداها أن مستوى البحر الأحمر أكثر ارتفاعا من مستوى
البحر المتوسط بعدة أمتار تبلغ ٩١٩٠٨ أمتار ، وبهذا أصبح وصل البحرين
أمرا غير ممكن وأخيرا فى الأربعينات من هذا القرن التاسع عشر بينت
القياسات الدقيقة الخطأ الكبير الذى وقع فيه ليبيير . وبعد أن حصل
ليسبس Lesseps من سعيد باشا على امتياز حفر قناة السويس ،
بدأ العمل الشاق سنة ١٨٥٨ وفى ١٦ نوفمبر ١٨٦٩ تم افتتاح القناة
فى احتفال تجلت فيه مظاهر الفخامة والاسراف ، وقد فاقت تكاليف انشاء
القناة ١٩ مليون جنيه استرلينى .

وكان من المستلزمات الضرورية للعمل فى القناة شق ترعة للمياه
العذبة لامداد عمال القناة بماء الشرب ، ومد بورسعيد بالماء أيضا بعد
ذلك . فتم شق ترعة تبدأ من قرب قصر النيسل لتخرج من النيل فى
خط مستقيم الى هليوبولس ثم تتجه شمالا بشرق ، وتم شق وادى طوميلات

وأخيرا شهد الساحل الغربى لبحيرة التمساح والبحيرات المرة لتواصل
الترعة مسيرتها الى السويس « .

لقاء دى ليسبس العجوز :

ونتهى الآن هذه الملاحظات الشائقة التى أرسلها لى صديقى ،
ولنعد للقناة وسفينتنا البخارية الفرنسية ، فرعان ما وصلنا الى البحيرات
المرة وكان منظرها جذابا بشكل لا ينكر ، فالتناقض بين اللون الأزرق
الداكن والصحراء البيضاء اللامعة لا يمكن الا أن يجذب انتباه المسافر .
وفى مضيق بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح لاحظنا واحدا من حيوانات
ابن آوى بالقرب من شاطئ القناة يبحث عن أصداف الأسماك ، فأطلقنا
عليه عدة طلقات من بنادقنا ، لكنها كانت طلقات طائشة ، وبالقرب من
مياه بحيرة التمساح العميقة زرقتها استمتعنا - مرة أخرى - ببهاء الشمس
الأفريقية .

وبدت منازل الاسماعيلية على الساحل الرملى الى الشمال ، وسرعان
ما وصلت باخرتنا للرصيف الفرنسى الفاخر ، وكان فى انتظارنا
مستر ليسبس المنشىء المشهور لهذا المشروع العملاق الذى وصل
البحرين ، وكان معه ابنه وعدد من موظفى الشركة الفرنسية ، وكنت
سعيدا جدا أن أتعرف بهذا الرجل العجوز الذى لازال نشطا شغوبا
بالعمل لا يعرف التراجع ولا ينثنى له عود . وقد ذهب بنسا الى منزله
الريفى المحاط بحديقة صغيرة ، واستقبلتنا هناك زوجة ابنه الجميلة وهى
يونانية قاهرية من أسرة سينادينو Sinadino الثرية ، وكان حاضرا
أيضا أخوها وهو شاب ظريف ، وسيدة انجليزية ، وسرعان ما تناولنا
عشاءنا عقب وصولنا وقضينا المساء فى حوارات اجتماعية ممتعة ، وبدأنا
صباح اليوم التالى ، مبكرا جدا - وكان السيد ليسبس على رأسنا -
فركبنا القطار لمسافة قصيرة الى محطة مقسمة Maksama ، فتوقفنا ،
لكننا وجدنا صعوبة فى اخراج خيولنا العديدة من القطار ، اذ راحت
تسهل وتندفع فضاع منا وقت كثير فى التجهيز لرحلة الصيد ، وكانت
قبيلة بدوية قد ضربت خيامها بالقرب من المحطة وعند وصولنا خرج
هؤلاء الرجال الراضعون من خيامهم وأقبلوا الينا على خيولهم وجمالهم ،
وفى مقدمتهم شيخهم يمتطى صهوة فرس كستنائى رائع .

لقد أحسن السيد ليسبس بدعوة هذه القبيلة - المشهورة بمهارتها
فى المطاردة - لتكون بالقرب من الاسماعيلية حتى يتمكن من رؤية البدو
يصطادون غزلانا . كان الشيخ فى المقدمة يرتدى عباءة بيضاء خالصة ،
وكان سرج فرسه جيلا ، وقد ثبت شيقنا معقوبا حول خاصرته ، ووقف

على يده ذات القفاز صقر نبيل حول رأسه غطاء لامع • وتبعه جمع من البدو راجلين أو راكبين جمالا أو خيولا وكانوا مسلحين ببنادق طوال وسيوف معقوفة وخناجر ، وكانوا جميعا يلبسون ثيابا بيضا - كانت وجوههم بنية ومعبرة جدا ، وكان يتبع السادة منهم كلاب آسيوية ، ومعهم بعض الصقور المختلفة لكنها ليست من النوع الممتاز نفسه الذى مع شيخهم •

والقبيلة التى معنا الآن تتحرك خلال الصحراء ، غير بعيد عن الخط الحديدى ، وأصبح تجوالها فى أفريقيا (مصر) منذ فترة ، لكنها قبيلة عربية خالصة من شبه الجزيرة العربية ويمكن للمرء استنتاج ذلك بسهولة من خلال ملاحظة خيولها النبيلة وثرء دروع الرجال وثيابهم ، لقد ركبنا - مشكلين صفا طويلا غير متسلاحم - خسلال وديان الصحراء ومسيلاتها الجافة • لقد كنا نقصد صيد الغزلان فحسب فاذا بنا نرى أيضا الأراب البرية •

وظلت جهودنا - طوال ساعتين - بغير نتائج ، وبدأ البدو يتقدمون - وقد نفذ صبرهم - لتوسيع دائرة البحث عن الغزلان وقد اكتشف أحد هؤلاء البدو غزالا خارجا من بعض الشجيرات الكثيفة ، فتجمع البدو بغير نظام يطاردون هذا الغزال وأطلقت الكلاب وأحاط راكبو الخيول بالغزال من كل جانب حتى لا تجد سبيلا للهروب ، فراحت تلور خائفة تلبسها الرعب حول الخيول ، فوضع أحد البدو نهاية سريعة للمطاردة فأطلق بنلقيته اثرها بينما كان منطلقا بسرعة ، فهوى الغزال فى لحظة •

وأعقب ذلك محاولة لصيد الأراب الصحراوية ، ولأن الحرارة كانت شديدة جدا كما أن فرصنا فى الفوز بهذه الحيوانات كانت قليلة - فقد اتخذنا طريقنا عائدين لمحطة السكة الحديد • ولكي يستعرض الشيخ مهارة الصقر ، فقد تركه يطير ليقتنص حمامة سرعان ما هوت بعد ثوان قليلة متأثرة بمخالبه القوية •

ووصلنا سريعا للمحطة وتناولنا افطارا متواضعا فى المركبات، وبعدها عاد بعض الرفاق للاسماعيلية ، بينما صخبني الآخرون فى باخرة صغيرة فى نزهة قصيرة فى ترعة المياه العذبة ، وتوقفنا عند منزل عتيق مهتم وعبرنا الكثبان الرملية الى قطاع سبخى تحيطه الصحراء غير بعيدة عنه ، ويمتد هذا القطاع السبخى موازيا للترعة حتى بحيرة التمساح فى موضع غيز بعيد عن الاسماعيلية •

وقادنا رجل فرنسى ظريف ، كمننا أنه رياضى متحمس - فى هذه المنطقة السبخة التى سبق له ممارسة الصيد - بنجاح - فيها ، وفى بداية

السبخة وجدنا طيور التعلق الأفريقية الذهبية الجميلة والتي لم نرها من قبل ، وقد اصطدنا منها عددا كبيرا فى دقائق قليلة . وفى الأراضى التي تزداد فيها الروية والماء وجدنا كثيرا من الشناقب وأنواعا عديدة من الحيوانات الصغيرة سواء حيوانات الماء أو حيوانات السبخات ، كما رأينا أيضا عددا من البط وطيور الزقزاق ذوات الشوكات فى أرجلها ، وحطت طيور السماء بين الحشائش الطوال ، وكان الجراد أيضا مثيرا جدا لم أر أبدا أكبر حجما منه ، وطار هذا الجراد محدنا طنينا عاليا يسمع من بعيد نسبيا ، ولكى أتفحص جرادة منها كنت مضطرا لاطلاق بندقتى عليها كما لو كنت أطلقها على واحد من طيور السماء . انها طليقة غريبة حقا !

وفى واد ضيق تحيطه الصحراء كانت الشمس تحرق أبداننا بشكلى مرعب جالبة البخر النتن من السبخة ، وبعد عدة ساعات من الصيد المرهق ، عدنا محملين بكثير مما اصطدناه - الى تسرعة المياه العذبة وركبنا - مرة أخرى - باخرتنا التي عادت بنا سريعا الى الاسماعيلية ، فتناولنا عشاءنا على ظهر احدى البواخر الفرنسية بناء على رغبة ليسبس بدلا من تناوله فى بيته ، وخذنا للراحة مبكرا .

وفى صباح اليوم التالى ذهبنا جميعا لكنيسة صغيرة - لكنها جميلة - حيث كان الفرنسيسكان يقيمون القداس لكل الجالية الفرنسية هنا ثم صحبنا ليسبس فى جولة فى شوارع وحدائق هذه المدينة الفرنسية الصغيرة ، وأطلعنا الرجل العجوز (ليسبس) بفخر واضح على كل ما أنجزه فى هذه الصحراء الجدياء ، انه عمل يبدو كأنه تم بسحر ساحر .

وحان وقت الرحيل فاستأذنا - على المحطة - من الكونت ليسبس والهز زمرمان الذى حباننا بفضلله خلال كل رحلتنا - أثناء استخدامنا القطارات - فى مصر ، وتحركت الباخرة ، وكان بصحبتنا م . ليسبس الشاب وزوجته وبعض الفرنسيين . كانت الرحلة سريعة ، تخللها حوار جذاب وشائق فطغت خصوصيته على المشاهد القاحلة .

وأطلقت بندقتى على بعض طيور الكروان ونسر من نسور الجيف ، من فوق ظهر السفينة ، وفى المناطق الضحلة ببجيرة المنزلة وجدت آلافا من البجع وطيور البشروس تتالق بالحمرة التى ألتها عليها أشعة الشمس .

مقادرة مصر :

وفى بورسعيد استقبلتنا الجالية النمساوية البلشارية استقبالا حافلا ، ووصلنا فى القوارب الى سفينتنا ميرامار ، وما هى الا دقائق حتى كنا على ظهر سفينتنا الطيبة ، وعزف سلامنا الوطنى ، ومدينة بورسعيد مدينة أوربية تماما ، فمينائها الواسعة ومباني القناة ، وأحواض السفن والورش والسفن - كل هذا له طابع أوربى تماما .

وتناولنا عشاءنا - متأخرا - فوق ظهر ميرامار ودعونا اليه عبد القادر باشا وبعض الفرنسيين ، وعندما حل الظلام زينت جاليتنا المقيمة هنا الميناء وعددا من القوارب باضاءة جميلة وراحت قوارب بهيجة مضاءة مزودة بفرق موسيقية تدور حول ميرامار ، مصدرة العذب الألحان ، وشاهدنا ألعابا نارية على البر .

وحان وقت الرحيل سريعا فغادر ضيوفنا ميرامار ، وكذلك عبد القادر باشا . لقد تعلمنا أن نقدر هذا الرجل ونحترمه فقد كان مرافقا مخلصا وصديقا حقيقيا .

لقد أمضينا أياما عظيمة لا يمكن أن تنسى فى أفريقيا ، وحملنا معنا انطباعات عن عظمة هذه القارة السوداء ، وعن حضارة مصر المقدمية المتألقة من قبور مضى عليها آلاف السنين . انها حضارة عظيمة لكنها تلاشت .

تعليقات المترجم على الفصل السادس

(١) بئر يوسف (الحلزون) ، وقد حفرت بداخل القلعة وخلف مسجد الناصر محمد بن قلاوون بئر للفايدة من مائها اذا قدر للقلعة أن يحاصرها عدو وهى البئر المعروفة بالحلزون ويبلغ عمقها تسعين مترا ، وتستخرج المياه منها بواسطة سواق وهى من عجائب البنين ؛ لأنها محفورة فى الصخر ويستطرد الأستاذ حسن عبد الوهاب قائلا : « وانى أرجح أن تلك البئر تسبق عصر صلاح الدين خصوصا وأنها خارج أسواره ، أما مياه النيل العذبة فقد كانت تصل الى القلعة فى عهد صلاح الدين وبعده بواسطة قناة على ظهر سور صلاح الدين الممتد من الفسطاط الى القلعة والموجودة بقاياها الآن ، » .

(٢) يتحدث جـ مونج (من علماء الحملة الفرنسية) عن عيون موسى قائلا أنها ٠٠٠ تكاد تكون مواجهة لوادى التيه ٠٠ ومنقع فى خطأ اذا ظننا أن اسم هذه الينابيع يستمد أصوله من العصور المصرية الضاربة فى القدم ، وأنه قد ظل يستخدم بلا انقطاع حتى اليوم ، ذلك أن اسم هذه الينابيع شأنها شأن عين العذراء فى المطرية (هليوبوليس القديمة) وشأن عيون غيرها كثيرات لا يعود الى ما قبل استقرار المسيحية فى مصر ، حيث تحورت أسماء قديمة تتصل بديانة تزعمت مكانتها الى أسماء أخرى مشابهة فى المعتقدات الجديدة . وعلى الرغم من أن عيون موسى أقل ملوحة من مياه إبار كثيرة حفرت فى مناطق أخرى فى الصحراء فانها مع ذلك مائلة للملوحة ٠٠٠ ؛ وصف مصر ، ج ٢ صص ٨١ - ٨٥ .

(٣) وجدنا من الضروري أن نشير - بالتفصيل - لفروع النيل القديمة - لكثرة الاشارة اليها فى هذه الرحلة . وعمدنا الى جعل هذه الحاشية مفصلة قدر الامكان حتى لا يقطع التجزئ استطرادها . على أن نحيل القارئ لهذه الحاشية نفسها اذا استلزم الأمر الاحالة اليها بعد ذلك .

فى العصور القديمة كان للنيل سبعة مصبات على الأقل ، وقد تقلص هذا العدد كما هو معروف الى اثنين فقط الآن ، ومن المؤكد فيما يقول الباحث الفرنسى دى بوا - أن البلتا قد تضاعفت مساحتها حتى لا تكاد تبلغ مساحة الدلتا القديمة ، على أية حال فهذه الأفرع هى :

١ - الفرع اليليوزى أو فرع بوياسطة .

٢ - الفرع الثانيسى وهو الذى يحمل اليوم اسم ترعة أم فارح .

٣ - الفرع المنديسى أو فرع الدبية .

٤ - الفرع البيلنتينى وهو فرع سباط الحالى .

٥ - الفرع المصبنتينى وهو فرع البرلس .

٦ - الفرع البولبيتينى وهو فرع رشيد .

٧ - الفرع الكانوى أو فرع ابي قير .

وكان الفرع البيبلوزى (شرق الدلتا) صالحا للملاحة عندما توغل الاسكندر الاكبر فى مصر فقد أدخل فى هذا الفرع اسطوله الذى استدعاه من غزة لكن الرمال تسد اليوم هذا الفرع ولا تزال ترى حتى أيام الحملة الفرنسية عند بيلوز (بالونظة) ففتحته التى كانت تؤدى الى البحر وهى مليئة بالطين ، وآثار هذا الفرع كانت لا تزال واضحة أيام الحملة الفرنسية الى الشمال من بلييس عند قرية بسطة التى كانت تعرف قديما باسم بوياسطة ، أما الفرعان الثانيسى والمنيديسى (الى الغرب من فرع البيبلوزى - وكلها شرق الدلتا) فكانا يصبان فى مكان تشغله بحيرة المنزلة وكان يسمى فيما مضى تنيس - ويميل مالو (أحد علماء الحملة الفرنسية) الى أن التربة المعروفة باسم بحر موييس هى الفرع الثانيسى للنيل وأن الرمال سدت جزءه الأدنى وبالتالي عاقته عن الوصول للبحر المتوسط (عن طريق بحيرة المنزلة) .

وكان الفرعان البيبلوزى (شرق الدلتا) والكانوبى (غرب الدلتا) يشكلان قمة الدلتا ويحدانها من ناحية الشرق والغرب .

وصف مصر ، ج ٢ (المدن والاقاليم المصرية) انظر ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٧٢ - ٤٢٠ .

(٤) يتحدث الأرشيدوق كثيرا عن العرب فى مصر ، فيقول : قايلت عربيا ، وقال العرب، وسكان عرب ٠٠٠ الخ وقد يتبادر الى الذهن أنه يقصد بدو الصحراء وهذا غير صحيح دائما ، فالواقع أن عرب الجزيرة الذين قدموا الى مصر مع عمرو بن العاص ، والذين كانوا فى مصر قيل عمرو ، قد تحول عدد كبير منهم بالتدرج الى سكنى الودى والدلتا ، وعرفوا فى التاريخ الإسلامى باسم العرب المزارعة واستمرت عملية تحضرهم واستقرارهم مستمرة ربما حتى الآن ، ويحدثنا كتاب الحملة الفرنسية عن العريان الذين كانوا مازالوا - وقت الحملة - فى حالة بدو وأولئك الذين استقروا وعملوا فى مجال الزراعة وغيرها ، ونفضل أن نورد هنا بعض ما ذكره دى بوا أحد علماء الحملة الفرنسية فى دراسة القبائل العربية فى صحراوات مصر - (ترجمة زهير الشايب ، ج ٢ من وصف مصر) : « حقيقة الأمر أن صحارى مصر أهلة ، يسكنها رجال ضخام شداد يسمون بالعريان البدو وهؤلاء يتجولون بينما هم ينقسمون الى عائلات ٠٠ ، ويماكانهم الاعتماد تماما على قطعانهم لكن الحرب والسلب يقدمان لهم مصادر أخرى للمعيشة ويشاهدهم المرء يحومون حول الودى والدلتا) كانهم ذئاب جائعة ، وإن كان العريان يسعون فى بعض الأحيان ٠٠ للحصول على أذن من الحكام للإقامة فى المناطق الخصبة وفى أحيان أخرى يستقرون عتوة فى مناطق خصبة ٠٠٠ ومع هذا فهناك بعض القبائل التى لا تتطابعا بفعل سلام طويل . وانتهى بها الأمر أن هجرت الصحراء وانتشرت داخل مصر وانتقلت بشكل تدريجى من حياة البدو حياة الزراعة ، والمثل الواضح فى الصعيد على ذلك قبيلة الهوارة وأصبحوا من ذرة الملك ، وفقدوا تدريجيا عاداتهم الرعوية ٠٠٠ وتحول حبهم الطاغى للحرية الى حب للوطن ٠٠٠ ، ص ٢٦٢-٢٦٦ .

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ى ٠ زادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدين هكسلى	نقطة مقابل نقطة
ت ٠ و ٠ قريمان	الجغرافيا فى مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر ٠ ج ٠ فوريس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راي	الأرض الخامسة
والتر الن	الرواية الانجليزية
لويس فارجاس	المشهد الى فن المسرح
فرانسوا دو ماسي	آلهة مصر
د ٠ قدرى حفى وآخرون	الانسان المصرى على الشاشة
أولج فولكف	القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكديوال	مجموعات النقود
عزيز الشنوان	الموسيقى - تعبير نفسى - ومنطق
د ٠ محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
اشراف س ٠ بى ٠ كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الكائن الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د ٠ عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
انور المعداوى	على محمود طه
بيل شور وأدبنييت	القوة النفسية للأهرام
د ٠ صفاء خلوصى	فن الترجمة
رالف ئى ماتلو	تولستوى
فيكتور برومبير	سينتدال

- رسائل وأحاديث من المنفى
الجزء والكل (محاورات في مضمار
الفيزياء الذرية)
- التراث الغامض ماركس والماركسيون
فن الأدب الروائي عند تولستوى
أدب الأطفال
- سدى هوك
ف . ع . ادنيكوف
مادى نعمان الهيتى
- أحمد حسن الزيات
اعلام العرب فى الكيمياء
فكرة المسرح
- د . نعمة رحيم العزوى
د . قاضل أحمد الطائى
جلال العشرى
- هنرى باربوس
السيد عليوة
جاكوب برونوفسكى
- هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟
تربية الدواجن
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
التحليل والطب
- د . روجر ستروجان
كاتى ثير
ا . سينسر
د . ناعوم بيتروفيتش
جوزيف داهموس
- سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
الصحافة
- د . لينوار تشامبرز رايت
د . جون شندلر
بيير البيير
- أثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن
التشكيلى
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية
وبعدها
- الدكتور غبريال وهبة
د . رمسيس عوض
د . محمد نعمان جلال
فرانكلين ل . باومر
- حركة عدم الانحياز فى عالم متغير
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى
١٨٨٥ - ١٩٨٥
- شوكت الربيعى
د . محبى الدين أحمد حسن
- التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

- تأليف : ج . د ادلى اندرو
جوزيف كونراد
د . جوهان دورشز
مجموعة من العلماء الأمريكيين
د . السيد عليوة
د . مصطفى عناني
صبري الفضلي
فراكلين ل . باومر
جايريبيل باير
انطوني دي كرميني
داويت سيوين
زافيلسكي ف . سي
ابراهيم القرصاري
بيتر رداي
جوزيف داموس
س . م پورا
د . عاصم محمد رزق
رونالد د . سمبسون
ونورمان د . اندرسون
د . انور عبد الملك
والت روسترو
فرد . س . هيس
جون يوركهارت
الان كاسبيار
سامي عبد المعطي
فريد هوبيل
شانندرا ويكراماسينج
حسين حلمي المهندس
روي روبرتسيون
دوركاس ماكلينتوك
هاشم النحاس
- نظريات الفيلم الكبرى
مختارات من الادب القصصي
الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد؟
حرب الفضاء
ادارة الصراعات الدولية
الميكروكمبيوتر
مختارات من الادب الياباني
الفكر الأوربي الحديث ٢ ج
تاريخ ملكية الاراضى في مصر الحديثة
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
كتابة السيناريو للسينما
الزمن وقياسه
اجهزة تكييف الهواء
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي
سبعة مؤرخين في العمور الوسطى
التجسرية اليونانية
مراكز الصناعة في مصر الإسلامية
العلم والطلاب والمدارس
الشارع المصري والفكر
حوار حول التنمية الاقتصادية
تبسيط الكيمياء
المعادن والتقاليد المصرية
التذوق السينمائي
التخطيط السياحي
الببذور الكونية
دراما الشاشة (٢ ج)
الهيرويين والايدين
صور افريقية
نجيب محفوظ على الشاشة

د ٠ محمود سرى طه
بيتر لورى
بوريس فيدوروفيتش سيرجيف
ويليام بينز
ديفيد الدرتون
أحمد محمد الشنوانى
جمعها : جون ٠ بورر
وملتون جولدينجر
أرنولد توينبى
د ٠ صالح رضا
م ٠ م ٠ كنج وآخرون
جورج جاموف
د ٠ السيد طه أبو سديرة
جاليليو جاليليه
أريك موريس وآلان هو
سيريل السريد
آرثر كيستلر
جون بورر
ب ٠ كوملان
ر ٠ ج ٠ فوريس
توماس أ ٠ هاريس
مجموعة من الباحثين
روى آرمنز
ناجاي متشيو
بول هاريسون
ميخائيل ألبى ، جيمس لفوك
فيكتور مورجان
اعداد محمد كمال اسماعيل
الفردوسى الطومى
برتون بورتر
محمد قواد ، كوبريلى

الكمبيوتر فى مجالات الحياة
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء
الهندسة الوراثية
تربية أسماك الزينة
كتب غيرت الفكر الإنسانى (٣ ج)
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
الفكر التاريخى عند الإغريق
قضايا وملاحق فى الفن التشكيل المعاصر
التغذية فى البلدان النامية
بداية بلا نهاية
الحرف والصناعات فى مضر الإسلامية
حوار حول النظامين الرئيسيين
لكون
الارهاب
أختلافون
القبيلة الثالثة عشرة
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
الأساطير الإغريقية والرومانية
تاريخ العلم والتكنولوجيا
التوافق النفسى
الدليل البيولوجرافى
لغة الصورة
الثورة الإصلاحية فى اليابان
العالم الثالث غدا
الاقراض الكبير
تاريخ النقود
التحليل والتوزيع الأوركستراالى
الشاهنامه (٢ ج)
الحياة الكريمة (٢ ج)
قيام الدولة العثمانية

ادوارد ميرى
 اختيار / د. قليب عطية
 موني براخ وآخرين
 ادامز فيليب
 نادين جورديمر وآخرون
 زيجمونت هينسر
 ستيفن أوزمنت
 جوناثان ريل سميث
 توني بار
 بول كولنر
 موريس بير براير
 رودريجو فارتينا
 فانس بكارد
 اختيار / د. رفيق الصبيان
 بيتر نيكولز
 برتراند راصل
 بينارد دودج
 ريتشارد شاختر
 ناصر خسرو علوى
 نفتال لويش
 جاك كرابس جونيور
 هوبرت شيلر
 اختيار / صبرى الفضل
 احمد محمد الشنوانى
 اسحق عظيموف
 لوريتو تود
 سوريال عبد الملك
 ابرار كريم الله

عن النقد السينمائى الأمريكى
 ترانيم زرادشت
 السيئما العربية
 دليل تنظيم المتاحف
 سقوط المطر وقصص اخرى
 جماليات فن الاخراج
 التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)
 الحملة الصليبية الاولى
 التمثيل للسيئما والتليفزيون
 العثمانيون فى اوربا
 صناع الخلود
 الكنائس القبطية القديمة فى مصر (٢ ج)
 رحلات فارتينا
 انهم يصنعون البشر (٢ ج)
 فى النقد السينمائى الفرنسى
 السيئما الخيالية
 السلطة والفرد
 الأزهر فى الف عام
 رواد الفلسفة الحديثة
 سفر نامه
 مصر الرومانية
 كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر
 الاتصال والهيمنة الثقافية
 مختارات من الآداب الآسيوية
 كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)
 الشموس المتفجرة
 مدخل الى علم اللغة
 حديث النهر
 من هم القطار

اعداد / جابر محمد الجزائر
٥٠٠ ج٠ ولز
جوستاف جرونياوم
ستيفن رانسيما
أرنولد جزل
بادى اونيمود
فيليب عطيه
جلال عبد الفتاح
محمد زينهم
مارتن فان كريفلد
سوندارى
فرانسيس ج٠ برجين
ج كارفيل
الفين توفلر
توماس نيههارت
اعداد كريستيان سالين
بول وارن
جوزيف بتس
اعداد محمود سامى عطا الله
جورج ستانير
كريستيان دى روش
ستانلى جين سولومون
جوزيف م٠ م٠ بوجز
أدمز متز
ايقر شاتزمان
فاسكو داجاما
ادوارد ويونو
ويليام ه٠ م٠ ماثيوز
جارى ب٠ ناش

ماستريخت
معالم تاريخ الانسانية ٤ ج
حضارة الاسلام
الحملة الصليبية
الطفل ٢ ج
افريقيا الطريق الآخر
السحر والعلم والدين
الكون٠ ذلك المجهول
تكنولوجيا فن الزجاج
حرب المستقبل
الفلسفة الجوهريه
الاعلام التطبيقي
تبسيط المفاهيم الهندسية
تحول السلطة
فن المايه والبانثوميم
السيناريو فى السينما الفرنسية
خفايا نظام النجم الأمريكى
رحلة جوزيف بتس
الفيلم التسجيلى
بين تولستوى ودوستويفسكى
المرأة الفرعونية
أنواع الفيلم الأمريكى
فن الفرجة على الأفلام
الحضارة الإسلامية فى القرن ٤ هـ
كوئتا المتمدد
رحلة فاسكو داجاما
التفكير المتجدد
ما هى الجيولوجيا
الحمرة والبيضا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٦/١٩٣٣

ISBN .. 977 .. 01 .. 4663 .. 3

قام الأمير النمساوي ريدولف برحلته لمصر والقدس في أواخر عهد
الخدويو إسماعيل وقد مسح مصر من شمالها إلى جنوبها ووصف
معظم المدن المصرية وأشار إشارات مفيدة للإثار ونشر ترجمات
رائعة لبعض الكتابات الهيروغليفية وبعد مغادرته مصر توجه إلى
حيفا ومنها زار القدس الشريف وغيرها من المزارات المقدسة ووصف
الحياة البدوية حول نهر الأردن وأبدى إعجابا بروح التسامح في
القدس وتعرض للمذاهب المسيحية والممارسات الطقسية المختلفة
كما أورد بعض القصص اليهودية وأبدى رأيه فيها